

أحلام نائل سويدان

أحمد عبد العزيز



الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

إهداء

إلى اللص الذي أحببته..

كانت السرقة وما زالت نوعًا من السلب.

لم أكن أتخيل قطّ..

أن أجد بها يومًا ما عطاءً!

لكن تلك السرقة كانت كذلك!

عندما صار ذلك السلب.. إلهاً.

إليّ..

وإلى كل أصحاب حقوق الملكية الفكرية المسلوبة..

أهدي إليكم هذه الرواية.

مقدمة

أعلم أن هذه هي المقدمة التي لا يقرأها أحد.. لكن فضلًا
اقرأها.

منذ ما يقرب من عامين، كانت تداعب رأسي أفكارٌ عديدة عن
الزمن، وعما يمثّله في حياتنا، إن لم يكن يمثّلها كلها، وداعبتني فكرة
السفر عبر هذا الزمن، إلى الماضي تحديدًا، وما يمكن أن تفعله من
تأثير في الحاضر سلبيًا أو إيجابًا، كانت ثمة فكرة رواية تكاد تختمر
في ذهني، وتكاد حبكتها الدرامية أن تترابط وتتماسك.

ولكن، حتى بعد قراءة ما كان يلزم من مراجع، والبحث على
شبكة الإنترنت، كعادة أي تحضير لكتابة عمل ما، واكتمال الإعداد
والتجهيز، ظل دائمًا هنالك شيء ما ينقصها، حتى تتحرّر من ثنايا
عقلي وتتحوّل إلى كلمات وحبر على ورق، كان هناك جزء مفقود في
ترابط عناصرها، يمنعني دائمًا من بدء التدوين.

حتى أتى ذلك اليوم..

في الثاني والعشرين من أكتوبر عام ٢٠٢٢

كتبت على صفحتي على موقع فيسبوك مقالًا، أو منشورًا عاديًا
جداً، وباللهجة العامية، ما زال منشورًا بالطبع -يمكنك أن تقرأه على
صفحتي- كان يتحدث عن المقارنة بين (العيش البلدي والطعمية)
من جهة وبين (وجبات الفاست فود) من جهة أخرى، وعن ذكرياتي
عن ذلك الأمر عندما كنت تلميذًا في المرحلة الإعدادية. في الحقيقة

كان يحمل بعض الفلسفة بين السطور!

لم يمر وقتٌ طويل، مجرد سويعات، ووصلتني بعض الرسائل من القراء المتابعين لصفحتي تخبرني بأن مقالي الصغير هذا قد سُرق وحُذف اسمي من عليه، وأعيد نشره على عديد من الصفحات والمجموعات، ربما كان أشهرها مجموعة تحمل اسم الدكتور مصطفى محمود!

بحثت عن ذلك فوجدت أن الأمر صحيح بالفعل، وقد استقبل المقال المسروق آلاف علامات الإعجاب، كما أعاد نشره متابعو المجموعة عدة آلاف أخرى من المرات!

بعد مرور يوم..

كان ذلك المقال يغزو الصفحات تحت مختلف الأسماء، آلاف المرات تم نسخه وتذييله بأنه من كتابات الراحل الدكتور مصطفى محمود، ومئات المرات دون توقيع، أو باعتبار أن ناشره هو المؤلف! أحدهم، وكان عراقياً، عدّل بعض المصطلحات التي كتبتها بالعامية المصرية لكي تناسب اللهجة العراقية، بالطبع بوصفه هو كاتب المقال، كما نسخته إحدى الفتيات بعد أن عدّلت كل ضمير مذكر إلى مؤنث!

تبع ذلك آلاف المرات من إعادة النشر، والتي بدورها استقبلت آلاف من علامات الإعجاب والتعليقات بعبارات الاستحسان والشكر لمؤلفي المقال المزيّفين الذين تجاوز عددهم الآلاف!

كان على ما يبدو أن حقوق الملكية الفكرية في ذلك الوقت قد أصبحت (سداح مداح)، وتفرّق دُمّ المقال ومؤلفه بين الصفحات والناشرين!

حاولت مرارًا أن أكتب في التعليقات هنا وهناك أنني صاحب المقال الأصلي، لكنني كنت قد أصبحت مثل المجذوب الذي يهذي بكلمات لا ينصت إليها أحد. في حين لم يبحث أحد عن الحقيقة، إلا من رحم ربي.

لم يفكر أحد كيف للدكتور مصطفى محمود -رحمه الله- المولود في العام ١٩٢١ والذي كان في المرحلة الإعدادية (أو بالأصح ما كان يُعرف بشهادة الكفاءة التي تسبق شهادة البكالوريا)، في ثلاثينيات القرن العشرين، أن يكتب مقالًا عن الوجبات السريعة والبرجر والبطاطس المقلية، حيث لم يكن هناك في ذلك الوقت من الأساس ما يُدعى بوجبات سريعة أو (فاست فود)، ولا كانت هناك أي مطاعم من تلك التي كنت قد ذكرتها في مقالي قد تم تأسيسها!

على كل حال، كان ربما سيمرّ هذا الموقف دون أن أتوقف عنده كثيرًا من الوقت، أو أن أعيره كثيرًا من الاهتمام، فالحقيقة أنني كنت قد اعتدت سرقة ما أكتبه بصورة شبه يومية.

وكدت أتناسى الأمر كله، حتى وجدت ذات يوم رسالة أخرى من أحد متابعي صفحتي تلفت نظري إلى تعليق لأحد الأشخاص على إحدى المجموعات، كان الرجل يُعرّف نفسه بوصفه كاتبًا وشاعرًا، وكان يكتب بعض أبيات الشعر الرديء، الصبياني التراكيب والقافية،

على صفحة تحمل اسمه، ترك هذا الرجل تعليقًا على مقالي المنشور؛ أو بالأحرى المسروق يدّعي فيه أنه المؤلف الأصلي للمقال، ويعطي (أدمن) الصفحة درسًا في الأخلاق عن احترام حقوق الملكية الفكرية، والإبداع!

لقد كان نوعًا من (البجاجة) لم أعتدها، أزعجني هذا الأمر كثيرًا، لكنني عندما دلفت إلى صفحة هذا الشخص، وجدت العجب!

في بادئ الأمر وجدت مقالي منسوخًا بالكلمة والهمزة، ومنشورًا على صفحته بعد يومين من نشري إياه، كان ذلك طبيعيًا، لكن الظريف في الأمر هو أنني وجدته قد كتب بعد ذلك بيوم منشورًا آخر لمتابعيه يتحدث فيه عن تدني أخلاق البعض واستحلالهم سرقة الأفكار والكتابات دون وازع أخلاقي أو ديني، ويشكو من سرقة المقال وإعادة نشره على الصفحة المذكورة. ثم تطور الأمر وبعد أن قام البعض على ما يبدو بـ (تطبيب خاطره)، إلى أن كتب منشورًا آخر لمتابعيه يعلن صراحةً تغاضيه عن حقه الفكري والأدبي في ذلك المقال؛ نظير أن يهبه لوجه الله ولا يكتم علمًا أو فكرًا أو فلسفة لينتفع الناس من فيض علمه. كان الرجل يدخل في مرحلة متقدمة من تصديق الكذبة!

كتبت وقتها كل ما رأيته على صفحته تلك، مع صور المنشورات التي كتبها على صفحته -قبل أن يحذفها لاحقًا بالطبع- ونشرت ذلك على صفحتي العامة؛ لكي أنقذ ما يمكن إنقاذه من حقوق ملكيتي الفكرية المهترئة دمها على الصفحات. إلا أنني وجدت ذلك الرجل وللعجب الشديد، يضع تعليقًا على منشوري هذا!

ادّعى في بادئ الأمر بأنه هو بالفعل مؤلف المقال، وعندما أخبرته ببساطة أن المنشور على صفحته يوم ٢٤ أكتوبر هو المطابق لما كتبه أنا يوم ٢٢ أكتوبر، وأن المنطق وحده يثبت النقل. عاد وأخبرني بأنني من الأساس شخص مدّعي، وأن المقال كله في الأصل من تأليف الدكتور مصطفى محمود، وبأنني أنا الذي نسخته منذ البداية وادّعت ملكيته!

(فقد كان على الأغلب يقع تحت ما يعرف "بتأثير مانديلا" للذاكرة الجمعية المزيّفة، التي تكوّنت لديه من مشاهدة مقالي لأول مرة على المجموعة الخاصة بالدكتور مصطفى محمود، قبل أن ينسخه منها).

ثم تطور الأمر بعد أن لم تُفلح تلك الحجة لأن أخبرني بأن تلك الذكريات التي كُتبت عنها لا تخصني وحدي بل هي ذكريات جيل كامل، ولأنه يقاربنني في السن فإن له حقًا أصيلاً في ذكريات الجيل كله، وأن ذكريات الجيل ملك الجميع، لذلك لا يصح أن أدعي ملكيتي لهم وحدي في ذاكرتي، وأن ذلك إثبات على عدم ملكيتي الفكرية للمقال، ثم تطور الأمر أخيرًا لأن اتهمني بأنني أقوم بالتشهير به! ثم.. هل تعتقدون أن الأمر توقف عند هذا الحد؟!

لقد تطور الأمر معه، لأن قام ببث مباشر على صفحته يصرخ فيه بعصبية مفرطة، ويستغيث فيه بكل الشرفاء وأصحاب الأقلام النزيهة والمدافعين عن الحريات وحقوق الإنسان، ويطلب مساعدة المحامين أنصار الحق والعدل للوقوف بجواره في قضيته الإنسانية التي هو بصدد إقامة دعواها ضدي، لأنني تعديت عليه تعديًا سافرًا

حين ادّعت أنه نسب إلى نفسه دون وجه حق مقالًا كتبته استنادًا إلى ذكرياتي وأفكاري... التي تخص الجيل كله!

بالتأكيد لم يحدث ذلك، فعلى الأغلب أن أول محامٍ قام باستشارته نصحه بأمانة أن يصمت تمامًا ويحذف كل ما كتبه على صفحته فورًا، لكيلا أرفع أنا عليه دعوى حقوق ملكية فكرية وتشهير، الأمر الذي لم أكن سأفعله على كل حال؛ لسذاجة الأمر برمته. إلا أن الرجل وعلى رغم كل شيء، لم يتوقف عن إرسال الرسائل إليّ لأسابيع لاحقة، والتي لم أهتم مرة واحدة منذ ذلك الحين وحتى اليوم بقراءتها، قبل أن أقوم بحظره نهائيًا والتخلص من ذلك الكابوس!

كان ذلك الرجل لا يهدأ، ولا يملّ، ولا يتوقف عن إثبات وهم لا يوجد في مكان آخر سوى عقله! في الواقع، كانت تجربة غريبة لم أمّر بها في حياتي من قبل.

على كل حال، فقد انتهت القصة عند هذا الحد، وكذلك مقدمة كتابي، والحقيقة عزيزي القارئ، هي أنني لم أسرد لك هذه القصة لشيء سوى لكي أتقدم بالشكر الجزيل لهذا الرجل، ولكي أخبرك في النهاية وعلى رغم كل شيء بأن لهذا الرجل فضلًا كبيرًا عليّ، فعلى الرغم من كل شيء، فإنه دون أن يشعر، أهداني هدية عظيمة.

الإلهام... والقطعة الناقصة في (البازل)!

صورة!

كانت لا تزال تسري نسمات باردة في الأجواء في صباح ذلك اليوم على الرغم من اقتراب حلول فصل الربيع.

على أحد المقاهي ذات الطابع الأوروبي، جلس رجل هادئ، أشيب الشعر، ممتلئ الجسد قليلاً، ذو ملامح تنم عن مصرية خالصة.

من خلف عدسات نظارته الطبية السميكة أخذ يطالع جريدة اللطائف المصوّرة في اهتمام شديد، كان تاريخ العدد هو الثالث من شهر مارس عام ١٩١٩، قبل أن يشيح بوجهه عن الجريدة ويسأل النادل، بلغة عربية بليغة، عن العدد الجديد من الجريدة، ليجيبه الأخير بعربية لا تخلو من لهجة يونانية أن ما يحمله بيده هو آخر الأعداد صدورًا، لأن -بحسب وصفه- اليوم هو الأحد، التاسع من مارس، في حين لا تصدر الجريدة سوى يوم الاثنين من كل أسبوع.

كانت الشوارع خالية من المارة، عدا بعض الباعة الجائلين، وسائقي عربات الحنطور، التي تراصّت على يمين شارع سليمان باشا الفرنسي ويساره، بمنطقة وسط البلد.

كأي عطلة لنهاية الأسبوع، كما كان الحال للمحال التي كان يمتلك غالبيتها التجار الأوروبيون أو (الخواجهات)، كانت كلها مغلقة. حتى في التاسعة صباحًا كانت لا تزال الحركة هادئة في الشارع الذي يصل بين ميدان الإسماعيلية وميدان سليمان باشا الفرنسي، حيث يقبع تمثاله الكبير وسط الميدان الذي يحمل اسمه، كانت الشمس قد بدأت تلقي بأشعتها الذهبية وتمنح الأجواء بعضًا من الدفء.

كان دفء الشمس ربما يَعد الأجواء لأحداث ساخنة اقترب وقت اشتعالها.

بعد أن تابع حركة عقارب ساعة يده، طوى الرجل الجريدة وتركها على الطاولة، ونهض مغادرًا المقهى، مترجلاً بخطوات بطيئة تتماشى مع عمره الذي قارب التاسعة والستين عامًا، حتى وصل إلى الميدان، نظر باهتمام إلى تمثال سليمان باشا، ثم إلى الجهة الأخرى من الشارع، مُلقياً بعض النظرات الفاحصة على البنايات المترصّة على جانبي الطريق والتي كانت تمزج بين الطرازين المعماريين الفرنسي والإيطالي بدقة تلفت الأنظار، وتُضفي عليها رونقًا مميزًا، قبل أن يتمتم بكلمات:

- أمممم، أعتقد أنه طلعت حرب!

لم يكد ينتهي من مخاطبة نفسه حتى تهادت إلى سمعه أصدااء أصوات قادمة من مكان بعيد، تقترب ببطء، نظر في اتجاه الصوت بهدوء شديد، وابتسم..

لم تكد تمر بضعة دقائق حتى بدأت الأصوات تتضح تدريجيًا، كان الهتاف المدوّي بكلمات (عاش الهلال مع الصليب، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، سعد.. سعد.. يحيا سعد).

سرعان ما وجد نفسه بداخل مسيرة هائلة من الرجال والنساء، رافعين عديدًا من اللافتات القماشية، دوّنت عليها الشعارات ذاتها، وصورًا مطبوعة رمادية اللون لسعد باشا زغلول، حاملين على أعناقهم شيخًا وقسيئًا في صدر المسيرة، ملوهم الحماس والإقدام،

تتعالى هتافاتهم لتتهتز لها الجدران.

على عكس كل المارة، لم يبدُ على الرجل أيُّ من مظاهر الدهشة.

دس يده في جيب سترته، وأخرج هاتفًا نقالًا ذكيًا، يحتوي على
ثلاث كاميرات رقمية مدمجة!

مد يده على اتساعها، موجهًا الكاميرا الأمامية للهاتف نحو وجهه،
ليظهر على شاشة الهاتف وخلفه المسيرة وتمثال سليمان باشا في
لقطة واحدة.

وضغط على زر التقاط الصورة!

استراحة محارب

القاهرة في نوفمبر ٢٠٢١

بصوت مميز مألوف، دوى رنين هاتف منيرة، معلناً موعد استيقاظها اليومي، في تمام الساعة صباحاً، نهضت الأخيرة من فراشها، مدت يدها وأدارت مفتاح تشغيل جهاز المذياع العتيق الطراز الذي تهوى الاستماع إليه، عبثت بمفتاح ضبط التردد، حتى ارتفع صوت إذاعة الأغاني.

كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة صباحاً حين كانت منيرة تضع اللمسات الأخيرة لطلاء شفافها الشفاف، وتستكمل وضع مساحيق التجميل البسيطة الهادئة، كانت مناسبة تماماً لأوقات العمل لا سيما بجهة حكومية كالهيئة العامة للكتاب.

وقفت أمام المرآة تطالع انعكاس صورتها قبل أن تغادر البيت، نظرت إلى وجهها ذي الملامح المصرية الضاربة في القدم، كانت تحب أن تُعيد لذاكرتها كل يوم ما أطلقتها عليها زميلاتها القدامى بالمدرسة من لقب حشيشسوت، كان اسم الشخصية التي أدّت دورها في مسرحية قديمة على مسرح المدرسة قد التصق بها، لشدة تقمصها لشخصية الملكة، التي كانت تلقّب بأنها أميز النساء.

بلونها القمحي، وجبهتها المنحوتة فوق عينيها السوداوين، نظرت مجدداً إلى قوامها المعتدل وطولها المتوسط، وهي تتفحص ملابسها الفضفاضة ذات الألوان الهادئة، وتتحسس غطاء رأسها، وقلادتها ذات الطراز الفرعوني التي تكتمل بها الصورة، مطّت شفيتها وهي

تبتسم ابتسامة روتينية قبل أن تُدير ظهرها للمرأة وتلتقط حقيبة يدها وتهتم بالخروج من غرفتها، حين دوى صوت جرس متقطع مميز قادم من المطبخ، نظرت في شاشة هاتفها النقال على التوقيت، وهي تستطرد قائلة:

- حسناً، لقد تأخرت بالفعل.

بخطوات سريعة، دلفت إلى المطبخ، فتحت باب جهاز (الميكروويف) وأخرجت بعض الأرغفة الساخنة منه، توجهت نحو غرفة الطعام، وضعتهم على المائدة بجوار بعض الأطباق التي كانت تحوي الفول والبيض وأنواعاً من الجبن، تركتهم وتوجهت نحو غرفة أخرى بالمنزل، تحمل بيدها كوباً من عصير البرتقال، طرقت الباب مرتين، ثم ما لبثت أن فتحت الباب ودلفت إلى الداخل، وضعت الكوب على الصوان الخشبي، وهي تقول بصوت عالٍ:

- بابا.. صباح الخير، ها هو عصير البرتقال الذي تحبه، أنا مضطرة إلى المغادرة الآن، لقد تأخرت كثيراً.

وهو يتثاءب، واضعاً يده أمام فمه وماداً الأخرى، أجابها بصوت يملؤه النوم:

- منيرة... صباح الخير يا حبيبتي، كم الساعة الآن؟

- صباح الخير يا أستاذ نائل، ما كل هذا الكسل، إنها الثامنة.

- حقاً؟ أنتِ على حق بالفعل، لا أدري كيف لم أستيقظ حتى الآن.

- لا عليك، ولكن هيا، أرني بعض النشاط، لقد أعددت لك مائدة

الإفطار، أرجوك تناوله وهو ساخن.

- حسناً يا حبيبتي، ولكن أخبريني، هل اشترى لي مراد الجرائد قبل أن يذهب إلى المدرسة.

مرت لحظة من الصمت، قبل أن تجيبه منيرة بصوت يشوبه الحزن والدهشة:

- أخي مراد يعمل بدولة الإمارات العربية منذ عشرة أعوام يا أبي. نظر إليها نائل بدهشة للحظات قبل أن يفرك جبهته بيده وهو يجيبها بابتسامة شاحبة:

- ما هذا! هل تتخيلين أنني كنت أحلم به قبل لحظات عندما كان لم يزل طالباً مع زملائه في أحد الفصول التي كنت أدرس بها، لقد كنت أحلم بأنني أوبّخه لأنه كالعادة لم يحفظ نص الشعر المقرر بالنصوص الأدبية، وأقول له مثلما كنت أقول له دائماً لا يصح أن يكون أبوك مدرس اللغة العربية وابنه لا يحفظ النص، يا لها من أيام! يبدو أنني لم أستيقظ بعد يا بُنيتي!

بابتسامة حانية وهي تهز رأسها، قبل أن تقبله من جبهته، أجابته:

- كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً يا أستاذ نائل، قبل حتى أن تسافر إلى الإمارات العربية وتتركنا سنواتٍ طويلة أنت الآخر، لكن على كل حال، سيظل دائماً الأستاذ نائل سويدان هو أفضل مُعلم للغة العربية في العالم عندي، أ طال الله في عمرك، هيا استيقظ يا أبي.. لا تُقلقني عليك.

- لا تقلقي يا حبيبتي، لقد استيقظت بالفعل، أخبريني ألم يهاتفك مراد مؤخرًا؟

- لا يا أبي، لم يتصل بي منذ أسبوعين تقريبًا.

- حسنا يا ابنتي، اذهبي أنت إلى عملك حتى لا تتأخري.

- حسنا يا أبو مراد، ولكن أرجوك لا تنس أن تتناول دواءك عقب الإفطار، لقد وضعت لك حبات كل صنف منه في العلبة المدوّن عليها التوقيت والتاريخ.

- حسنا يا عزيزتي، هيا لا تؤخري نفسك.

- حسنا يا أبي، إلى اللقاء.

- صحبتك السلامة يا ابنتي.

بنظرة حانية، تابع نائل خطوات منيرة وهي تغادر الغرفة، حتى وصل إليه صوت غلق باب الشقة عقب خروجها منه، مد يده نحو الصّوان بجانب فراشه والتقط نظارته الطبية ذات العدسات السميكة من عليه، وضعها على عينيه، التقط كوب العصير ورشف منه رشفة وهو يضع قدميه على الأرض، قبل أن يستدير بجذعه للخلف، وهو يقول بصوت عالٍ:

- يا أحلام، أما اكتفيت من النوم حتى الآن؟ لقد تجاوزت الساعة الثامنة صباحًا بالفعل، هيا بالله عليك لتشاركني الإفطار، لقد جهّزت لنا منيرة الإفطار قبل أن تذهب إلى عملها.

ببطء شديد، استدارت أحلام وهي مستلقية على الفراش، نظرت

إليه شبه مغمضة العينين، وهي تجيب عليه بصوت شاحب:

- صباح الخير يا زوجي العزيز، ألن تتوقف أبدًا عن ذلك، تعلم أنني لم أنم قبل بزوغ النهار، لكنك لا تيأس أبدًا من إيقاظي كل يوم في نفس الموعد.

- ولن أياأس أبدًا يا عزيزتي، كيف بالله عليك أتناول إفطاري دون وجه حسن فاتح للشهية.

ضحكت أحلام وهي تجيبه:

- ما زلت حتى بعد أن أصبحنا عجوزين تخدعني بكلمات الغزل.

- من تلك العجوز التي تتحدثين عنها، أنتِ ما زلتِ في نظري تلك الفتاة الحسنة التي كنت أحلم بالزواج بها.

- آه منك يا نائل، وكلامك الحلوا حسنًا لقد أفحمتني، سأتناول الإفطار معك، لكن أرجوك بعد الإفطار دعني أحاول النوم ساعة واحدة أخرى قبل موعد المشفى، تذكر أنني على رغم كل شيء طبيبة في مشفى حكومي، ولم يتبقَّ لي من رصيد الإجازات هذا العام سوى سبعة أيام بالكاد يمكن أن ندّخرهم للمصيف.

- مشفى ثانيةً، ألم تعودني منه بعد الفجر.

- كانت حالة طارئة يا نائل، هل تريدني أن أحدّد للنساء موعد ولادتهن مسبقًا ليكون في ساعات العمل الرسمية فقط.

- ولم لا، ألسنت رئيسة القسم؟!

ضحكت بسخرية وهي تجيبه:

- إذا كنت أنا نفسي لم ألد منيرة ومراد إلا في ساعات الفجر.

أجابها ضاحكًا:

- لأنك رئيسة القسم أيضًا تلدين وقتما تريدن، حسنًا، هيا يا دكتورة، الإفطار جاهز والفول الساخن الذي أشم رائحته لن ينتظرنا ليبرد.

أنهيا الإفطار معًا، قبل أن يبادر نائل بالتطوع بجمع الأطباق وغسلهم، وهو يردف إليها، قائلاً:

- حسنًا يا عزيزتي، لن أكون أنانيًا أكثر من هذا، يكفيني ذلك من الوجه الحسن، من حقك أن تخلدي إلى النوم قليلًا قبل أن تعودى إلى المشفى في موعد دوامك، سأعد قهوتي بنفسى وأجلس في غرفة المكتب أطالع أحد الكتب.

- حسنًا يا حبيبي، أنا آسفة على كل حال، لكنك تعلم أنه واجبي.

- لا عليك، يكفيني سماع كلمة حبيبي تلك.

أغلقت أحلام باب الغرفة وأسدت الستائر وسرعان ما خلدت إلى النوم مجددًا، حينما كان نائل قد أعد لنفسه كوب القهوة الصباحي، وحمله عابرًا ردهة البيت متوجهًا نحو غرفة المكتب.

لم يكن بالبيت كثير من الغرف، كان بيتًا عاديًا، بخلاف القاعة الرئيسية متوسطة الحجم التي كانت تضم غرفة الطعام وصالون الاستقبال، كان البيت يحتوي على ثلاثة غرف، غرفته هو وزوجته

أحلام، وغرفة منيرة وغرفة المكتب والمكتبة، تلك التي كانت في الأساس غرفة مراد ابنهما الأصغر، قبل أن يتزوج ويسافر للعمل بالخارج، حينها استطاع نائل أخيرًا امتلاك غرفة المكتب والمكتبة الكبيرة التي كان يحلم بها، والتي احتوت كل الكتب التي كان يخزنها في صناديق من الورق المقوّى في كل مكان، كانت تلك الغرفة أكثر مكان يشعر فيه بالراحة، ويقضي به ساعات طويلة في مطالعة الكتب وممارسة هوايته المحببة، لا سيما بعد أن أُحيل إلى التقاعد منذ أكثر من ثماني سنوات.

كانت شقتهم تلك الواقعة بشارع سفير بمنطقة مصر الجديدة، ملكًا لأحلام من البداية، وبقطونهم بها ساعدت زوجها الشاب لبدء حياة مستقرة، ربما لم يكن في ذلك الوقت يستطيع توفيرها، إلا أنه قدّر لها جميل صنعها، وظل طوال عمره ممتنًا لها، أما أحلام فقد جعلت من تلك الشقة جنة صغيرة، بأثاث بسيط، عادي، ليس به كثير من مظاهر الفخامة، لكنها دافئة مريحة للأعصاب، ربما كانت تستمد ذلك من دفء علاقة الحب الكبير الذي جمع بينهما منذ قرابة الأربعين سنة.

كانت أحلام اسمًا على مسمّى، كانت فتاه أحلامه، ثم ما لبثت أن أصبحت عروسه، وزوجته الجميلة، حب عمره، التي ملأت البيت بالحب والسعادة والنظام والترتيب المتقن لكل شيء، كانت هي من فاجأته ذات يوم بالمكتبة التي كان يحلم بها، بعد أن تزوج ابنهما الأكبر، وهي من دأبت على أن تملأ البيت بالورود والأزهار والنباتات الخضراء الزاهية، هي من حوّلت شرفة غرفة المكتب إلى ما يُشبه

الحديقة الوارفة الأزهار، وهي من ابتاعت قفص العصافير التي كان قد اعتاد استهلال أيامه على زقزقتها وهي تشدو بأصواتها البديعة، كانت هي من ابتاعت له جهاز الحاسب النقال وعلمته كيف يتعامل معه، وملأت ذاكرته بكل أغاني أم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب وفيروز التي كثيرًا ما جلسا معًا يستمعان إليها ويستعيدا ذكرياتهما القديمة.

باختصار شديد، كانت أحلام هي سر سعادة نائل، وعلى رغم مرور السنين لم يفتر حبها في قلبه قط، ظل دائمًا وفيًا لها وشغوفًا بإرضائها طوال الوقت. كانت أحلام هي الحياة بالنسبة إليه، على رغم كل تلك السنوات كان يشعر كأنها طفله.

شيء ما كان يُشعره دائمًا كأنها تربت على يديه، وكبرت أمام عينيه!

بعض علاقات الحب تنطوي على ما هو أعظم من مشاعر حبيب لحبيبتة، تتحوّل أحيانًا لمشاعر أبوة، عندما يحتوي الرجل امرأته، ويمنحها الأمان، تتولّد كثير من المشاعر، وتزداد ثراءً، وعمقًا، تتحول الحبيبة حينها إلى صديقتة وابنته، والزهرة التي رواها فتفتحت في بستان قلبه.

كانت منيرة تمازحه دائمًا بأنها لن تتزوج أبدًا؛ لأنها لن تجد عاشقًا مثله في شباب هذه الأيام.

دلف نائل إلى شُرْفَةِ المكتب المُطِلَّة على شارع سفير، بعد أن ضغط على زر تشغيل أغنية (رباعيات الخيام) لأم كلثوم على جهاز

الحاسب النقال، وأخفض الصوت قليلاً حتى لا يزعج زوجته النائمة، وضع كوب القهوة على المنضدة الصغيرة وجلس على المقعد الخشبي، استنشق عبير الزهور ملء رئتيه، علت وجهه ابتسامة وهو يحدث نفسه، قائلاً:

- يبدو أن أحلام لم تنس أن تروي الورود قبل أن تخلد إلى النوم فجراً، التربة ما زالت رطبة، كم أنت منظمة ولا تنسين شيئاً أبداً يا دكتورة!

قالها وهو يتناول كوب القهوة من على المنضدة، رشف منه أول رشفة ثم أغمض عينيه وأسند رأسه إلى المقعد منصتاً لموسيقى افتتاحية الأغنية. على رغم كل شيء، كان يكتنفه شعور عميق بالوحدة.

في مرحلة من العمر، يشعر الإنسان بنوع من الغربة عما كان يظنها حياته، يدرك في وقت من الأوقات أن حياته التي ظن أنه يعرفها جيداً، ويحبها، لم تكن سوى طريق بدأه منذ سنوات وأجبر على السير فيه دون وعي، لم يلتفت كثيراً أو يحاول أن يفهمه، كان سائراً طوال الوقت تدفعه التزامات واحتياجات ومسؤوليات ونفقات، بعض البشر لا يمتلكون رفاهية التوقف وتقييم الأمور، لا يمتلكون رفاهية الاستسلام، أو حتى رفاهية الإحساس بالتعب!

في تلك الحياة، الجميع محاربون، لم يكن ينبغي تعريف تعبهم المحارب بالمقاتل في ساحة المعارك فحسب، كان ذلك خطأ فادحاً، فمعترك الحياة ممتلئ بالساحات، يعج بالمحاربين من كل الأصناف.

لم تذكر المراجع العسكرية قط أن للحصول على لقمة العيش معركة لا بد أن تخاض. لم تذكر كتب التاريخ قط أن النجاح في سد جوع الأفواه الصغيرة الجائعة هو انتصار في معركة خاضها أب مناضل، أو أم مجاهدة. كل متطلبات الحياة والتزاماتها هي في واقع الأمر، حروب عتيدة تطحن عظام الآباء والأمهات يومًا بعد يوم.

تلك الحروب، هي حروب طويلة الأمد، يقاتل المرء فيها لسنوات طوال، يسلم الراية بها جيلًا بعد جيل، تنتهي الأعمار والحيوات.. ولا تنتهي الحرب أبدًا، تلك الحرب سرمدية على ما يبدو، يتبدل عليها الجيوش، ولا ينتصر أحد!

لكن ربما، وبعد سنوات طويلة من الجهاد على حدود أرض الواقع، يتمكن المحاربون من نيل استراحتهم، بعدما يصلون إلى العمر الذي تخور فيه قواهم، وقدرتهم على الاستمرار، يعودون لأوطانهم عندما تصدر إليهم الأوامر بالتوقف عن العطاء، لتنتهي فترة تكليف الجندي منهم بغتة عندما يبلغ الستين عامًا من عمره، وبموجب قرار حكومي، ممهور بخاتم النسر.

وعندما يعود أولئك المحاربين القدامى إلى أوطانهم الصغيرة، حاملين على أكتافهم متاع الرحلة وأوراقهم الخاصة، عندما يعودون إلى بيوتهم، وبين عائلاتهم، يجدونها قد تبدلت، دون أن يخبرهم أحد، كل محارب منهم كان يظن أنه سيتم استقباله استقبالات الفاتحين، لينال المجد والشكر والعرفان على ما بذله من تضحيات على مر السنين، لكنه سرعان ما يستفيق من هذا الحلم، على سراب الواقع.

فيعود كل منهم إلى وطنه ليجد الشعب يكاد لا يعرف اسمه، وكأن هذا الاسم وذلك اللقب قد تحوّل إلى مجرد بيانات في خانة بطاقة هوية، لا يعرف الشعب الذي كان يهتف باسمه من قبل شيئاً عما أفنى فيه حياته من أجله، أو ليجده، كان يعتبر ذلك مجرد واجب لا يستحق الشكر، وحقاً مكتسباً خالصاً له.

ويومًا تلو الآخر، تتضح الأزمة، وتنكشف الهوة، وتنقشع سحب التوقعات.

ليجد المحاربون القدامى أنفسهم كالغرباء في هذا الوطن، وفي هذا الزمان، يدركون أنهم بصورة أو بأخرى لا ينتمون إليه، بعدما فات الألوان، ومضى الزمن الذي كان يمكنهم الانتماء إليه، فيستفيقون على كونهم عالقين بهذا الزمن بضع سنوات أخرى، حتى يأذن صاحب الأمر بموعد الاستراحة الأخيرة.

أدرك نائل أنه ليس سوى محارب آخر، أُحيل إلى التقاعد، حاول اللعب شوطًا إضافيًا، قبل أن تنطلق صافرة استبعاده من الملعب كله، كان كل شيء من حوله قد تبدّل، طفله الصغير قد صار رجلاً، وأبًا لطفل هو الآخر، ذهب إلى ساحة بعيدة يجاهد في الحياة ليعيد الكرة، وطفله، فتاته المدلّلة لم تعد بضيفيتين، حتى زوجته، لم يكن في الواقع يتذكر كم مضى من الزمن دون أن يجمعهما مجلس أو خلوة يستعيدان فيها ما مضى من ذكريات.

كان كمن ارتحل منذ سنوات طويلة، هام في خلالها في الأرجاء، حتى عاد ليجد آباء وأجداد، وزملاء مسيرة وأصدقاء قد فارقوا

الحياة، وزمان تبدّل، حتى الأغاني التي لا يستسيغ غيرها تبدّلت،
مثلما تبدّلت الشوارع والأحياء، وتبدّلت الوجوه التي يألّفها، تبدّلت
الملابس، تبدّلت الثقافات والأفكار، حتى الكلمات على الألسنة، تبدّل
كل شيء، ولم يتبقّ سواه.

جلس نائل يرتشف القهوة في هدوء، بملامح جامدة كأنها قُدت من
صخر، أشبه بتمثال، كان كمن يتوحد مع منحوتات أجداده الفراعنة،
أولئك الذين عاشوا بين الناس آلاف السنين بوجوه من الصخر، قليل
من الأحفاد من عرف قصة أيّ منهم، وحتى من درّس قصتهم في
التاريخ، لم يفكر يومًا فيما كان يجعل من أصحاب تلك المنحوتات
بشرًا، لم تذكر صفحات التاريخ شيئًا عن قصص الحب، عن مشاعر
الأبوة، عن طموح الشباب، عن الأمل في الغد، عن انكسار قلب ولوعة
محب، عن إحساس بالشجن اختلج صدر فلاح بسيط على ضفاف
النيل منذ خمسة آلاف عام.

الحقيقة أن كتاب التاريخ قاسٍ جدًّا، لا قلب له أو مشاعر، لا
يختلف كثيرًا عن تلك الأحجار التي بُنيت بها الأهرامات، التاريخ
كذلك، بناء كبير من الأحداث الجامدة، مجرد عناوين رئيسة لسيرة
الملوك والسلاطين...

في معركة كذا، انتصر الملك المظفر بعد أن فقد من جيشه خمسين
ألف قتيل، انتهى.

لم يهتم أحد أو تكثر صفحات التاريخ لفتاة عاشقة كانت في
انتظار أحد هؤلاء القتلى ليتم زواجهما عقب انتهاء المعركة، لم

تكثر صفحات التاريخ يومًا لامرأة ثكلى، أو لأطفال فقدوا أباهم،
لم يذكر التاريخ فتاة صغيرة كانت تقف كل صباح أعلى ربوة مُشرفة
على طريق عودة الجيش، تنتظر عودة أبيها من ساحة القتال قبل أن
يخبروها أنهم تركوا جثمانه لتأكله الطيور الجارحة.

وكانها لقطة من فيلم سينمائي، يصيب المشاهد الحزن واللوعة
من مشهد إصابة البطل بسهم في كتفه، لكنه لا ينظر أبدًا إلى خلفية
المشهد، لا يكثر لعشرات الجثث المتناثرة على أرض المعركة، فقط
لأنهم... كومبارس!

(فامشي الهوينا... إن هذا الثرى من أعين ساحرة الاحورار).

استفاق نائل من صخب أفكاره على صوت أم كلثوم وهي تنشد
الشريرين الأخيرين من ذلك (الدوبيت الأعرج)، الذي يُطلق عليه
هو وغيره.. رباعيات الخيام. ابتسم ابتسامة شاحبة، ارتشف الرشقة
الأخيرة من كوب القهوة وهو يتمتم، قائلاً:

- ولم لا؟ أفضل من جلوسي وحيدًا.

التقط هاتفه النقال وبحث في قائمة الأسماء حتى ظهر اسم مدوّن
بالعربية، بالمسمّى (أستاذ فكري)، ضغط زر الاتصال، وانتظر حتى
أتاه الرد:

- نائل، كيف حالك يا صديقي؟

- بخير حال يا فكري، وأنت؟

- أحمد الله، من الجميل أن أسمع صوتك.

- أشعر بالوحدة يا صديقي، لم أجد أحدًا لأهاتفه غيرك.

- تشعر بالوحدة ونحن على وجه الأرض، كيف هذا؟ اسمع، أنا جالس مع صديقنا المستشار فاروق على (مقهى السلام) المجاور لمنزلك، هيا تعال إلينا، نحن في انتظارك، كدت أن أسحقه في لعب الطاولة، وأرغب في منازلة لاعبين أكثر مهارة.

بابتسامة لم يتمكن صوته من إخفائها، أجابه:

- لا يا سيدي، لست من هواة المقاهي وصخبها، ما رأيكم أن نجلس عندي في الشرفة.

- لا مانع يا صديقي، ما دام توجد طاولة أستطيع هزيمتك في أي مكان حتى إن كانت أرضك، هيا جهّز الشاي، دقائق ونكون أمامك.

لم تكد تمر عدة دقائق بالفعل، حتى كان ثلاثتهم، يجلسون بالشرفة، يتجاذبون أطراف الحديث. كان اللقاء أشبه بركوب آلة زمن، لتعود بهم حيث ينتمون، حيث لم يتبدل عالمهم لذلك الذي أجبروا على العيش فيه.

لم يكن أحد منهم في تلك اللحظة يشعر بأن عمره قد قارب السبعين عامًا، لم يكن يتذكر أحدهم أنه قد أحيل إلى التقاعد منذ بضعة سنوات، كانوا كمن عادوا فجأة إلى مرحلة الشباب، بل الصبا، كأنهم تحوّلوا فجأة إلى مجموعة من الصبية الأشقياء، يلقون النكات بعضهم على بعض، يقهقهون بصوت عالٍ، ويمرحون، يتذكرون مواقف مضحكة مرت بهم، يسخرون ويتناздون بألقاب أطلقوها على بعضهم وهم أطفال.

ربما كان تأثير آلة زمن تُدعى لقاء الأصدقاء القدامى، ذلك الذي حدث لهم وأفقدتهم الإحساس بمرور الوقت، لم يتوقفوا عن استعادة الذكريات والقهقهة حتى وجدوا أحلام تقف أمامهم بغتة، على باب الشرفة، تحمل حقيبتها، مرتدية ملابسها وهي تبتسم لهم، قائلة:

- وجدتمكم مسترسلين في ذكرياتكم فلم أرغب في إزعاجكم.

- أهلاً يا دكتورة، معذرة، لم نلتق منذ وقت طويل.

قالها فكري وهو يبادلها الابتسامة:

- لا عليك، أهلاً بكم في أي وقت، أنا سعيدة لأنكم أخرجتم نائل من ضيقه، لا تنس أن تحمل سلامي إلى عفاف، لقد اشتقت إليها، ينبغي أن نُحدد موعدًا لنجتمع كلنا ونتناول الغداء أو العشاء معًا.

- بكل سرور يا دكتورة، عفاف أيضًا اشتاقت إليك، كما أننا اشتقنا إلى تذوق أصنافك المميزة.

- على الرحب والسعة يا أستاذ فكري، وأنت أيضًا بالطبع مدعو يا سيادة المستشار، وخديجة كذلك، لقد اشتقت إليها كثيرًا.

أوماً فاروق برأسه إيجابًا وهو يردف، قائلاً:

- بالتأكيد يا دكتورة، ومن يمكنه أن يضيّع فرصة تناول طعامك الشهى.

ابتسمت وهي تشير إلى نائل وتوجّه له الحديث، قائلة:

- إذا متفقون، حدّد الموعد يا نائل وأخبرني حين عودتي، لقد حان

موعد دوامي بالمشفى، ربما أتأخر قليلاً اليوم، سأتركك مع أصدقائك، هل تريد مني شيئاً قبل أن أذهب.

- لا يا عزيزتي، صاحبك السلامة.

تابع خطواتها حتى غادرت المنزل، أفلتت من صدره تنهيدة طويلة، أشاح بوجهه تجاه أصدقائه وهو يعاود التظاهر بالابتسام حين كان يردف إليهم، قائلاً:

- وحتى يحين موعد تلك (العزومة)، أخبروني الآن كم رغيماً من (الحواشي) يريد كل واحد منكم، هيا أسرعوا، ولا تقلقوا أيها العجائز، لديّ كثير من عبوات اللبن الزبادي، ومضادات الحموضة.

- أيها الأخرق، لم تكذ الدكتورة تغادر المنزل منذ ثوانٍ، وأنت تُهرع لطلب أرغفة الكوليسترول تلك، حقاً (إن غاب القط العب يا فار).

قالها فاروق وهو يقهقه من الضحك، في حين أجابه نائل ضاحكاً:

- كلنا هذا الفأر يا صديقي، ثم إن المطعم في البناية المجاورة، لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وسنُحسن إخفاء آثار الجريمة بعد أن نأكلها يا جناب المستشار، والآن أخبرني، هل تستطيع مقاومة أرغفة مطعم (بروتين العائلات)؟

- الحقيقة.... لا.

قالها وانفجر الجميع في الضحك.

أفضل عمل روائي

- عز الدين الأحمدى.

قالها وهو يضع أمامها ثلاثة نسخ ورقية من كتاب على المكتب الخشبي الصغير، كان يحمل عنوان (أوراق الخريف)، حين كان يستكمل حديثه، قائلاً:

- إنها آخر أعمالي، رواية اجتماعية تناقش القضايا المعاصرة لرجل متقاعد وعلاقته بزوجته وأبنائه وأصدقائه والواقع المحيط به في ظل تغير الثقافات المعاصرة، من ثلاثمائة وأربعين صفحة، نُشرت في مطلع هذا العام، ولم يسبق لها الفوز بأي جوائز أو المشاركة في أي مسابقة أخرى، مثلما طلبتم في شروط المسابقة.

- أهلاً بك يا أستاذ عز، غني عن التعريف، تفضل بالجلوس، ينبغي أولاً أن تملأ نموذج الاشتراك بالمسابقة.

قالتها منيرة، وهي تنظر إلى عز بابتسامة وتشير إليه بالجلوس.

- شكراً لك يا أستاذة...؟

- منيرة.. منيرة نائل.

- تشرفت بمعرفتك يا أستاذة منيرة، في الحقيقة أنا أتمنى الفوز بهذه المسابقة، لا أخفي عليك أنني قد بذلت جهداً كبيراً جداً في التحضير لهذه الرواية وجهداً أكبر في الكتابة.

- تستحق الفوز بجدارة يا أستاذ عز.

- شكرًا لك على هذا الإطراء، ولكنك لم تقرأي الرواية حتى!

لمعت عيناها في حين تسلكت حُمرَة من الخجل على وجنتيها حين كانت تجيبه، قائلة:

- في الواقع يا أستاذ عز، لقد قرأت لك كل حرف كتبتَه من قبل، في الحقيقة أود أن أخبرك أنك كاتبِي المفضَّل، أنت تمتلك قلمًا واعدًا وأسلوبًا مميزًا وأفكارًا رائعة، ربما لن تصدقني إن أخبرتك أنه بطريقة ما، تعيش معي شخصيات رواياتك كأنها دبَّت فيها الحياة!

- حقًا، أنه لأمر رائع أن أجد من يخبرني بذلك بتلقائية مثل هذه، ودون أن يكون مدعوًا لحفل توقيع أو مناقشة، أشكرُك جدًّا لأنك تخبريني بذلك الآن.

- إنها حقيقة يا أستاذ عز، أنا لا أجاملُك، لقد قرأت ذات يوم كتابًا وقع تحت يدي بالصدفة البحتة، من إحدى النسخ التي سلَّمَتها دار النشر التي نشرت كتابك لهيئة الكتاب، وسرعان ما جذبني أسلوبك من الصفحات الأولى، حتى وجدت نفسي أنهي الكتاب وأنا مشدوهة به، جعلني ذلك أبحث عن كتبك بالمكتبات حتى أقتنيتها كلها، عدا هذه الرواية بالطبع، ولم تخيب ظني قط في أيٍّ منهم، إن قمت بزيارة بيتنا يومًا ما لوجدت كتبك منتشرة في كل أرجاء البيت.

- شكرًا لك، لقد أثلجتِ صدري بهذه الكلمات، وفي وقت كنت فيه في أمس الحاجة إلى ذلك، كنت أعتقد أنه لا أحد يعرف اسمي من الأساس، أنت لا تدركين أنني كنت قد قاربت على الاستسلام واليأس، من إحساسي الدائم بأنني أكتب لنفسي، ولا يقرأ كلماتي

أحد.

- كيف ذلك وقد كنت تحدّثني للتوّ عن مناقشات، وحفلات توقيع، ومدعوّين، وحضور.

- وهل تعتقدين حقًا أن ذلك مظهر من مظاهر النجاح، العكس صحيح يا منيرة، لم أقتنع يومًا بأي كلمات استحسان تلقّيتها من مدعوّ لحفل مماثل، إنها جزء من التجميل الاجتماعي ليس أكثر أو أقل، الجميع يحضرون للاحتفاء بكاتب أو كتاب، ربما كنوع من العلاقات العامة، أو الوجود في مجتمعات وفعاليات المثقفين، حيث تكثر المجاملات فلا يمكنك أبدًا أن تعرفي الصادق من المُجامل، ولا الذي حضر مهتمًّا بي وبكتاباتي من الذي حضر بدعوة أو تكليف من دار النشر، أو لغرض آخر.

- أل هذه الدرجة لا تصدق؟ لا يا سيدي، أنا لا أوافقك الرأي، تلك الفعاليات أمر طبيعي في المجتمع الثقافي والأدبي، وبشكل أو بآخر تُظهر الاهتمام بأدب كاتب أو روائي مثلك، ثم إنك بذلك تُغلق في وجهك أبواب الشهرة، تلك اللقاءات في المعتاد تعجّ بالصحفيين الذين ينقلون أخبارها للصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية.

- أنت لا تفهمين ما أقصده، أخبريني، في حفل زفافك على سبيل المثال، كان هناك عديد من المدعوّين بالطبع، هل تجزمين من منهم حضر لأنه سعيد بالأمر متمنيًا لك السعادة، ومن منهم حضر لمجرد تلبية الدعوة، والمجاملة، بل من منهم حضر وهو يُضمر الكراهية لك أو الغيرة، أو حتى من حضر ليتذوق التورطة ويملاً فمه بقطعة من

صدر الديك الرومي!

- لم أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية مسبقًا، وعلى كل حال، فلم يُقَم لي حفل زفاف من قبل.

- حقًا، أنا آسف، تقبّلي اعتذاري، ولكن لا أخفي عليك أنه خبر سعيد، يبدو إذاً أنني وجدت أول عنصر تشابه بيننا جعلك تعجبين بما أكتب، فأنا أيضًا لم يسبق لي إقامة حفل زفاف.

تسلّل شبح ابتسامة بين نظرة خجل على شفّتي منيرة، في حين اتسعت ابتسامة عز وهو يعبث بحقيبتة يبحث بها عن شيء ما حين كان يردف إليها، قائلاً:

- إذاً في هذه الحالة هل تسمحين لي أن أهديك نسخة من روايتي الجديدة، على أن تخبريني برأيك تفصيليًا بعد أن تنتهي من قراءتها.

- يسعدني ذلك، ولكن بشرط.

- وما هو؟

- أن تكتب لي إهداءً عليها بالطبع.

- بكل سرور.

تسلّلت الابتسامة إلى شفّتي منيرة، عندما استعادت ذكريات لقاءها الأول مع عز، حين كانت تتابع مرور بعض الزوارق النيلية وهي تمر أمامها على صفحة مياه النهر.

تململت قليلًا على المقعد الجلدي الأبيض، وهي تتابع سير المارة

على (ممشى أهل مصر)، تحت لافتة مطعم (سوييرا)، لم يكن يبعد المطعم أكثر من مائتي متر عن مقر الهيئة العامة للكتاب في الجهة المقابلة من الشارع، وبداخل كورنيش النيل أو الممشى الجديد.

نظرت في ساعة يدها، كانت تشير إلى الثالثة والنصف عصرًا، كانت تعلم أنه يتبقى على مواعدهم نصف ساعة، لكنها كانت تفضّل أن تقضيها أمام نهر النيل على أن تظل في مكتبها بعد انتهاء ساعات العمل.

أعادت النظر إلى صفحة النهر، في حين كان عقلها يسترجع الأحداث التي جمعتها بعز على مدار عام كامل، ويرثبها، ذلك الكاتب الذي أعجبت به من كلمات قرأتها له، وقبل حتى أن تراه، ثم تطور الأمر بعد اللقاء الأول، إلى لقاء ثانٍ وثالث ورابع، كان في كل مرة يأتي إليها في مكان عملها ليتابع أخبار المسابقة الأدبية، على الرغم من علمه بأن موعد النتيجة لم يحن بعد، متظاهراً بالنسيان في كل مرة.

كان من اللطيف دائماً أنها حين كانت تذكره بذلك، يخلق عذراً جديداً يدعي على إثره نسيان الموعد؛ لكي يستطيع رؤيتها مجدداً، كانت تستقبله كل مرة بابتسامة تخفي خلفها كثيراً من الكلمات، حتى تطور الأمر بينهما يوم أن أتى كعادته قبل موعد النتيجة، ضحكت بدلال عندما رآته يقف مبتسماً على باب المكتب، اقترب منها، همس في أذنيها، أخبرها أن النظر في عينيها هو السبب في نسيان أي موعد.

تضج وجهها خجلاً، تسللت إلى شفتيها ابتسامة زادتها دلالة، كادت تطير من الفرحة، كانت بالفعل تريد لهذه العلاقة أن تستمر وتتطور، كانت ترى فيه زوجاً كثيراً ما تمنته ورأته في أحلامها، حتى كان اليوم الذي اتفقا فيه على اللقاء خارج العمل، لكي تخبره فيه برأيها في الرواية التي أهداها إياها باستفاضة.

لم تستطع يومها أن تُخبره أن حتى هذه الرواية، كانت تعرفها جيداً، كانت قد ابتاعت نسخة منها من قبل أن تراه، وبمجرد توافرها بالمكتبات، لم تستطع أن تخبره بأنها كانت قد قرأتها مراراً، وقاربت على أن تحفظ كلماتها عن ظهر قلب، لم تخبره ربما بأنها كانت تريد أن تعرف ماذا سيكتب لها في كلمات الإهداء عليها فحسب. لم تُفصح له يوماً أنها كانت تحبه من قبل أن تراه أو تعرفه، كانت تحب إحساسه المرهف المتدفق من بين كلماته، ونظرات عيونه التي كانت تفضح اهتمامه بها.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تلتقي معه خارج حدود مكتبها، وعلى هذه الطاولة التي تجلس عليها الآن تحديداً، جرى بينهما لقاء جديد، ولكنه كان اللقاء الأول... كحبيبين.

سرحت بعقلها بعيداً، يوم هذا اللقاء، حين أنهت عملها وتوجهت إلى هذا المكان، فوجدته ينتظرها على هذه الطاولة، لم يكن في مظهره أو ملامحه قط ما جذبها إليه، كان طويل القامة، أصلع الرأس تماماً، ذا جسد متناسق، يمنحه مظهرًا لا يشي بسنوات عمره التي تخطت الأربعين، قمحي اللون مائل إلى الاسمرار، حليق الوجه، مهندم الملابس، كان ببساطة، عادياً جداً.

لم يكن بمظهره ما يُلفت الانتباه أو يُثير الإعجاب، ولكنه كان ينتظرها حاملاً باقة من زهور البنفسج، التي تحبها، والتي ربما تحدثت عنها ذات يوم في خضم حديثها معه دون قصد، كان من الرائع أن يحرص على الإتيان لها بما تحبه دون أن تطلب منه ذلك، كان هذا في الحقيقة هو أحد الأسباب التي جعلها تعجب بشخصيته بعد أن كان مجرد إعجاب بكلمات في رواية، كان ودوداً، مشغوقاً بها، تعلو وجهه الابتسامة دائماً، مهتماً دائماً بتفاصيل كل ما تحبه، كان في كلماته ما يُشبع لديها شعور الأنثى، ويداعب أحاسيس المرأة، ويُلهب مشاعر العاشقة، ويمنح الأمان لفتاة.

كانت تشعر وهي بصحبته بأنها أُمير النساء، كانت في وجودها بجواره تتذكر دائماً كونها صاحبة لقب.. حتشبسوت!

كانت في اشتياق إلى تلك الأحاسيس، اشتياق طال بطول سنوات عمرها التي اقتربت من الأربعين، كان اشتياقها لمجرد أن تكون محور اهتمام رجل، لا سيما إن كان عاشقاً متيماً. كانت تحمل بداخل طيات عقلها الباطن آلاف الذكريات التي عبثت بثقتها بنفسها على مر الأعوام.

كانت هي نفسها الطفلة ذات البشرة المائلة إلى الاسمرار، والعيون السوداء، والشعر الداكن، والجسد الممتلئ، الطفلة العادية، محدودة الجمال، الخجول، الصامتة دائماً، بلا مواهب ظاهرة، أو أي شيء يجعل منها محط الأنظار أو محور الحديث.

الطفلة التي كثيراً ما جلست بجوار أمها الطيبية الناجحة، الحسنة،

لتستمع لهمسات صديقات أمها وتندهرن عليها، في جلسات عبث من الأحاديث التي لا تنطوي على أي موضوع.

في كثير من الأحيان تصبح كلمات المجاملة، أسوأ من الهجاء، وتغدو الابتسامات المصطنعة أبغض من التجهم في الوجوه. كانت تبتسم لدعاباتهم وتتظاهر بعدم الانتباه لنظراتهن وهمساتهن، في حين تشعر بالكلمات تهتك عرض ثقتها بنفسها وترشق في صدر شخصيتها الوليدة.

كثيرًا ما كرهت كونها الطفلة التي لا تتلقّى الإعجاب من الجميع إلا عندما يكون ذلك فقط مقرونًا بحلاوة الأم، ونجاح الأم، وذكاء الأم، وحسن تربية الأم. في حين كانت جعبتها من المواهب، أو من الجمال، أو حتى من خفة الدم خالية الوفاض.

كانت تشعر دائمًا بأنها غير مرئية، أو أنها لا يمكن رؤيتها سوى من خلال تبعيتها للأم العظيمة الناجحة الجميلة، في حين لم تكن هي دائمًا سوى مجرد ظل لها، أو نسخة مشوّهة.

كأحدب قلعة نوتردام، الطيب الحنون، جميل الصفات، الذي حوّل الجميع إلى وحش ممسوخ، لأنه كان قبيح الشكل، لم يتخطّ أحدهم غلاف المظهر يوميًا لينظر أعمق منه، ليشعر بالنفس المكلومة التي تعيش سجينه هذا الجسد.

يا لقسوة فيكتور هوجو، الذي حوّل هذا المسخ من مجرد فكرة قاسية إلى شخصية حية تتجرّع الذل والخذلان، سجينه داخل صفحات رواية، يتحكم بمصيرها كاتب، دون أن يكون بمقدور أيٍّ من

القراء أن يقدم لها يد العون.

لم تعد ترى في نفسها أي مزية أو نوعًا من الجمال، لم تر سوى القبح الذي سكن بين ضلوعها وفي طيات عقلها الذي كان يجاهد ليشكل لها شخصية صغيرة.

خافت أن تنظر في المرأة يومًا فتجد حدبًا صغيرًا يكاد ينمو على ظهرها!

كان هذا الأحذب يذكرها دائمًا بما شعرت به، ولم تستطع تغييره، حتى جمالها الطبيعي لم تعد تراه، أصبحت مرآتها مشوَّشة ضبابية لا تعكس سوى ظلال لشبح فتاة، أصابها تخبط كبير، شيء ما بداخلها كان يتصارع بين حبها الفطري لأمها، أو ما كان المنطق يخبرها بذلك، وبين إحساسها بالغيرة منها، كانت تتحوّل علاقتها بأمها دون أن تشعر إلى نوع من المنافسة، لم تكن تدري في الحقيقة هل تحبها، أم تبغضها.

ربما لم تكن أمها تفعل أي شيء يمكنه أن يصل بها إلى ذلك، لكن الأدهى، أنها لم تكن بالفعل تفعل شيئًا لمنع ذلك من الحدوث، لم تكن تخبر أحدًا أن يتوقف عن التندّر همسًا على ابنتها، لعلها لم تكن تدرك أن الصغيرة تفتن لذلك من الأساس، لم تحرص قط على حث صديقاتها على التوقف عن مدحها هي في حضور ابنتها.

كانت الأنثى الكبيرة الجميلة الزاهية كالطاووس، لا تدرك وجود أنثى صغيرة بجوارها كانت في احتياج هي الأخرى إلى كلمات الإعجاب، لم تكن يومًا ما قاسية عليها، لكنها لم تكن حنونة بالقدر

الكافي لرأب صدع أخذ في التشكّل في مشاعر طفلة صغيرة.

يومًا بعد يوم، كانت الأم تحب المدح، تحب التفاخر، تحب الإطراء، تحب أن تكون دائمًا محور الاهتمام وتحرص على أن تكون تحت الأضواء، ربما كان ذلك من حقها، لكنه لم يكن قط من حقها في وجود الصغيرة بجوارها، لم تفتن يومًا لذلك الشعور الوليد الذي أخذ في النمو بداخل عقل الصغيرة، وربما لم تدرك الصغيرة ما كان يتشكّل بداخلها، دون وعي منها.

لم تسجّل ذاكرتها سوى ذلك الشعور في وجود أمها، وفي أعماق عقلها، ودون أن تشعر، كانت تكرهها بشدة، تُبغضها كما لو كانت ساحرة تسلبها روحها لتبيعها للشيطان، وتُلقي بجسدها في كهف مظلم!

أفاقت منيرة على دموع تنهمر على وجنتيها دون أن تشعر، قبل أن تنتبه لوجودها في مكان عام، مسحت دموعها دون أن يلحظ أحد، قبل أن تتذكر عز الدين.

غاصت في ذكرياتها عن ذلك اللقاء الأول الذي جمعهما، لقد سار مثلما تمّت دائمًا، كان يمنحها أكثر مما يدرك هو نفسه بنظرات عينيه التي كان يملؤها الإعجاب بها، لم تعتد قط مثل تلك النظرات، كانت كالظمانة للاهتمام والتقدير، روحها كصحراء جرداء تلتمس غيمة تظلل عليها، وقطرات من الغيث تروي النفس البور وتُحيل ربعها الخالي إلى مروج خضراء، كانت نبرة صوت عز الدين الودودة الحنونة كأنها ترياق لآلام سنوات طويلة مرت عليها، وضمانة لجراح

غائرة في أعماق نفسها المكلومة، وإيذان لأن تكبر الطفلة الصغيرة وتعتلي منصة التتويج.

دارت دفعة الحديث بينهما لتمتد ساعاتٍ، لم تشعر بمرور الوقت قط، كان ينبغي لهذا اليوم أن يمتد شهوياً وسنواتٍ، كان يجب على كل ساعات العالم أن تتوقف عن العمل، وكان لا بد للشمس أن تعدل اليوم عن فكرة الغروب. فعندما تتلاقى الأرواح، تمتلك السطوة على الزمن، ليمتثل طوعاً لقوانين عالمها.

طالت جلستهما، أخبرته في النهاية برأيها في الرواية.

رأيها الذي كانت قد شكّلتها من قبل حتى أن تلقاه أول مرة، رأيها النابع من متابعة كل ما خطته يدها طوال سنوات طويلة، كانت تتمنى فيها أن تقابله لتخبره بما تريد.

لم تكن تخفي إعجابها بأسلوبه، لكنها كانت تريد منه المزيد، أخبرته يومها بأن لديه الكثير والكثير ليكتبه، أكثر من مجرد قصة اجتماعية عادية.

أخبرته بأنها تتابع ما يكتبه من خواطر على صفحته بمواقع التواصل الاجتماعي، وما تنم عنه كتاباته من أبعاد أخرى أكثر عمقاً، ولمساً لخبايا النفس البشرية، وفلسفة الحياة. كتابات وأفكار تصلح لأن تكون مدخلاً لرواية أكثر عمقاً، رواية خارجة عن المألوف، رواية من العيار الثقيل.

أخبرته بأنه لا بد أن يصل إلى المكانة التي يستحقها من وجهة نظرها، لا بد أن يعرف اسمه كل قارئ في الوطن العربي، بل وفي

العالم، لا بد أن تنتشر أعماله، وتُترجم إلى عشرات اللغات، في كل بلدان العالم. أخبرته بأنه لا بد أن يتوقّف فورًا عن كتابة الروايات العادية، ولا يكتب حرفًا إلا إن كان في عمل ضخم كبير يفوق كل التوقعات، وفي مجال غير مألوف يستطيع التفرد وحده إتقان الكتابة فيه، علّه يتحول يومًا ما إلى عمل درامي كبير، أو فيلم سينمائي يرتفع بصاحبه إلى مصاف النجوم.

أخبرته بأنها مؤمنة به، وبأنها ستفعل أي شيء في سبيل أن تخرج للنور هذه الرواية التي تحلم بها من كتاباته.

نظرت من جديد في ساعة يدها، كأنها تستعجل الزمن، تابعت بعينيها شابًا وفتاة على أحد المراكب النيلية، كانا يبدوان كعاشقين، على الرغم من بُعد المسافة فإنها كانت تلاحظ نظراتهما المتبادلة فيما بينهما، دار بخاطرها أن تطلب من عز أن يصحبها في رحلة بإحدى تلك المراكب، إلا أن الخجل بكل تأكيد كان سيمنعها من التفوّه بذلك، يا ليتَه كان يعرض عليها ذلك دون أن تطلب!

أغمضت عينيها، ودار شريط في ذاكرتها عن باقي اللقاءات التي جمعتها فيها هذه الطاولة حين ألقت عليه سؤالًا ذات يوم:

- أخبرني، ما أخبار الرواية الجديدة، إلى أي فصل وصلت في كتابتها؟

- الحقيقة يا منيرة، لم أكتب فيها كلمة إضافية.

- لماذا؟

- لا أشعر بالكلمات، حتى الشخصيات، بعيدة عني جدًا، لا أشعر بوجودهم وتملكهم ليدي وقلمي كما كنت أشعر من قبل مع شخصيات الروايات السابقة.

- لماذا يا حبيبي؟

- لا أعلم، هناك حلقة مفقودة، أنا أشعر أنني أكتب عن شيء لا أشعر به، ينبغي أن يكون إحساسي أكثر عمقًا بداخلهم، ينبغي أن أشعر أنني أعيش بداخل كل واحد منهم حتى أستطيع أن أعبر عما يختلج بصدري كأنني هو، ينبغي أن أتحدث بلسانه، وأرى بعينه، وأسمع بأذنيه، وأخاف مما يصيبه بالخوف وأفرح لما يمنحه السعادة.

- أفهم ما تقول، درست ذلك في كلية الآداب عن طبيعة الكتابة الروائية، ولكنني لا أعلم لِمَ تشعر بذلك، إنها ليست الرواية الأولى التي تكتبها، لقد تمرّست على الكتابة.

- ولهذا أخبرك أنني توقفت عن الكتابة، أنا أشعر كأنني أكذب على القارئ أو أخدعه، والحقيقة هي أنني قد مزّقت كل الأوراق التي كتبتها بالفعل.

- كيف تفعل ذلك؟

- أوراق ممزقة يا عزيزتي خير من كلمات بلا روح على ورق.

- وإن يكن، كان لا بد أن تحتفظ بها، ربما أتاك الوحي يومًا ما.

- لا يا عزيزتي، لم يكن ليأتيني ما دام كان عقلي سجينًا بداخل أوراق لا أنتمي إليها.

مَظَّتْ شفَتيها، وهي تَنتقل بذاكرتها لشهور تلت هذا اللقاء، في وقت كانت أحواله تزداد سوءًا، لم يعد مثلما كان مبتسمًا ودودًا، كان قد تحوّل إلى شخص محبّط، يائس، غير عابئ بهندامه أو بلحيته التي نمت بشكل كبير بغير اكتراث منه لتَهذيبها، كان منطفئ الحماس، وكانت تعلم السبب، حاولت أن تساعد، ألحّت عليه في اللقاء. وعلى هذه الطاولة أيضًا، دار بينهما الحوار حينما بادرت هي بالحديث، قائلة:

- وماذا بعد؟ ألا ترى نفسك، ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة؟

- أنت تعلمين يا منيرة.

- وإن يكن، كل الكُتّاب يا عز تصيبهم السكتات الكتابية، لست الأول ولن تكون الأخير، لماذا تُحمّل الأمر أكثر مما هو عليه، هوّن عليك يا حبيبي.

- ليس الأمر كذلك يا منيرة، لقد طبّقت نصيحتك، وامتنعت عن الكتابة في الموضوعات العادية، الاجتماعية أو الرومانسية، لكي أكتب الرواية العظيمة التي أقنعتني بكتابتها، فإذا بي لا أستطيع الكتابة في أي شيء، ويصل بي الحال إلى أن أتوقف تمامًا ولا أستطيع كتابة حرف واحد عدة شهور.

- لا يا عز، أنت تُفسّر الأمر بطريقة خاطئة، ليس ذلك هو السبب بالتأكيد، أنت كاتب موهوب، وكل الكُتّاب تصيبهم تلك الحالة أحيانًا.

- بل أنا كاتب موهوم يا منيرة، كاتب لا يستطيع سوى تأليف القصص العادية جدًّا، التي يؤلفها الجميع، أي كاتب شاب مبتدئ

يستطيع كتابة روايات مثل التي كتبتها من قبل، أما الأعمال العظيمة.. الأعمال الخالدة.. الأعمال الخارجة عن المألوف كما تريدين فيبدو أنها تحتاج إلى كاتب موهوب بالفعل، ويبدو أن ذلك الشخص... ليس أنا.

- حبيبي، لا يمكنني مشاهدتك في هذه الحالة، ينبغي أن تطرد هذه الأفكار من عقلك، ينبغي أن تغير طريقة تفكيرك، لن تفيدنا أبدًا هذه الرؤية السلبية، يمكنك أن تمنح نفسك إجازة من كل شيء، وتذهب إلى أي مكان، اذهب إلى الإسكندرية على سبيل المثال، اجلس أمام البحر يا عز، ارو له عمًا يقلقك، عن كل أحزانك، وأنا كلي يقين أنك ستعود ومعك فكرة رواية جديدة.

- لا يا منيرة، كفانا تصديقًا للأحلام، أنا أعمل في شركة وأحصل على راتب منها، ينبغي أن نلتفت إلى مستقبلنا، ولكن عذرًا، ستتزوجين موظفًا عاديًا، وينبغي أن تهيئي نفسك لذلك، لقد قررت أن أنسى تمامًا وهم الكتابة الذي سرق من عمري كثيرًا من الوقت، وأمحو من عقلي هذه الأحلام التي عشت فيها، ينبغي أن أدرك أن موهبتي محدودة من الأساس، لست أكثر من هاوٍ، تمكّن من نشر بعض الروايات كهواية يحبها، ولم يقرؤهم أحد سواك، فلنزيّن بهم أرفف بيتنا، وينتهي الأمر.

- وتريدني أن أوافقك على ذلك على ما أظن.

- نعم، هذا قرار لا رجعة فيه.

- لم أعتد عليك جبانًا يا عز.

- جبان؟

- نعم، أنت تخشى مواجهة مخاوفك، مثلما كنت دائماً تُشكّك في صدق من يمدحك، لا لشيء سوى لأنك أنت نفسك لا تؤمن بموهبتك، ولن تستطيع أن تجدها إلا إن وجدت نفسك أولاً وقدّرتها، وحينها ستجدني أنا أيضاً.

- ماذا تعنين بذلك؟

- ما فهمته تمامًا، لن أتزوج عز الدين مدير المشتريات، سأتزوج عز الدين الكاتب الموهوب الشهير الناجح، ولكن عندما يجد نفسه.

- لا تتركيني يا منيرة، أنا أحبك.

- وأنا أيضاً، ولكن عذراً، لا أحب هذا الشخص اليائس، أنا أحب شخصاً آخر يتوارى خلف شخص محبط منهزم مستسلم، تعرف مكاني ورقم هاتفي جيداً يا عز، لا تتصل بي أو تأتي إليّ إلا عندما تجد نفسك.

أفلتت دمعة من عينيها عندما وصلت بها ذكرياتها إلى تلك النقطة، تذكرت مرور أكثر من ثمانية أشهر على تلك المحادثة، كان قلبها يعتصر من ألم فراقه، وروحها معلقة على شاشة هاتفها كل يوم تنتظر منه رسالة أو مكالمة، همست لنفسها:

- مَنْ أخبرك أيها الغبي أن النساء تقصد ما تقوله حرفياً، ألا تعلم عن النساء شيئاً أيها الأحمق.

تسلّلت ابتسامة إلى شفّتيها، شقّت طريقها وسط الدموع بصعوبة،

وذهنها يتابع سرد رواية هي بطلتها الوحيدة.. طاف ذهنها من جديد بمخازن ذكريات أعماق عقلها الباطن، مستخرجًا منها ما دأبت على إخفائه كلما حاول الظهور، ربما في تلك اللحظة كان لا بد من لحظة صدق عميق.

كان يتبادر دومًا إلى ذهنها سؤال تخشى الإجابة عنه. هل يرجع ذلك الموقف الذي اتخذته مع عز إلى تضحية لعاشقة، ترغب في أن تنقذ عشيقها من الوقوع في أسر اليأس والإحباط.

هل يرجع ذلك لكونها امرأة عظيمة الحكمة والأخلاق والإيثار.

أم يا ترى يرجع لإحساس باحتياج دفين ترغب في إشباعه، كان هذا السؤال يتبادر إلى ذهنها في كل يوم منذ تركته وحيدًا، وكانت قد دأبت على محاولة الهرب من الإجابة.

في كثير من الأحيان يخشى المرء مواجهة حقيقته، مواجهة أعماق ذاته، متخفيًا خلف قناع، يسترق النظرات من وراء حجاب.

فخلف هذا الحجاب، يقبع ملاك وشيطان، لا يفترقان عنه، يتصارعان، يتقاتلان، يتجالدان، لكن صراعهما نادرًا ما يطفو على السطح، يظلان متخفيين، متحكمين في الدوافع والأفكار، لا مهرب منهما ولا ملجأ سوى المواجهة. في حين تلك المواجهة إما تؤدي إلى النجاة، وإما إلى القتل.

لعبة الموت هي، ولا يملك جرأة اللعب إلا شجاع مقدام أو أحمق مجنون!

لم تنس منيرة قط أنها الفتاة التي كانت تشعر طوال حياتها بأنها ليست إلا ظل غير مرئي لأمها، فاقدة الثقة في نفسها، مرتعشة. كما لم تنس أنها لم تتزوج حتى الآن، وبعد اقتراب سنوات عمرها من الأربعين. لقد اختارت الابتعاد عن الرجال؛ لأنها خافت أن تجد في نظراتهم ما يرشح لديها شبح الفتاة القبيحة، المعدومة المواهب، الجوفاء، كان شبح الشفقة يطاردها في عيون الرجال، وبجواره شبح عدم الثقة المترشح بشخصيتها.

كانت تبحث عن رجل مختلف، صمّته في خيالها، ورسمت له كل صفاته وفرضت عليه أن يحبها مثلما أرادت. كانت ربما ترسم شخصًا هجينًا، يحمل صفات رجل اسمه نائل، وملامح رجل اسمه عز الدين! ومرت السنوات مسرعة حين طالت رحلة بحثها عن فارس الأحلام، ليخلصها من هذا العذاب. في حين تزوجت وأنجبت كل صديقاتها.

حينما لم تنس قط أحاديثهن عن أزواجهن وتباهيهن بهم، في كل مناسبة، كأنها سهام ترشق في ثقتها المهترئة من الأساس. كما لم تنس كل مرة وجدت فيها بصحة صديقاتها، وهي فارغة الوفاض، جرداء المشاعر، خالية الأحاسيس، صامتة كليل حالك السواد لا يُسمع فيه إلا صوت الرياح، كأنها ممثلة صامتة في مسرحية، كومبارس، لا تملك من الأساس ما يستحق الحكى.

ظل آخر، وأحدب جديد، تشوه أصاب مسخًا فأضحى حطامًا.

وها هي تغامر بفقد الرجل الذي أحبته من أجل أن يكتب رواية

مثلما تريد، رواية تحقق أحلامها وتطلعاتها، تدفع به نحو الشهرة
وتصبحها معه.

بعد أن تصبح البطلة، المرأة التي وقفت خلف حبيبها حتى دفعته
إلى النجاح الكبير.. فلتدوي الأبواق، وتعلق اللافتات، لتسطع الأضواء
وتسلطها هنا على المرأة العظيمة!

لم تكن تدري، أو لعلها كانت تخشى أن تدري... إن كان هذا بطولة
وتضحية، أم أنانية وحبًا للتمكُّ وتعويضًا عن نقص مخيف بداخلها.
كان مجرد التفكير بذلك يدفع بشيطان حبيس بداخلها ليتمثّل أمامها
بكل قبحه ودمايته، كأنه مرآة مخيفة، ويلوّح لها بيديه ضاحكًا!

منذ أن تعرفت إلى عز الدين، ويراود عقلها مشهد واحد، تجلس
فيه بين صديقاتها، وصديقات أمها، وأمام الجميع. أمام كل من قهرها
وظلمها وتندّر عليها واستهان بها، وحطّ من قدرها، وقسى عليها.
لتروي لهم جميعًا قصة زوجها الذي يمتلك موهبة لا يمتلكها رجل
الأعمال، أو المهندس، أو الطبيب، أو الضابط. يمتلك موهبة قلما
ثوّهب لرجل...

تكاد تسمع صوتها وهي تخبرهم أن بالبلاد الملايين من رجال
الأعمال والمهندسين والأطباء والضباط، في حين لا يوجد في كل
زمان إلا فئة نادرة من المبدعين الحقيقيين، مرفهي الإحساس،
فرسان الكلم، وعظيمي الأثر، وهذه الفئة هي ما ينتمي إليها زوجها.

متفردًا عن الجميع، كحصان رابح أو كورقة جوكر تستطيع أن تربح
أمام كل الأوراق، كضربة قاضية تستطيع بها أن تُنهي مباراة طويلة

من الشعور بالدونية والانطواء لصالحها.

كانت ملامحها جامدة، حين وصل عقلها إلى التفكير في هذه النقطة.

أي جحيم استعر بداخلها، أي بركان ثار قاذفًا حممه الحارقة بداخل عقلها البريء الآن، أي حماقة تلك التي جعلتها تسأل نفسها هذا السؤال، وأي شجاعة تلك التي جعلتها تجيب عنه، أي جنون، دفعها إلى ذلك.

هل يا ترى فعلت هذا كحبيبة؟ أم كامرأة غيور؟ هل دفعتها مشاعر الحب والإيثار والتضحية، أم الغضب والحقد والكراهية، هل بهذه الطريقة سئسفى من كل ما تراكم في نفسها من أحاسيس كثيرًا ما دمرتها، أم سيضيف ذلك تشوهاً جديدًا إلى ما تملكه من تشوّهات مستترة؟

ربما كانت هي الأكثر احتياجًا إلى تلك الفترة التي ابتعدا فيها عن بعضهما، كان من الضروري أن تعرف إن كان ما نمت بينهما في خلال تلك الفترة حبًا حقيقيًا، أم شيئًا آخر.

لم تكن منيرة سوى امرأة...

تملك تناقضات كل العصور، واختلاجات كل الصدور، لم تكن منيرة تختلف عن الجميع، فبينما كانت تمتلك كل تلك التشوّهات والغضب، كانت تمتلك بجوارهم قلبًا نقيًا، حنونًا، عاشقًا، يقطر ألمًا مما علق به من ذكريات تأبى الرحيل أو الصمت.

ربما كان ليصبح (كوازيمودو) الأحذب الطيب شيطانًا آخر، لو لم يجد في طريقه (إزميرالدا) الحنونة. لا تختلف قصة الأحذب والفتاة، عن قصة أي شخص، لا تختلف قصة الضعف البشري، والرافة، عن قصة كل إنسان، امتلك الآدمية من قبل. وكذلك كانت منيرة.. خلف كل ما تركته آثار الجراح الغائرة بروحها، كانت تختبئ في مكان ما، سندريلا...

كانت تتوارى خلف منيرة الانتهازية، منيرة العاشقة، الحبيبة الحنون العطوف الطيبة، التي ما إن وجدت في عيني حبيبها بريقًا وفي همساته احتضانًا وفي لفتاته احتواءً، حتى امتلكت الآدمية التي سلبت منها، انتزعتها من وسط قبح بعض البشر، فعادت من جديد تتلمس صفاء بعض البشر.

دون أن تشعر، سالت دمعة من عينيها، صمت عقلها عن الضجيج، كأن رياحه العاتية العاصفة، استكانت بعد هطول أمطار الصراحة، وبزوغ شمس الحقيقة.

توقف عن السرد، بصوته المرتفع الجريء الوقح، وهمساته الملتاعة الخفيضة.

بعض العبارات تفجر العَبَرَات، وبعض العَبَرَات عبارات صامته.

مسحت الدموع من على وجنتيها بإصبعها وهي تنظر إلى الطاولة تبحث عن منشفة ورقية، تلفتت حولها تنظر إلى الجالسين بجوارها لتتأكد بأن أحدًا لم يلمحها، تنهدت بعمق وهي تتابع ترقرق صفحة المياه أمامها، وتعيد تذكر ما حدث في الساعات القليلة الماضية.

بدأ كل شيء عندما تسلمت رسالة إلكترونية من عز الدين، كان يفصلها عن اللقاء الأخير بينهما أكثر من ثمانية أشهر كاملة، كانت في خلالهم تكاد تذوب من القلق والحزن على مصير حبيبها، وتخشى فقدانه.

لكنها كانت تراهن عليه، بجزء منها لا يزال يخفق بمشاعر صادقة، كانت تؤمن به أكثر من إيمانه بنفسه، كانت كل يوم تؤكد لنفسها أنه لا بد أن يمر بصدمة كبيرة حتى تتحرك بداخله مشاعر قوية تدفعه للخروج من أزمته.

وكانت تعلم أنه كأي فنان أو مبدع، سيحوّل كل طاقة الحزن أو الغضب أو الشجن إلى ما يتقن عمله، الكلمات، كانت على يقين بأنه سيعود يومًا ما، لقد غامرت بكل شيء، بحبها إليه وشغفها للقاءه وحتى احتمال فقدّه، من أجل هذا السبب. لكن شيئًا ما بداخلها كان يؤكّد لها دائمًا أنه سيعود.

تلقت منيرة الرسالة حين كانت تستعد لمغادرة عملها، كانت لا تزداد على بضع كلمات.

"حبيبتي، وجدت نفسي، أتمنى أن أجذك اليوم في نفس المكان، سأتي إليك في الرابعة، أحبك".

نظرت مرة أخرى في ساعة يدها، وجدتتها قد أشارت بالفعل إلى الرابعة عصرًا، رفعت عينيها لتجده واقفًا أمامها بابتسامته المعهودة، حليق الوجه.. مهندم الملابس، كأنه عاد من جديد مثلما عرفتّه، ماديًا يده إليها بزهرة بنفسج.

- أما تنسى أبدًا.

- وكيف أنسى ما تحبه أُمير النساء، كيف هي الملكة حتشبسوت اليوم.

وهي تبتسم بدورها، أخفت الدمعة التي سالت على وجنتها، وهي تجيب:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي.

- اشتقت إليك كثيرًا.

- وأنا أيضًا، خفت أن أفقدك.

- لن تفقديني أبدًا يا منيرة، ولكنني لم أكن لأعود قبل أن أهديك هذه.

قالها وهو يمد يده إليها برزمة من الأوراق مكتوبة بخط يده.

- ما هذا؟

- مَسْودَّة أولية لروايتي الجديدة يا حبيبتني، أنتِ أول من يطلع عليها.

- أتقصد؟

- نعم يا منيرة، منذ تركتك، مررت بأطوار كثيرة، واقتحمت عوالم جديدة، وأقحمت نفسي في تجارب عديدة، لكنني أخرجت كل ما اختلج صدري به على لسان شخصيات تلك الرواية، لقد تحدّثوا بلساني من جديد، وشعرت بنبض كل واحد منهم، منذ قرابة ثلاثة

أشهر وأنا عاكف على كتابة تلك الأوراق.

- صدقًا، لا أصدق نفسي، لقد عدت بالفعل الرجل الذي أعرفه،
خفت أن أفقدك.

- لن تفقديني أبدًا، ولم أكن لأخذك، لكنني حافظت على العهد.

- ليتك لم تفعل، اشتقت إليك، أصدق امرأة يا رجل، وتبتعد عنها
كل تلك المدة، دون أي اتصال؟

- قسوت على نفسي لأفعل يا منيرة، كنت أود أن أصدق في كلمتي.
- أنت أحق يا حبيبي.

- ولكنني أحبك، حتى حماقتي كانت من أجلك.

تسللت حُمرَة الخجل إلى وجنتيها، ارتبكت وهي تحاول تغيير
مسار الحديث، أمسكت بالمسوّدة وهي تنظر إليه، بصوت بدا مختنقًا
بالدموع، بادرت به بالحديث قائلة:

- وعمّ تتحدث فكرتها؟

- لا، لن أفصح لك عن ذلك الآن، سأتركك تتعرفين على هذا بمفردك،
أنا واثق أنني لن أخيب ظنك، متيقن أنك ستندهشين مما ستقرأين
بين دفتي هذه المسوّدة.

- هل خرجت أخيرًا من سجن الروايات الاجتماعية؟

- لن أجيبك، أنت من سيعرف جيدًا من هذه، قلت لك إنني بطريقة

ما انفتحت على عوالم كثيرة، وخرجت عن كل المألوف، ونتج عن كل هذا تلك الرواية التي لم أكتب مثلها من قبل.

- أنا سعيدة جدًا يا عز الدين، أكاد أتحرق شوقًا للبدء في القراءة.
نظر في عينيها، وهو يلتقم يديها بيديه ويطبع عليهما قبلة حانية، ويردف إليها قائلاً:

- حسناً، فلنترك الروايات والشخصيات الآن، أنا مشتاق إليك، حدّثيني عن نفسك، اشتقت إلى الدخول إلى معبد مليكتي.
أجابته ضاحكة وهي ثفلت يدها من يديه بخجل، محاولة تغيير دفة الحديث مرة أخرى:

- الملكة تتضوّر جوعاً يا سيدي الفرعون.
- يا للرومانسية يا عزيزتي، سأذكر في المرة القادمة أن أستبدل زهرة البنفسج تلك بحزمة من البصل الأخضر إذاً، هي أكلة فرعونية على كل حال.

ضحكت وهي تجيبه:

- ربما في شم النسيم، ولكن حتى يأتي مواعده استمر على البنفسج إذا سمحت.

تبادلا الضحكات في حين كان يشير بيديه إلى النادل ليحضر إليهما الطعام.

زائر من المستقبل

في السابعة صباحًا، وكعادته، وعادتها، دوى صوت جرس تنبيه هاتف منيرة من جديد. بعد ثوانٍ تعالى صوت إذاعة الأغاني من مكبر صوت جهاز المذياع القديم.

قبيل الثامنة صباحًا، كانت توقظ أباهما قبل أن تغادر المنزل لعملها، تأكدت من استيقاظه، ناولته كوب عصير البرتقال كالعادة، قبل أن توذعه وتنصرف.

تناول كوب العصير، ارتشف منه بضع رشقات، أغمض عينيه وابتسم ببراءة كالأطفال. كان عصير البرتقال هذا هو سره الصغير.

هو ما عودته أمه عليه كل صباح من عشرات السنين، قبل الذهاب إلى المدرسة، كان ذلك كأنه طقس من طقوس الأم لطفلها الوحيد، كان ربما بعد أن تجاوز التاسعة والستين من عمره، يرغب فيما يُعيد إليه ذكرى أمه، كان ربما ذلك الطقس البسيط هو ما يربطه بها كل صباح، كان بمنزلة اتصال خفي بروحها، التي غادرت الدنيا منذ سنوات طويلة، شيء ما يوصل إليها رسالة مع كل رشقة، أنا أحبك وما زلت على عهدي بك، رسالة صامتة يخبرها فيها...

أنا يا أمي ما زلت (أسمع الكلام).

أنهى آخر رشقات البرتقال، فرك عينيه قبل أن يضع قدميه على الأرض، ألقى نظرة على أحلام وهي غارقة بجواره في سبات عميق، مطّ شفتيه وهو يتمتم، قائلاً:

- نعم، أعلم دون أن تخبريني، كان لديّ حالة طارئة لم أستطع أن أتركها، معذرة يا عزيزي لم أذق النوم إلا بعد بزوغ الفجر، إنه واجبي، إنه دوري، إنه قدري، شرف المهنة، القسم الذي أقسمته يحتم عليّ كذا وكذا وكذا...

لم تكن تتممته الهامسة تصل إلى سمعها من الأساس، أشاح بوجهه عنها، نهض واقفًا على قدميه، متوجهًا نحو دورة المياه، سار بخطوات رتيبة، وهو يتمتم ثانية:

- يبدو أنه قدري أنا يا دكتورة.

دسّ فرشاة الأسنان بفمه بعد أن أطلق من بين شفتيه ضحكة قصيرة ساخرة، وهو يدندن ببعض الكلمات، قائلاً:

- مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر الحب بغير قلوب... تارارا، وستعرف بعد رحيل العمر.. تارارا.. بأنك كنت تطارد خيط دخان.

لم يكن قد مرّ من الوقت أكثر من خمس دقائق، عندما كان قد انتهى من أداء صلاة الصبح، وجلس على مائدة الإفطار التي أعدتها له منيرة كعادتها، مد يده نحو رغيف من الخبز، إلا أن استوقفه صوت نقرات خافتة على زجاج النافذة، قطب حاجبيه بغتة، وضع الخبز على جانب الطاولة ونهض مسرعًا، أزاح الستار عن النافذة ونظر على الطريق.

كانت الشوارع تسبح في بحر من المياه، في حين تنهمر الأمطار الغزيرة من السماء كأنها رتوش أقلام من الفحم ترسم لوحاتها أحادية الألوان على البنايات المقابلة بخطوط هزلية قصيرة مائلة، هرول

إلى غرفة النوم، ارتدى روبًا صوفيًا، وكوفية وعاد مهرولًا، توجّه إلى المكتب، فتح الشرفة ودلف إليها، ابتسم بغتة، حين داعبت أنفه زخات من القطرات المتناثرة، وهو يستنشق الهواء البارد بملء رئتيه، مقترنًا بتلك الرائحة التي لا تخطئها أنف أبدًا.

المطر.. هو آلة زمن سحرية، تعمل من تلقاء نفسها، تستمد طاقتها من مقبس الذكريات.

لا يعرف أحد علاقة واضحة بين المطر والذكريات، لكنهما توأمان، يمتلك المطر على ما يبدو الشفرة الوراثية للذكريات، ليس عليه سوى أن ينهمر، لتنهمر بدورها، كأنها تابع له لا تعصي له أمرًا، ولا تملك من أمرها شيئًا في حضوره القوي.

لا يدرك أحد لماذا يمتلك المطر هذا السحر العجيب، ولماذا لا يمكن وصفه؟!

لعلّه صوت مميز.. نقرات خافتة، كأنها إيقاع متناغم، يصاحب العزف على أوتار من الحنين والشجن، وأصداء أصوات الرياح تحمل همسات الأرواح.

مقترنة بصوت منخفض في خلفية المشهد، هو مزيج من صوت إيناس جوهر في برنامج الصباح في الإذاعة، وصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وهو يرتّل القرآن، مع بعض التشويش من سماعة رديئة لحافلة النقل العام.

لعله مشهد مرئي.. روى مشوّشة بفعل ضباب متكوّن بين قطرات من المياه المتناثرة على نافذة حافلة مدرسة قديمة، تحمل تلاميذ

يتلاحمون بأجسادهم الصغيرة التماسًا للدفع، يتابع أحدهم من النافذة أمواجًا ناتجة من عجلات الحافلة، وهي ترتطم بالرصيف الحجري، بجوار رجل عجوز يقود دراجة قديمة حاملاً فوق رأسه (طابونة عيش بلدي).

لعلها رائحة.. مزيج من رائحة لحاء أشجار الكافور بفناء المدرسة القديمة وقت طابور الصباح، ورائحة الخبز، ورائحة قدر زيت ساخن يستعد لاستقبال أقراص الطعمية، وبعض من أعواد النعناع الأخضر وهي تغمس في أكواب شاي الصباح على المقاهي.

وبينما البعض لا يحسن الوصف أو انتقاء الكلمات، يكتفي الجميع بأن يصفوا رائحة المطر.. برائحة الذكريات. لكنه في النهاية، لا يمكن تعريفه ببساطة بوصفه جواً أو حالةً أو صوتاً أو حتى رائحة.

فالمطر هو عالم متفرد بذاته.. كائن حي.. نابض.. حالم.. يفيض بالمشاعر، وآلة زمن لا تتوقف عن السفر.

أغمض نائل عينيه، رافعاً وجهه إلى السماء، مستقبلاً رذاذ الأمطار، كأنما يستقبل نصيبه من ذكرياته الذائبة فيها، يستخلص منها ما يمنحه الطاقة للاستمرار في الحياة، فتح عينيه ونظر إلى السماء ثم ما لبث أن ابتسم.

حدّث نفسه قائلاً:

- يبدو أن الغيمة ستطول، يا لها من أجواء جميلة، فلينتظر الإفطار قليلاً، هذا بكل تأكيد هو وقت كوب القهوة، مقترناً بصوت الست فيروز.

ترك باب الشرفة مفتوحًا كأنه يستقبل ضيفًا عزيزًا، يلتمس من المطر ألا يتوقف حتى يعود، على عجل أنهى إعداد كوب القهوة، وحمله إلى الشرفة وجلس على مقعده بعيدًا عن البلل، يتابع انهمار المطر، في حين تهادى صوت فيروز الساحر وهي تشدو (رجعت الشتوية).

لكن فجأة، قطع استرساله صوت جرس الباب..

هَبَّ من مجلسه واقفًا، هرول إلى الباب قبل أن يوقظ الصوت أحلام، فتح الباب فوجد الطارق رجلًا لا يعرفه، لا يوحي مظهره بأنه تخطى عامه الأربعين، متوسط الطول، نحيف، أبيض البشرة، أسود الشعر مُصَفَّف بعناية، يرتدي حُلة غريبة الشكل ذات لون رمادي مائل إلى الأزرق، محفور عليها شعار غريب في يسار منتصف الصدر من عدة دوائر متداخلة ومتتابعة.

بنظرة يملؤها التساؤل، استهل نائل الحديث بينه وبين الزائر، قائلاً:

- أهلاً، هل أستطيع مساعدتك؟

- بالتأكيد، السيد نائل إن لم أكن مخطئًا.

- نعم، أنا هو.

- حسنًا يا سيد نائل، بيننا حوار طويل ينبغي أن تُديره، هلا أذنت

لي بالدخول؟

- لا مانع، ولكن ليس قبل أن أعرف من أنت؟ وماذا تريد مني؟

- يمكنك أن تعتبرني من أقربائك، وعلى كلِّ سأخبرك بالتأكيد بكل شيء، لقد أتيت من أجل ذلك، والأمر قد يطول شرحه.

على المقعد المواجه لنائل بشرفة غرفة المكتب، جلس الزائر الغريب في حين كان نائل يوجّه إليه حديثه، وهو يقول:

- تقول إنك من أقربائي، هل يمكنني أن أعرف من أي فرع من العائلة أنت؟

- في الحقيقة لست من أي فرع حالٍ، في الواقع يا سيد نائل يمكنك أن تعتبرني حفيدك!

أفلتت ضحكة ساخرة من شفتي نائل قبل أن يشيح بوجهه وهو يقول:

- حفيدي؟! أي حفيد يا هذا وأنت بعمر ابني وربما كنت أكبر منه.

- في الواقع يا سيد نائل، أنا بالفعل أكبر من ابنك في هذه اللحظة بنحو عشر سنوات، لكن الفارق هو أن ابنك الأصغر، السيد مراد وُلِد في العام ١٩٨٦ في حين وُلِدَت أنا في العام ٢٨٩٧.

مانديلا

مرت لحظات من الصمت، كأن كل شيء قد تجمّد فجأة في مكانه، وتوقّف الزمن بغتة، قبل أن تدور عقاربہ كدوامة عنيفة تطيح بعقل نائل وتصيبه بالحيرة تارة وبالحنق تارة أخرى، تبدّلت مشاعره وانفعالاته عدة مرات من الاندهاش إلى الغضب الممزوج بسخرية واضحة، ظهرت في نبرة صوته حين أجاب على الزائر الغامض، قائلاً:

- اسمع يا هذا، لا أملك وقتًا لهذا المزاح السخيف، أو الاحتيال، أنا آسف لأنني سمحت لك بدخول بيتي من الأساس، هيا اخرج منه سريعًا.

- شريف، اسمي شريف يا سيد نائل، وليس في الأمر أي مزاح أو احتيال، ويمكنني في دقيقة واحدة أن أثبت لك ذلك.

بلهجة غاضبة يتخلّلها نبرة ساخرة، أجابه نائل:

- وكيف هذا أيها الشريف المسافر عبر الزمن؟!

وهو يخرج من طيات ردائه الغريب ورقة ويفضّضها أمام نائل أجابه:

- لقد طلبت مني أن أسلمك هذه الورقة قبل تسع سنوات.

- أنا؟ عذرًا يا هذا، أنا لم ألتق معك من قبل، ثم هل من المنطقي أن أعطيك ورقة لتسلمها إليّ من جديد، أي هذيان هذا.

- بهذه الورقة إجابة كافية، في الواقع يا سيد نائل ليس هذا اللقاء هو الأول بيننا، لقد التقينا من قبل، أو بالأحرى من بعد، لقد التقينا

بعد تسع سنوات من الآن، وأخبرتكَ حينها أنني سأعود لألتقي معكَ في الماضي؛ حيث لن يمكنك أن تعرفني لأن لقائي بك لم يحدث بعد في زمانك، لذلك فقد كتبت أنت هذه الرسالة بخط يدك إلى نفسك لأعطيها لك الآن لتعيني على التوضيح.

- بماذا تهذي يا رجل، التقينا من بعد؟ هل تفهم ما تقول، ليس لتلك العبارة معنى.

- تمهّل أيها اللغوي، ظرف الزمان الذي تعرفه لا يصلح للغة المسافرين عبر الأزمان.

- حسنًا أيها المتحذلق، أعطني هذا الخطاب.

تناول نائل الخطاب الذي كان مكتوبًا بالفعل بخط يده، وتوقعه الذي لا تُخطئه عيناه، قرأ سطره في تمهّل، كانت رسالته إليه واضحة..

"السلام عليكم، أكتب رسالتي هذه إليك يا نائل، أو بالأحرى.. يا أنا، أنا أعلم أنك لن تصدق بسهولة، ولكن تمهّل حتى يشرح لك شريف الأمر، ثم أطلب منه أن يعرض عليك ما قمت بتسجيله هولوجراميًا طاقياً، أعلم أنك لا تعرف معنى الهولوجرام من الأساس، يكفي أن أخبرك بأن تسجيل الصوت والصورة في زمانهم لم يعد يحتاج إلى كاميرات، أو مسجلات صوت، إنهم يجمعون ويكبّرون طاقة جزيئات أجسادنا الفوتونية التي تظل في المكان بعد انتهاء الحدث، واستخلاص أصواتنا التي صاحبت الحدث، والتي تحمل نفس شفرة الطاقة الفوتونية من الفضاء

المحيط بنا بتقنية لم نعرفها بعد، ومزجها معًا من جديد لإعادة المشهد، بما في ذلك الأصوات التي نحدّث بها أنفسنا بداخل عقولنا، فيما يشبه قراءة الأفكار، لقد توصلوا إلى ترجمة تردداتها، كتلك الكلمات التي تقرأها بصوت عقلك الآن، بعد أن تنتهي من قراءة ذلك الخطاب، على أغلب الظن، سيعيد لك شريف ترجمة صوتك الداخلي لتسمعه من جديد، لا تقلق يا نائل، أو بالأصح يا أنا، شريف هو شخص مأمون، نحن في فريق واحد يا نائل، استمع إليه، ثق به، وتعاون معه".

أنهى نائل قراءة الخطاب، في حين لم تزل عيناه مثبتة عليه، وعقله سابح في أفكار متضاربة وبلا هدف، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، قطع عليه تفكيره صوت شريف، حين قال له:

- أعتقد أنك انتهيت من القراءة يا سيد نائل، اسمح لي إذا.

قالها وضغط على بقعة ضوئية ذات لون فيروزي ظهرت على معصمه في موضع ساعة اليد على ساعده الأيسر، فتشكّل في الفراغ أمامهم صورة هولوغرامية مصغرة لكامل الشرفة وبها كل من شريف ونائل، في حين كان الأخير يقرأ الخطاب، تردد صوت قراءته للخطاب عاليًا في الأرجاء، بصوته الذي لم يغادر فمه، بنبرة السخرية، والكلمات التي دارت بعقله منذ لحظات متضمنة استهلاله القراءة بسباب لشريف وبوصفه بالأحمق المتحذلق!

قَطَّب نائل حاجبيه، ورجع بظهره بغتة كأنه يبتعد عن مصدر خطر مجهول، عاجز عن النطق تمامًا مشدوّهًا بما يشاهده ويسمعه.

نظر إليه شريف مجددًا، بملامح جامدة لا يُبدي أي اهتمام بما سمعه من سباب أو سخرية لازعة أو تنذُر على شخصه كما دار بعقل نائل، وهو يستعيد دفعة الحديث، قائلاً:

- حسناً يا سيد نائل، أعتقد أننا قطعنا شوطًا كبيرًا في اكتساب الثقة فيما بيننا، ربما حان دور التسجيل الذي سجّلته أنت بنفسك إليك بعد تسع سنوات من الآن.

بصوت بدا عليه التوتر وبنبهة مرتعشة، أجاب نائل:

- وهل ظللت على قيد الحياة بعد تسع سنوات؟

ابتسم شريف وهو يجيب:

- أ طال الله في عمرك، نعم يا سيد نائل.

- إذا... أممم متى سأموت؟

- أخبرتك من قبل يا سيد نائل، أو من بعد كما تعلم، أنه من المحظور في قانون السفر عبر الأزمان الإدلاء بتلك المعلومات تحديدًا، كما أخبرتك بأن كل ما يحدث بيننا تُجمّع جزيئات طاقته وتُسجّله وتُراجعه حرفيًا وحدة الرقابة بالهيئة العليا.

- أي هيئة عليا؟!

- ستعرف كل شيء يا سيد نائل، هل يمكننا البدء إذا؟

- لا أعتقد أنه يسعني الرفض، ابدأ يا سيد شريف.

عادت البقعة الضوئية للظهور مجددًا على معصم شريف، ما لبث

أن ضغط عليها لتظهر صورة هولوغرافية أخرى لموقع بدا كأنه كهف جبلي؛ حيث كان يظهر نائل جالسًا على صخرة كبيرة وقد بدا عليه علامات التقدم في العمر، أشيب الشعر تمامًا تملأ وجهه التجاعيد، حين بدأ في الحديث:

"السلام عليكم، لا أدري بما يمكنني أن أخاطب نفسي حين أتحدث إليها، هل أقول يا أنا، أم أقول يا نائل؟! على كل حال، لقد سجّلت هذا الحديث لكي أخبر نفسي قبل تسع سنوات بما هو كائن أو كان أو سيكون، فالواقع أنني لا أجد تصريحًا لغويًا ملائمًا لما أنا بصدد الحديث عنه، هذا الشخص المائل أمامك هو شريف، لقد تعرّفت إليه، وقضيت معه عدة أيام في زمان بعيد، أنا أحذّثك الآن يا أنا، من العام ٢٩٣٤ حيث سافرت معه إلى زمانه، لكي تنتهي شكوكي ومخاوفي كلها ورأيت بعيني ما آل إليه العالم في هذا الزمن، وفهمت كثيرًا من الحقائق التي لا وقت لشرحها الآن، سيتكفّل شريف بذلك، لكن ملخص ما يجب أن تعرفه، هو أن أحفادنا قد امتلكوا بعد زمن بعيد جدًّا في المستقبل، زمانًا لم يأت بعد ولن نستطيع العيش فيه أبدًا، امتلكوا معرفةً كاملة للبوابات الزمنية بين الأبعاد المتداخلة، وتمكّنوا من الانتقال من زمن إلى آخر وفق متواليات لوغارتمية عديدة معقّدة، سيشرح لك شريف آلية عملها ومُحدّداتها بشكل كامل، لقد توصّلوا إلى هذه المعرفة في العام ٤٥٧٨، في حين ظل السفر عبر تلك البوابات غير متاح، حتى توصّلوا إلى معرفة تأثير الجاذبية الزمنية وربطه في معادلة واحدة بالجاذبية المكانية وفض أسرار جاذبية الزمكان، ومن ثمّ

اختراع حُلة ذات نسيج ميكروني مستخلص من تكثيف فوتونات الطاقة الكونية، مضادة لجاذبية الزمكان، لم يمكنهم التوصل إلى ذلك سوى في العام ٥٢١١، حين تمكنوا من القيام بأول رحلة زمنية ناجحة، في حين للمحددات التي أخبرتك عنها، يجب علينا إيصال الرسائل عن طريق الرسل فيما بيننا، وقد تم انتقاء عابري الأزمان في كل العصور من بين مليارات البشر، وأنت منهم يا نائل، مما يضع على كاهلك مسؤولية كبيرة؛ أولها إنقاذ أسرتك من الفناء، قبل إنقاذ العالم كله منه، أعلم أن الأمر كله غريب، وأنت لن تستوعب ما قلته بسهولة، لكن السيد شريف سيشرح لك كل شيء، كل ما عليك هو أن تمنحه الأمان وتثق به، تحياتي يا أنا".

انتهى العرض الهولوجرامي، في حين ظل نائل صامتًا لا ينبس ببنت شفة، محددًا في الفراغ، لا يدري ماذا يمكن أن يقال حتى قطع الصمت شريف، وهو يقول:

- أعلم أن لديك ألف سؤال، تفضّل أنا هنا لأجيب عليك.

- لا أدري بمَ أبدأ.

- حسنًا، ابدأ بما يخطر على بالك.

- لمَ أنا؟!

- في الحقيقة الهيئة العليا تنتقي، ولكن إن أردت أن تعرف المعايير، فإنه يكفي أن أخبرك بأن الأمر يتم بصورة عكسية.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أنه يتم تتبع المسافرين عبر الزمن بالفعل، وكشف وجودهم في أزمان غير التي ينتمون إليها، ومن ثمَّ البدء في تكليفهم من البداية!

- لا أفهم كيف يمكن لذلك الحدوث؟

- هذا الأمر يعني أنك في زمن لم يأت بعد، سافرت عبر الزمن بالفعل، وإلى وجهة تسبق زمانك، لقد سافرت إلى الماضي، وتم تتبّعك، ومن ثمَّ، فإنني عدت إليك قبل أن تُكلّف بالمهمة التي نفّذتها بالفعل، لأكلّفك بها.

- أي جنون هذا؟

- هذا ما يُطلق عليه السفر عبر الأزمان يا سيد نائل، له قوانينه ومُحدّداته، التي ستعتادها، وتصبح يسيرة على الفهم لاحقًا.

- إن كان ما استطعت أن أفهمه من كل هذا الجنون صحيحًا، فذلك يعني أنك الآن تعرض عليّ أمرًا قد قبلته ونفّذته بالفعل، ولكن لم يحن زمانه حتى الآن، أليس كذلك؟

- هو كذلك بالضبط.

- مهلك يا سيد شريف، فتلك في الواقع جرعة زائدة من الجنون، هَلّا وضحت لي الأمر من البداية، ماذا نفعل ولم ينبغي لنا أن نساfer عبر الزمن من الأساس؟

- حسنًا، سأحاول أن أخبرك بذلك باختصار شديد، في الخارطة الزمنية للولوج عبر الأبعاد الكونية، ستجد زمان ومكان الرحلة الأبعد

أو الأقدم، والتي بدأ من عندها كل شيء نقوم به لتدارك الأحداث اللاحقة، تلك الرحلة حدثت في عهد الأسرة الأولى للدولة القديمة في مصر الفرعونية، أسرة الملك مينا موحد القطرين، والذي امتد نسله من بعده إلى الملك خوفو وخفرع ومنقاورع، في عصر الدولة القوية وبُناة الأهرام، ثم امتد إلى عصور الملك أمنحتب وسيتي وأحمس ورمسيس، في كل عصر من تلك العصور كانت هناك رحلات من عابري الأزمان تُسلم الملوك رسائل من ملوك مصر الحديثة العظمى في المستقبل، الذين لن يوجدوا قبل مرور ثلاثة آلاف عام من يومنا هذا، في كل مرة اعتلى حكم مصر الفرعونية فيها ملك عظيم، كان قد تسلم فيها رسالة تحتوي أسرار الطاقة الكونية، في تلك العصور كانت مصر في أوج عزتها دولة عظمى على سائر البلاد، تُنير للعالم كله مشاعل العلم والفن والأدب، وتنشر السلام بين بلدان العالم القديم، وتمتلك القوة على حماية هذا السلام في العالم أجمع، كما امتلكوا من أسرار الطاقة الكونية ما جعلهم يسودون الأرض، مثلما امتلكوا من المعارف ما مكّنهم من إنشاء حضارة لن ترى الأرض مثلها قبل انقضاء خمسة آلاف عام من زمنهم، ولن يحدث ذلك إلا إذا عادت مصر لتصبح الدولة العظمى على وجه الأرض، وتحكم تحت راية ملكها كل الأمم، وترسي مبادئ العدل والمساواة والحرية، وتفرض السلام من جديد على سائر شعوب الأرض، وتُنهى الحروب والنزاعات وتجارة الموت التي ستودي بكل الجنس البشري للهلاك عن آخره، إن لم يتم تدارك الأمر.

- أي تدارك للأحداث تقصد؟

- الواقع يا سيد نائل، أن هناك من يتلاعبون بالماضي، وقد نجحوا بالفعل في إحداث عديد من التغييرات، التي بدّلت كثيرًا من الأحداث، وغيّرت مجرى التاريخ، ونتج عنها ما تعيشه أنت الآن في حاضرك، وما أعيشه أنا في المستقبل، مُهدّدة العالم كله بالفناء.

- وإن يكن، وإن كان ما تقوله صحيحًا، كيف يمكن لمجرد مدرس عجوز متقاعد أن ينقذ العالم من الفناء.

- سأشرح لك ببساطة، إن ما نفعله ليس حربًا بالمعنى المعروف، لكنه مجرد تدارك لأحداث مضت تم التلاعب بها، عن طريق تحذير أو إبلاغ المعنيين بالأمر في كل زمان، بمخاطر اتخاذهم لقرارات خاطئة لا يمكنهم تقييم مدى ضررها إلا بعد انقضاء سنوات طويلة، والتي أصبحنا نحن على علم بها بالطبع، إن دورنا فقط هو إعادة الأمور لنصابها، وتصويب المسار، نحن مجرد رُسل إليهم، نملك المعرفة التي لم تتوافر لهم، هذا هو السبيل الوحيد لإعادة تدارك حضارة البشر ومستقبلهم والحفاظ عليه، هذه هي مهمتنا نحن -عابري الأزمان-، والتي تتلخّص في الزود عن الوطن وحمايته من تهديدات زوّار العالم السفلي، وأنا وأنت أحد هؤلاء.

- أي عالم سفلي، عالم الشياطين؟

- شياطين من الأئس يا سيد نائل، العالم السفلي كما نُطلق عليه ذلك الاسم، هو عالم المال والتجارة والنفوذ الذي لا يرحم حتى الوجود البشري ذاته ويهدده بالفناء، ويهدّد الناجين من الكارثة الكبرى بشبح العبودية من جديد، هؤلاء لا يعينهم فناء البشر، إنهم

يَهْدِدُونَ وجوده الحالي، يعبثون بالأزمنة وَيُغَيِّرُونَ التاريخ والأحداث
بهمجية نظير جمع الأموال الطائلة، لقد تسبَّبوا في إلقاء الأرض في
الظلام والدمار والجهل والفقر لألف عام ولم يتوقفوا عن صفقاتهم،
بل إنهم يسعون لخلق نظام عالمي جديد، يعيش به البشر عبيدًا لهم،
مسيطرين عليهم تمامًا.

- مهلك يا شريف، أي صفقات تقصد، وكيف تتم صفقة بين
شخصين، يعيش كلُّ منهم في زمان مختلف، ثم كيف يمكن تدارك
حدث قد حدث بالفعل.

- أخبرتك أن الشرح سيطول، سأخبرك بذلك بكل تأكيد، ولكن
ينبغي أن تعرف بعض الأمور التي اقترُب موعد حدوثها أولاً لتدرك
أهمية وخطورة الأمر.

- وإن كنت أجد حديثك أشبه بفيلم من أفلام الخيال العلمي، لكن
حسنًا، أخبرني بما تريد.

- حسنًا، اسمعني يا سيدي، لكن في البداية أخبرني، هل تهتم لأمر
ابنتك منيرة وابنك مراد، وحفيدك كريم الصغير.

- بالتأكيد، وما دخلهم بالأمر.

- حفيدك يا سيدي، وُلِدَ في العام ٢٠١٨، عندما أصبح عمره ثلاثة
وعشرين عامًا، وحينما يكون عمر ابنك مراد قرابة خمسة وخمسين
عامًا ستبدأ الكوارث الكبرى.

- أي كوارث؟

- تغييرات المناخ الجذرية يا سيدي...

بحلول العام ٢٠٤١ سيزداد الاحتباس الحراري بدرجة خارجة عن السيطرة، سيؤدي ذلك إلى ذوبان جليد القُصبيين، وستغرق عديد من المناطق في العالم، هذا المكان الذي نجلس فيه الآن سيصبح جزءًا من فرعي البحر المتوسط الكبير، سيخترق قارة إفريقيا بحران كبيران من الشمال إلى الجنوب، وسيلتقي البحر الشرقي بالبحر الأحمر، عند مضيق باب المندب، سيبتلعان نصف أراضي القارة تحت مياههما الزرقاء، كما سيحدث ذلك في عديد من الأماكن في العالم، ثم ستضرب العالم موجات متتابة من الزلازل الهائلة القوة؛ جزاء ضغط أوزان المياه على الصفائح التكتونية للقشرة الأرضية، سَتُسبب تلك الزلازل دمارًا لا يمكنك تصوُّره، وسينتج عن ذلك عديد من أمواج التسونامي الهائلة، ستصل ارتفاع الواحدة منها إلى مئات الأمتار ستغرق وجه الأرض وتدمّر ما تبقى عليه، وستؤدي الزلازل المتعاقبة إلى ظهور شقوق أرضية عميقة تُخلخل القشرة الأرضية بأكملها، مما سيؤدي إلى انفجار عديد من البراكين في كل أنحاء العالم مطلقة كميات هائلة من الغازات السامة والغبار الثقيل، الذي سيعلق بالغلاف الجوي حاجبًا أشعة الشمس أكثر من مائتي عام، لن تصمد النباتات دون ضوء الشمس أكثر من عام واحد، وستصاب الأرض بتصحّر حاد، سيندر الطعام، وستعم المجاعات، وبزيادة حجم الغازات السامة وأول وثاني أكسيد الكربون بالغلاف الجوي ستقل نسبة الأكسجين لمستويات لم تحدث منذ عدة ملايين من السنين، لن تكفي أبدًا لحياة البشر والكائنات الحية التي تبقّت بعد

المجاعة، ولن يمر وقت طويل حتى تنتهي أغلب أشكال الحياة على وجه الأرض، عدا القلة القليلة من البشر وبعض الحيوانات الذين سيتمكنون من الحياة بداخل عدة ملاجئ تحت الأرض، سيتم إنشاؤها كأنها سفينة نوح أرضية للبشر.

كان نائل صامتًا تمامًا، متجهم الوجه، لا يبدو عليه القدرة على النطق، عندما توقف شريف لحظات ليلتقط أنفاسه المتسارعة، قبل أن يتابع قائلاً:

- سيعيش أولئك الناجون ويتناسلون لأجيال عديدة تحت الأرض بالملاجئ، ثم ستبدأ الغيمة في الانقشاع عن الأرض تدريجيًا بعد أكثر من مائتي عام من الظلام، تحديدًا في العام ٢٢٥٣، ولعشر سنوات حتى تختفي، لتعود الأرض لعصر يشبه العصر الحجري، جرداء تمامًا من أي شكل من أشكال العمران أو الحياة، وبغلاف جوي لا يصلح للحياة من الأساس، وبعد أن يضرب الأرض عصر جليدي حاد من جزاء انحجاب أشعة الشمس، ولن يصلح الغلاف الجوي للحياة بالكاد قبل مرور سبعمائة عام أخرى، من ضخ النباتات والطحالب البحرية الأكسجين مجددًا في الحياة البكر، ستكون تلك التسعمائة سنة كفيلة بعودة الحد الأدنى من الأجواء الملائمة للحياة من جديد، وعندها سيبدأ البشر المتبقون من نسل الناجين الأوائل بمغادرة ملاجئهم، في ذلك الوقت سيكون تعداد العالم الناجي من الكارثة نحو ثلاثة آلاف إنسان فقط، من ذرية الناجين الأوائل، الذين وُلدوا هم وآباؤهم وأجدادهم في الملاجئ، لا يعرفون شيئًا عن الحضارة والمدنية سوى ما كان قد حُفظ منذ ألف عام في ملاجئهم،

سينتهي كل أثر للعمران على سطح الأرض، ستتبخّر كل العلوم، وكل الثقافات، ستندثر كل النظريات، لا حواسب آلية ولا ماكينات، لا كهرباء أو أي وسيلة للطاقة، لا شيء سيبقى من الحضارة البشرية سوى ما كان قد تناقله سكان الملاجئ الأولون شفهيًا وتم تدوينه، خمسة وعشرون جيلًا من البشر سثولّد وتموت وُثُحرق رفاتُها في الملاجئ، دون أن تعرف عن ضوء الشمس أو أمواج البحر سوى حكايات قديمة متوارثة، لا يعرف راويها عنها أكثر من المستمع إليها، كأنها أساطير أو روايات خيالية، ومن بعد ذلك فالبشرية يا سيد نائل ستحتاج إلى ألف عام أخرى حتى تصل بالكاد إلى ما كانت عليه في العصور الأولى للمعرفة التي تعرفها أنت، أنا بكل أسف قادم إليك من ذلك العصر الحجري، عصر الكهوف الجبلية، عصر الجيل الأول من ذرية الثلاثة آلاف ناجٍ، في حين كل هذه التقنيات التي تراها معي اليوم، وهذا الهولوجرام الذي شاهدته لا يخص زماني، بل تسلمته من مسافر آخر أتى إليّ من العام ٣٨٥٠، مرسل هو الآخر برسالة، تسلمها من عدة رُسل متتابعين، أرسلت إلينا من العام ٥٢٣٠ من ميلاد المسيح.

كان نائل طوال الوقت الذي يستمع فيه إلى شريف صامتًا، جامد الملامح كالحجر، حتى تسلّلت دمعة من عينه دون أن يشعر، وهو ينظر إلى شريف ويجيبه متلعثمًا.

- هذا الذي تخبرني به هو كابوس بشع لا يمكن تصديقه، لا يمكن أن يكون حقيقة أبدًا.

- بكل أسف يا سيدي، هو حقيقة مؤكّدة، حدث بالفعل، ولقد

رافقتني بعد تسع سنوات من اليوم في زيارة لما بعد الكارثة، عندما قمت بنفسك بتسجيل الهولوجرام الذي عرضته عليك.

- اصمت بالله عليك، لا تعيد عليّ ذكر ذلك مجددًا.

- حسنًا يا سيد نائل، لننظر إلى الجانب المشرق للأمر، أنا هنا اليوم، مرسل إليك برسالة وصلت إليّ عبر سلسلة من الرسل، لنعمل معًا على تدارك الأمر قبل وقوعه.

- ولماذا لم يأت إليّ الرسول الأول بصفة مباشرة؟

- لقد أخبرت أنت نفسك من قبل أن للسفر عبر الأزمان محددات يا سيدي، إنها مصفوفة لوغارتمية، كلما ابتعدت مدة السفر اتسع الفاصل بين البوابات الزمنية، وأصبحت العودة صعبة جدًا، يا سيدي هناك عدد لا متناهي من النظائر لمادتنا الحيوية في الكون أو بمعنى أبسط هناك عدد لا متناهي من الأبعاد الزمنية، في كل دورة كاملة للأرض حول مركزها في أثناء مسارها حول الشمس وحول قلب المجرة، تترك نسخة متكاملة من بصمتها الطاقية الزمكانية، تلك البصمة تُدعى بُعدًا؛ حيث لا يمكن تكرار ذلك الحدث أبدًا، لا يمكن للأرض أن توجد مرتين في نفس المكان والزمان، تلك النسخة المتكاملة التي تتركها الأرض يمكن إعادة تجميع وتكثيف فوتوناتها وعرضها مثلما عرضت لك ذلك التسجيل الهولوجرامي، كما يمكن للأشخاص التنقل بين تلك الأبعاد عبر البوابات المحددة، وباستخدام حلة مماثلة لتلك التي ارتديها والتي تجعل جاذبية الزمن محايدة التأثير.

توقف شريف للحظات عن التحدث، رمق نائل بنظرة كأنه ينتظر إشارة منه لاستكمال حديثه، قبل أن يجيبه الأخير بإيماءة من رأسه، فعاد يسترسل قائلاً:

- تلك البوابات، كما أسلفت لك، تمكّنًا من تحديدها بمنتهى الدقة، لكنها تتبع مصفوفة عددية متوالية بمعنى أن الفاصل بين رحلة الذهاب ورحلة العودة من أي زمن إلى الآخر، لا تزداد بمعدل ثابت لكنها تزداد وفقًا للمصفوفة، فعلى سبيل المثال إن كان الفاصل بين بوابتين مائتي عام من السفر عبر الزمن، كانت بوابة الرجوع تُفتح لتعود بك بعد مرور عشر دقائق من الوصول، في زمانك، لكن لو كان الفاصل خمسمائة عام على سبيل المثال، تُفتح البوابة بعد واحد وعشرين ساعة، أما لو كان الفاصل ألف عام فالبوابة تُفتح بعد سبعة أيام، أما عندما تتعدى مدة السفر النقطة الحرجة، أو حاجز الـ ١٣٦٩ عامًا فالبوابة تُفتح بعد سنوات مديدة لا يمكن حسابها، لذلك يتم استخدام رُسل متعاقبين لا يتعدّى زمن سفرهم النقطة الحرجة، ويعود ذلك لأن الأرض تكون قد انتقلت إلى منطقة زمكانية مختلفة عبر السديم الكوني، مما يؤثر في نسيج الزمكان تأثيرًا كبيرًا بفعل الاقتراب أو البعد من الثقوب السوداء التي تجذب الزمن، ثقلّصه أو ثمّده، وكلما زادت المدة زاد خطر الهلاك في الزمن الآخر؛ مما يصنع اختلالًا عميقًا في المصفوفات الزمنية، لأن خطر الهلاك في الزمن الجديد يزداد، فإن جسدًا لا ينتمي إلى البعد يُدفن بأرضه، ويُخل بالتوازن، فنحن مجرد زائرين لا يمكننا التأثير في البعد بالزيادة أو النقصان وإلا اختل النظام بأسره.

تملأ نائل في مقعده، قبل أن يتمتم قائلاً:

- لا أعدك بأنني فهمت كل شرحك، لكنني لم أفهم بعد كيف يمكن تدارك حدثٍ حدث بالفعل، وكيف إن تغيّرًا ما، يتغير على إثره حاضر يعيشه المليارات ويحتفظون في ذاكرتهم بكل ما كان من الأحداث؟ مثلما لا أدرك أمرًا مهمًا لاح في ذهني الآن.

- وما هو؟

- إن كنا نجلس الآن معًا، كيف عندما سنتقابل بعد تسع سنوات، تخبرني بأنك ستشرح لي الأمر من جديد كأنها المرة الأولى، ينبغي إن كان الوضع كذلك أن أكون بعد تسع سنوات قد عرفتكم من الوهلة الأولى، أليس كذلك؟

- منطقيًا نعم، ولكن ليس كذلك تسير الأمور، لقد تقابلنا بالفعل بعد تسع سنوات، ولكن في بُعد آخر، بُعد واحد فقط، مثل هذا البعد الذي تعيش فيه اليوم، والذي يحدث فيه لقاءنا هذا، في حين لم يتم تكرار مقابلتنا في أبعاد أخرى، حتى تصبح واقعًا.

- لا أفهم شيئًا.

- حسنًا، دعني أشرح لك، ينبغي أولًا أن أوضح لك أمرًا مهمًا.

- ما هو؟

- في زمانك يا سيدي توصلتم بالصدفة البحتة إلى أمر لم تستطيعوا تفسيره بعد، أعتقد في العام ٢٠١٠ ظهر للوجود ما أسميتموه (تأثير مانديلا) على يد امرأة تدعى (فيونا بروم).

- وماذا يكون هذا التأثير؟

- يمكنك يا سيدي أن تبحث عنه بصورة عامة على الشبكة العنكبوتية، ولكنني أخصه لك بأنه كما عرفتموه أنتم هو تكون ذاكرة جمعية خاطئة أو خادعة يصيب البشر أحيانًا، بأن يظن أحدهم أمرًا ما كأنه حقيقة حدثت بالفعل في حين هي لم تحدث قط، ثم يفاجأ بأن هناك عديدًا من البشر غيره يشاركونه نفس الذكريات الخاطئة، ليجد جميعهم أن لديهم ما يشبه الذكريات المتطابقة، في حين لا أساس لها من الصحة ولم تحدث قط في الواقع.

- أعتقد أنني قرأت عن شيء مثل هذا.

- حسنًا، يمكنني أن أفسر لك هذا الأمر، والذي لن يتم تفسيره فعليًا إلا بعد ثلاثة آلاف عام من اليوم، إنه يتعلق بالأبعاد يا سيدي، هذه الذاكرة المتطابقة لدى عديد من الناس والتي نعلم جيدًا أنها خاطئة، في الحقيقة يا سيدي ليست خاطئة، بل هي ذاكرة حقيقية لأحداث حقيقية تمت في بُعد آخر، بأيدي بعض العابثين، أو المتداركين للأحداث، إنها أحداث حقيقية تمامًا حدثت في بُعد آخر ولكن تم تداركها في هذا البعد، أو لم يتم تكرارها فيه، في حين بتداخل الأبعاد كما أسلفت الشرح لك، تحدث تأثيرات طاقة تنقل تلك الصور الفوتونية إلى ذاكرة البشر، وتؤثر في وعي البعض بصورة متفاوتة، طبقًا لطبيعة طاقة فوتونات أجسادهم فتترك ذكريات من البعد الآخر لدى بعض الأشخاص في هذا البعد، لم يعيشوها قط.

- حتى إن كان هذا صحيحًا، فهي كما قلت لا تؤثر في الجميع، ولا

يمكن اعتبارها تغييرًا ملموسًا في الحاضر.

- لأنه يا سيدي لم يتم تكرارها، لتأكيد تأثيرها.

- ماذا يعني ذلك؟

- استلزم ذلك الأمر عديدًا من تجارب السفر عبر الزمن حتى تم فهم آلية عمل ذلك جيدًا ومن ثم تطبيقه، هذا يا سيد نائل يعني أن التأثير لا بد أن يتم تكراره في سبعة أبعاد متتابة، وفقًا للمصفوفة حتى تكتمل دائرة التداخل وتدعيم التأثير الطاقى للحدث في ذاكرة كل البشر، فيصبح واقعًا ملموسًا لدى الجميع، كما قلت لك أنتم في زمانكم هذا قد رصدتم ما أسميتموه (تأثير مانديلا) الذي هو في الحقيقة مجرد مرحلة غير مكتملة من تغيير حدث ما.

- لقد كنت أتخيل أن (تأثير مانديلا) هذا مجرد لعبة ذهنية، أو وسيلة من أحد الأشخاص للشهرة على مواقع التواصل الاجتماعي.

- لا يا سيدي، لقد اكتسبت هذه الظاهرة اسمها من جرّاء التخلص من المناضل الشهير نيلسون مانديلا في السجن في ثمانينيات القرن الماضي، قبل أن يُفرج عنه، ويتولّى رئاسة دولة جنوب إفريقيا، وقد تم ذلك بأيدي بعض عابري الأزمان التابعين للعالم السفلي، حدث ذلك في أحد الأبعاد، في حين لم يتم تكراره في هذا البعد الذي تنتمي أنت إليه حتى هذه اللحظة، ليتم اكتمال تأثير الحدث في عالمك، لذلك فنيلسون مانديلا في الواقع عاش وأصبح رئيسًا للبلاد حتى وافته المنية في العام ٢٠١٣ في هذا البعد، وهذا ما رأيته أنت والجميع.

- ولماذا يتخلصون منه من الأساس؟

- لأنه لاحقًا يا سيدي حين سيتسلم السلطة في بلاده سيرفض تمرير استخراج مائة وسبعين طنًا من الذهب من مناجم بلاده لصالح رجال المال الفاسدين من العالم السفلي بالمستقبل البعيد، لذلك أرسلوا عابر أزمان، عبث بالحدث قبل أن يحدث، قتله بالسم في محبسه، حتى يستطيعوا تمرير الصفقة.

- عدت للحديث عن الصفقات، وما الفائدة؟ إن كانت في زمان آخر، كيف سيحصلون على هذا الذهب بعد آلاف السنين؟

- إن كل تجارتهم في الماضي وفي العديد من السلع كانت نظير الذهب يا سيدي، ناهيك عن كل كنوز مقابر ملوك الفراعنة التي نبشوها وسلبوها خيراتها على مر العصور، المصريون القدماء يا سيدي كانوا قومًا يقدّسون الحياة الأخرى ولا يدنّسون مراقد الموتى أبدًا، لكن تجار العالم السفلي لا يُوقف تطلعاتهم أي شيء ولا يهمهم أي قدسية للموتى.

- السؤال هو كيف يقبضون ثمن صفقاتهم بعد آلاف السنين؟

- سأخبرك، لأنهم يتعاملون بالذهب، يقبضون ثمن صفقاتهم بالذهب فقط، أو يحوّلون نقودهم إلى ذهب، والسبب في جمعهم للذهب على مرّ العصور يا سيدي هو أنه معدن نفيس لا يتأثر بمرور الزمن، يحصلون عليه في الماضي، ويقومون بواسطة عملائهم بدفنه في الأرض على أعماق سحيقة، ويحتفظون بخرائط تلك الكنوز ليستخرجوها بعد آلاف السنين، لقد وجدوا الوسيلة المثلى لقبض

ثمن كل صفقة يُجرونها في كل الأزمان.

- يا الله، يا لها من فكرة شيطانية!

- هي كذلك بالفعل، وبكل أسف يا سيدي، تجارتهم تلك رابحة إلى حد كبير جدًا، العالم السفلي يا سيد نائل يمتلك من الذهب والأموال ما قيمته آلاف أو ملايين التريليونات من الكيميت نوب.

- كيميت.. نوب، ماذا يعني هذا؟

- الكيميت نوب يا سيدي هو العملة الموحدة لدولتنا وللعالم الجديد بأسره، هي عملة إلكترونية موحدة، إنهم يمتلكون اقتصادًا موازيًا يتفوق على اقتصاد دولتنا العظمى الموحدة لكل الأرض، وتزداد قوتهم بمرور الوقت.

- ولكن هذا تفكير أحرق إن سمحت لي، إن كنت في مكان هذا العميل الذي دفن الذهب في أي زمان لصالحهم، لكنت استخرجته من جديد في حياتي ونعمت به قبل أن يمر عليه آلاف السنين!

- وهل تعتقد أن مثل هؤلاء لا يؤمنون بممتلكاتهم؟

- وكيف ذلك؟

- لقد وجدنا أن كل هؤلاء العملاء يا سيد نائل قد تمت تصفيتهم، في زمن يسبق زمن توليهم دفن الذهب في البعد الذي ينتمون إليه.

- لا أفهم هذا، إذا إن كان تم تصفيتهم قبل الحدث فكيف فعلوه بعد موتهم.

- نفس اللعبة يا سيدي، تأثير مانديلا، عابرو الأزمان يقومون بتكرار الحدث في سبعة أبعاد في حين يقومون بتصفيته العملاء بعد ترسيخ الحدث في زمان يسبق زمن الحدث، وفي البعد الذين ينتمون إليه، قبل حتى أن يأتي الزمن الذي سيعلمون فيه شيئًا عن الذهب أو عن رجال المستقبل، في حين يتركون حدث التصفية دون تكرار في باقي الأبعاد، فيقطعون سلسلة صلة الشخص بالحدث، فلا يرسخ أو يصبح واقعًا، حتى إن حاول أن يستخرجه في بُعد آخر، لا يجده، باختصار هم يحصلون على الذهب في النهاية، وهم على يقين بأن الشخص الوحيد الذي يعلم مكانه قد مات قبل أن يعرف عنه شيئًا!

- لقد أصاب عقلي التشوش، وكيف أمكنكم معرفة ذلك؟

- من تأثيرات مانديلا هنا وهناك في الأزمان يا سيد نائل، فهي تخلق تشوهات في حقول الطاقة الفوتونية، يمكن بسهولة كشفها، إنها تُعد كالأدلة التي تفيدنا في التحري عنهم وملاحقتهم وتدارك الأحداث أولًا بأول، مثلما أمكننا عن طريقها إيجادك أنت وجميع الرُّسل، كما أخبرتك من قبل.

- يا لهول الأمر، ولكن حتى صفقات مثل تلك قد لا تساوي كل هذه التريليونات من ال... أيًا كان اسمه، فكيف جمعوا كل تلك الأموال أو الذهب؟

- لقد تنامت تجارتهم بشكل كبير جدًا في خلال القرن العشرين والواحد والعشرين يا سيد نائل، قبيل الكارثة الكبرى، في هذا الزمن

الذي تنتمي أنت إليه، من التجارة في عدة أمور من صفقات السلاح على سبيل المثال للدول التي عبثوا بأحداثها في أزمنة مختلفة وأشعلوا الحروب بينها، إلى تجارة المخدرات، إلى التطعيمات التي امتلكوا حقوق ملكيتها قبل أن يبتدعوا فيروسات وأوبئة عالمية مثل الطاعون أو الكوليرا أو ما أطلقتكم أنتم عليه كوفيد ١٩ في عصركم الحديث، إلى كنزهم الأكبر، والسلعة التي جعلوها أهم من الماء والغذاء والهواء في هذا الزمن، والتي ستكون السبب في دمار الكوكب يا سيدي، على الرغم من علمهم بذلك.

- أي سلعة؟

- الطاقة يا سيدي، الوقود الأحفوري، البترول والغاز يا سيد نائل، السلعة التي كانت السبب في كل الحروب الأخيرة على وجه الأرض، وكل الدمار والهلاك، والتي ستؤدي في النهاية إلى هلاك الجنس البشري، بعد أقل من عشرين عامًا فقط من اليوم، في هذا الزمان.

- لا أفهم، البترول يُستخرج من باطن الأرض هنا وهناك منذ أكثر من خمسين عامًا.

- هذا صحيح، ولكنه يستخرجه وسطاؤهم يا سيدي، والشركات المعاصرة لزمانك التي يملكون رؤوس أموالها عن طريق وسطاء لهم هنا في زمانك، وبنفس الذهب المستخرج من صفقات سابقة في أزمان ماضية، وبواسطة أولئك العملاء الذين يُقتلون في النهاية في زمان يسبق تعاملهم معهم كما أخبرتك، إنه نوع من الاستثمار القذر، يُجرون تلك الصفقات عبر الأزمان والتي في النهاية تضاعف

حجم الذهب أضعافًا مضاعفة قبل أن يصل إليهم في النهاية، كما أسلفت لك، وبمعرفة منهم لكل أماكن وجود البترول استطاعوا أن يقنعوا العالم كله بالاعتماد عليه بصورة تامة، بل لقد قاموا بإفشال كل محاولات إيجاد حلول بديلة للطاقة، كان أشهرها محاولات العالم عابر الأزمان الذي كان يُدعى نيكولا تسلا، قبل أن يتخلصوا منه، وبعد أن أخفوا كل أثر لما تركه المصريون القدماء من كتابات وأبراج ومسلات وأهرامات لاستخلاص الطاقة الكونية النظيفة غير المحدودة، والمجانية، حتى تعاملتم أنتم مع الأهرامات والمسلات والصروح العظيمة كأنها قطع من الحجارة الصماء تحوي بعض قصص التاريخ فحسب، ولم تعلموا شيئًا عن عظيم فائدتها في زمانهم، ثم أحكموا السيطرة على مراكز صنع القرار في الدول الصناعية الكبرى في عالمك المعاصر، وليس عالمك المعاصر فقط، لك أن تتخيل يا سيد نائل أنهم من زمنهم المستقبلي، يمتلكون ويديرون شركات عملاقة في مختلف العصور، بهذه الطريقة، إنهم يملكون من خلف الستار كل شركات التكنولوجيا الرقمية، وشركات مواقع التواصل الاجتماعي العملاقة في عالمك الآن، وكل المنصات الإعلامية والقنوات الإخبارية، تلك التي توفر لهم الغطاء اللازم لتمرير أي فكرة وجعلها رأيًا عالميًا، بالاعتماد على جهل العامة وعدم بحثهم عن الحقيقة وتفاعلهم اللا واعي، في الواقع إنهم يصنعون لكم الأحداث، لا ينقلونها فحسب، يبتكرون الأخبار، ويقومون بحماية استثماراتهم بكل الطرق، حتى بترسيخ الأفكار في أذهان البسطاء والعامة، وبثّ الشائعات والأخبار المغلوطة، ثم يربحون مجددًا ربحًا وفيرًا من تصفّح العامة لكل تلك الأخبار

والشائعات، ومشاهدة القنوات وإعادة نشرها دون وعي، إنهم يا سيدي يربحون من كل شيء وأي شيء، يربحون من بيع الأسلحة للدول لشراء الحروب، ومن بيع أخبار الحروب للمشاهدين، ثم من إعادة إعمار الدول التي تدمرت، ومن إحداث المجاعات ونقل أخبارها، ثم من ثمن الغذاء الذي يُنهي المجاعة ثم من نشر خبر إنهاؤها، من نشر الأوبئة وبيع الأمصال المعالجة لها، واللقاحات الواقية منها، ثم من ابتكار متحورات لها والبدء من جديد، ومن بيع أخبار كل ذلك، القائمة طويلة جدًا يا سيدي، إنهم أكثر شرًا من الشياطين أنفسهم، وفي النهاية فالحقيقة أنه لا تنتهي مناجم الذهب التي يستخرجونها في المستقبل.

- أنا لا يمكنني تخيل كل هذا، ما تقوله هو نوع من الديستوبيا السوداء عن عالم كنت أظن أنني أعرفه.

- الأمر يطول شرحه يا سيد نائل، الجرائم لا حصر لها، من يمتلك معرفة المستقبل يا سيدي يمكنه العبث بالماضي والحاضر كلعبة شطرنج، وفي النهاية يؤدي بنا هذا إلى كارثة كبرى تُلقي بالكوكب في ظلام ودمار لألف سنة، ثم استعباد الناجين من البشر بعد الكارثة.

- ماذا تقصد بذلك الاستعباد للبشر؟

- السيطرة الكاملة يا سيدي، عندما يحتكر بعض البشر كل المُقدَّرات، عندما يحتكرون كل شيء، من ماء وغذاء و طاقة وكل سبل الحياة، البشر بعد ثلاثة آلاف عام سيصبحون مجرد عبيد

يعملون بالسخرة في مناجم الذهب والشركات والمؤسسات التي يمتلكها العالم السفلي، مقابل قوت يومهم، بلا طموح أو أمل أو حياة حقيقية، البشر في ذلك الحين سيمتلكون أرقامًا كودية يا سيدي وليس أسماء، سيُسلب منهم كل حق في الحرية، وكل محاولة للتفكير أو الإبداع أو الفن، حتى الدين سيفرض عليهم مقابل فقط أن يبقوا على قيد الحياة ويتناسلون لإنتاج عبيد جدد.

- ما هذا المصير المشؤوم الذي تحدثني عنه، أي بشر هؤلاء الذين يسلبون حق الآدمية، البشر بلا حرية أو حقوق أو فكر وإبداع، بلا حق اختيار، هم قطيع يساق إلى نهايته.

- الأمر أسوأ من ذلك يا سيد نائل، صدّقني.

- ولكن على حد علمي فإنه تقام مؤتمرات للمناخ، يتعاون فيها كل حكام العالم الآن لوقف هذا التلوث، وتدارك الكارثة.

- أنا أعلم أنكم تقيمون مؤتمرات سنوية لمحاولة إنقاذ المناخ، تعقدون فيها الاتفاقيات على ترشيد استخدام الوقود الأحفوري ومن ثم الاستغناء عنه نهائيًا، وتسنون القوانين والمعاهدات والاتفاقيات لمحاولة السيطرة على ذلك، لكنني بكل أسف أؤكد لك أن كل تلك المحاولات ستذهب سُدى، الذهب الذي يملكونه في كل مكان يمكنه شراء آلاف الضمائر، وضمان إفشال كل تلك الاتفاقيات، حتى أولئك الذين تشتري ضمائرهم في مراكز صنع القرار في الدول الكبرى اليوم، لا يدركون أن نهايتهم قد اقتربت إن لم تكن ستحدث لهم في الماضي بالتصفية، فإن الكارثة الكبرى قد أصبحت وشيكة.

- يا الله! وهل لنا سبيل للتخلص من هؤلاء الجبابرة، هل يمكن أن ينتهي هذا الكابوس؟

- بالتأكيد يا سيد نائل، هذه هي مهمتنا نحن -عابري الأزمان-، تتلخّص مهمتنا في السفر عبر الزمن لتصحيح الأوضاع، وتدارك الأحداث السيئة، أنا أعلم أنك كافحت كثيرًا في الحياة من أجل عائلتك، واليوم أنا أطلب منك أن تستكمل تلك المسيرة، لرفعة هذا الوطن أولاً وللدفاع عن كل الأرض، وحماية كل البشر، بدءًا بعائلتك.

- يبدو أن استراحة المحارب لا تعدو عن كونها عبارة بلاغية، يبدو أن المحارب لا يستريح إلا في استراحته الأخيرة، قدّره القتال حتى الرmq الأخير.

- كلنا محاربون يا سيدي، الحياة ساحة معركة كبيرة، لا ينتصر فيها أحد.

- صدقًا نطق، أتعلم يا شريف، في الحقيقة أشعر أنني لا أنتمي إلى هذا الزمن من الأساس، ربما وجدت ضالتي في أزمنة أخرى.

- لقد فعلت هذا بالفعل، ولهذا السبب وجدناك.

- ربما، فأنا بالفعل أنتمي إلى زمن آخر، لا عجب إن وجدت ضالتي المنشودة في زمان آخر.

- أخشى أن تكون الضالة المنشودة، عبارة بلاغية هي الأخرى، لا يعثر عليها أحد.

- فليكن، حتى إن كان الأمر كذلك، ماذا تطلب مني أن أفعل؟

- سأخبرك يا سيد نائل، ولكن قبل ذلك، لا بد أن نتحدث قليلاً عن التاريخ، فربما لم يكن التاريخ الذي تعرفه وتجزم به، حقيقياً في أغلب الأوقات، ربما أمكننا أن نُصحح بعض المفاهيم والأحداث التي تم التلاعب بها، حتى تتفهّم ما أنا بصدد تكليفك به.

- كلي آذان مصغية.

قطع استرسال حديثهما فجأة صوت أحلام، التي كانت تدخل من باب غرفة المكتب مرتدية كامل ملابسها وعلى استعداد للخروج كالعادة، وهي تنظر إلى شريف بخلته الغريبة باستغراب، قائلة:

- عمت مساءً يا نائل، لم تخبرني بأننا نستقبل ضيوفاً.

- لم أرد إزعاجك يا عزيزتي، أقدم لك السيد شريف، أحد أقربائي (من البلد).

- أهلاً سيد شريف، هل قام نائل بواجب الضيافة أم نسي كعادته.

أجابها شريف على عجل، قائلاً:

- شكراً لك سيدتي، لقد فعل بالطبع، وأنا كنت على وشك المغادرة على كل حال.

- لماذا المغادرة على عجل، أرجوك تعامل كأنك في بيتك، أنا التي ستغادر بكل أسف لقد حان موعد عملي، شرفتنا يا سيد شريف.

- الشرف لي يا سيدتي.

- حسناً يا نائل، هل تريد مني أي شيء قبل المغادرة؟

- شكرًا يا عزيزتي، لتصبحك السلامة.

تابع نائل خطوات أحلام حتى غادرت البيت، بنظرات رتيبة، ثم ما لبث أن أطلق تنهيدة طويلة وهو يلتفت إلى شريف مجددًا، ويتابع الحوار قائلاً:

- حسنًا يا سيد شريف، أين توقّفنا في حوارنا.

- لا أعتقد أن الوقت يتسع لاستكمال الحوار اليوم يا سيد نائل، ربما تمكّنّا من ذلك في الغد.

- ولماذا لا نستكمل الآن، بعد أن أثّرت فضولي.

- أعتقد أن ابنتك منيرة على وشك الوصول يا سيد نائل، وينبغي أن يكون حديثي معك سرًا، كما لا ينبغي أن يراني كثيرٌ من الناس.

- وما أدراك بابنتي، وكيف عرفت موعد وصولها من الأساس؟

- أعتقد أنك تدرك أن من يكلف بمهمة مثل هذه، لا بد أن تتحرّى عنه الهيئة العليا جيدًا.

- أي هيئة عليا، لقد رددت تلك الكلمة كثيرًا ولم توضّح لي ماذا تعني؟

- الهيئة العليا للسفر عبر الزمن، إنها الجهة المنوطة بتنظيم السفر عبر الأزمان في المستقبل، لقد تم تأسيسها في العام ٥٢٢٧، وبعد أن تمت بعض الرحلات من العلماء والمغامرين، أسفرت عن بعض الاختلالات في الأحداث والتشوّهات الزمكانية، فتم تقنين الأمر، وتجريم السفر عبر الزمن إلا عن طريق عملاء الهيئة العليا، وتحت

رقابتها.

- يبدو أن الأمر أعقد كثيرًا مما كنت أعتقد.

- لا عليك، ستعتاد الأمر سريعًا، بعد أول رحلة أو بعد الثانية، بالمناسبة، تفضل هذه الحقيبة تحتوي على حلة تناسب قياسك، من نسيج فوتوني مقاوم لجاذبية الزمن، ستمكّنك من الولوج عبر بوابات الأبعاد الزمنية، رجاءً احفظها جيدًا في مكان آمن، (إنها عُهدة).

أفليت ضحكة قصيرة من بين شفتيه، قبل أن يجيبه بسخرية واضحة، قائلاً:

- (عُهدة)؟ بعد عدة آلاف من السنوات لم يزل الروتين صامدًا، يا للعجب، وهل سأوقع لك باستلامها أو ما شابه في دفتر ما؟

- لا يا سيدي، لست مضطرًا إلى ذلك، قلت لك إن كل ما تفوّهنا به في هذا اللقاء، وكل ما حدث بيننا تم تجميع طاقته الفوتونية وحفظه في ملف بالهيئة العليا بالفعل، ملف عمره ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، حتى إنني قد اطلعت على نسخة منه قبل أن آتي إليك، هل نسيت أن ما نعيشه الآن ماضٍ سحيق لحاضر الهيئة العليا!

- مهلك يا شريف، لم أعتد هذا الجنون بعد.

- حسنًا يا سيدي، يجب عليّ الانصراف الآن، فلقد أوشكت ابنتك على الوصول، وينبغي أن تحفظ تلك الحلة وتخفيها عن الجميع قبل وصولها.

- كما تريد، ولكن متى سنلتقي مجددًا.

- في الصباح الباكر، سأتي إليك في التاسعة صباحًا، ستكون بمفردك، زوجتك سيكون موعد دوامها باكرًا صباحيًا، ولن يكون هناك أي حالات طارئة الليلة، وستغادر المنزل في التاسعة إلا الربع، قبل أن أصل أنا إليك.

- لن أسأل ثانية كيف عرفت كل ذلك.

- أظنك بدأت التأقلم على الأمر.

لم يكد شريف يغادر، حتى كان نائل يُخفي الحُلة التي تركها له بعناية في أحد أركان خزانة الملابس، عندما قاطعه صوت منيرة فجأة، وهي تناديه غاضبة:

- هل ما أراه حقيقي فعلاً، ألم تتناول الإفطار يا أبي؟

أغلق خزانة الملابس سريعًا وترجّل إلى القاعة، وجدها تقف أمام مائدة الطعام وتنظر إليه بضيق، ابتسم بهدوء وهو يجيبها، قائلاً:

- لك الحق في أن تغضبي يا حبيبتي، لقد نسيت تمامًا.

- نسيت يا أبي، حسنًا، شكرًا جدًا.

- سامحيني يا ابنتي، لقد حضر إليّ ضيف (من البلد) في الصباح، فاضطرت إلى استقباله، والجلوس معه، ولم يغادر سوى منذ لحظات، لا ريب أنك قابلته على الدرج وهو ينزل.

أردفت بغضب، قائلة:

- لم أقابل أحدًا يا أبي.

- وإن يكن، صدقيني يا ابنتي، هو السبب، حتى لقد رأته أمك قبل أن تذهب إلى المشفى، هي الأخرى لم تغادر سوى منذ بضع دقائق، يمكنك أن تسألها عند عودتها لتتأكدي أنني لم أهمل الإفطار الذي بذلت فيه كل هذا المجهود عن عمد مني.

نظرت إليه مطوِّلاً، كأنها تستجمع الكلمات قبل أن تجيب عليه بصوت يشوبه الحزن:

- أمي؟ تريدني أن أسألها، لا يا أبي، لن أسأل أمي عن أي شيء، أنت تعرف جيداً أنني لن أتحدث إليها، من فضلك، أنت من يهمني الآن لأنني أعتقد أنه بما أنك لم تتناول الإفطار فأنت كذلك لم تتناول دواءك مجدداً.

- في الواقع.. نعم.

- هذا الأمر قد ازداد على حده يا أبي، أنت تهمل جداً في صحتك، لا أتذكر عدد المرات التي لم تتناول فيها الدواء، أنا أخشى عليك يا أبي.

- أنا أدرك خوفك عليّ، وحرصك على صحتي يا بُنيتي، لكن لا تقلقي، أنا بخير جداً، لست بحاجة إلى أي أدوية من الأساس، وعلى كل حال أعدك ألا يتكرر الأمر ثانية.

- حسناً يا أبي، سأبدل ملابسي سريعاً وأعد لك الغداء، ولكن أخبرني، كان هناك ما يشبه الكتيب، مجموعة من الورق مدوّنة بخط اليد، لا أجدها، هل رأيتها؟

- تقصدين المسودة، نعم لقد تصفحتها قليلاً، ووضعتها على المكتب، إنها رواية على ما أعتقد، أليس كذلك، ولكن لماذا هي بخط اليد هكذا؟

بدت كلماتها متلعثمة وهي تحاول الإجابة عليه قائلةً:

- إنها... إنها... إنها رواية لأحد الكُتّاب، انتدبوني في الهيئة كأحد أعضاء لجنة القراءة لتقييمها يا أبي، والبت في صلاحيتها للنشر وقبولها من عدمه.

لاح شبح ابتسامة على شفتي نائل وهو ينظر إليها نظرة ذات مغزى، حين أردف إليها قائلاً:

- حسناً يا حبيبتي، ولكنني أظنها لذات الكاتب الذي تقتنين كل أعماله، وتحبين قراءة رواياته ليل نهار، ذلك الذي اسمه... فخر الدين أو نجم الدين على ما أعتقد، أليس كذلك.

تورّدت وجنتاها، وهي تنظر إليه على استحياء، بدت مرتبكة لا تجد الكلمات للرد عليه، حينما كانت ابتسامته تتسع قبل أن تجيبه، قائلة:

- عز الدين يا أبي، نعم هو، إنها مصادفة غريبة بالفعل.

- حقاً، يا للصدف، لكنها صدفة سعيدة على كل حال، أخبريني، هل يُشترط لقبول النشر أن يكون الكاتب عزباً، ويتمتع بحسن الخلق، أو يقتني شقة وبعض المال؟

- ما هذا يا أبي، ما لي أنا وما لكونه عزباً، ويقتني شقة، ومثل هذه الأمور.

- أنا أقصد هيئة الكتاب يا عزيزتي، ينبغي أن تشترط على المتقدم ألا يكون متزوجًا حتى يمكنه التفرُّغ للكتابة، وباقي إجراءات الزواج... أقصد النشر، كما ينبغي أن يكون رومانسيًا وعلى دراية أيضًا بقصص الحب، حتى يبرع في كتابتها.

قالها واتسعت ابتسامته أكثر وهو ينظر في عينيها المرتبكة، قبل أن تجيبه متلعثمة:

- ما هذا يا أبي الذي تقوله؟

اتسعت ابتسامته من جديد، وهو يردف، قائلاً:

- فليهبك الله السعادة يا حبيبتي!

الصوت السردي

ارتفعت صوت طرقات منتظمة، متتالية على منضدة خشبية بساحة مُطلّة على نهر النيل، تحت لافتة مطعم (سوبرا)، كانت الطاولة ذاتها التي اعتادا أن يجلسا عليها.

كانت على ما يبدو تلك الطرقات ذات الإيقاع المنتظم، نوعًا من تفريغ شحنة من العصبية، من أصابع يد عز الدين، التي أخذ يطرق بها على الطاولة الخشبية، بدا متوترًا على غير العادة، نظر في ساعة يده، كانت تقترب من الواحدة ظهرًا، حيث موعده مع منيرة.

انتبه فجأة إلى ما يفعله، قَطَّب حاجبيه بغتة وهو يضم قبضته، يُرغمها على التوقف عن الحركة اللا إرادية، أخذ نفسًا عميقًا وحاول أن يبقيه بداخل رئتيه قليلًا، قبل أن يُخرجه في زفير طويل وهو يحوّل نظره إلى صفحة مياه النهر، تنهّد وهو يهمس لنفسه، قائلاً:

- إيه... مالك عامل كده؟

بدلاً من أن تجيبه نفسه، غاصت به في ذكريات قديمة، لعله يعثر على الإجابة بنفسه داخلها.. مرت أمامه سنوات حياته متتابعة كومضات ضبابية.

طفل صغير، لم يتجاوز التاسعة من عمره، فقد أباه، دون أن يدرك من الأساس ما يعنيه فقد السند، قصف الظهر قبل أن ينتصب، خطفه الموت دون سابق إنذار، رحل قبل أن يحفر ملامح وجهه بذاكرة طفله، قبل أن يمنحه ما يكفي من ذكريات عنه، تصاحبه لسنوات

عمره التي ما لبثت أن بدأت في العدو، رحل دون أن يترك أي شيء، عدا السيرة الطيبة، عندما لم يكن يدرك عز الدين في هذا الوقت أنه بذلك قد ترك له... كل شيء.

ليُجبره ذلك على الحياة وحيدًا، مع أمه، في أوضاع معيشية لا رغبة ولا فقيرة، لكنها ضيقة الحال، ميسورة إلى حد الكفاية والرضا، ضيقة إلى حد تقييد الأحلام.

لم تكن أحلام الصغير تبرح مكانها المحدّد تحت سقف خرساني وبين أربعة جدران. كآلاف الأسر، مقفولة أبوابها عليها، مقتولة خلف تلك الأبواب كل الطموحات والتطلعات الكبيرة، حيث كل شيء بحساب وقدر.

وحيث كل شيء مرهون باليوم الخامس من كل شهر.. يوم استلام المعاش. كل الطلبات المشروعة مدوّنة في كتيب صغير تنتظر دورها في أولويات المعيشة.

طفل كان يخجل أن يطلب من أمه لعبة أو قميصًا جديدًا أو حذاءً للعب الكرة مثل أقرانه، فلم تكن تلك الأحلام البسيطة من الأولويات قط، كان يخجل من أن يُثقل على كاهلها وهو يعلم أنها ستلبي له طلبه، ربما بالاقتصاد، مما يخصها من متطلبات!

لم يكونا فقيرين.. كانا من الطبقة التي تعاني الرقص على سلاالم المجتمع، لا هم من المعدمين ولا هم من الميسور حالهم، الطبقة التي تميّزها الألقاب، ولا شيء أكثر من ذلك، لا يتمكن أحدهم من العمل أجيرًا، يحول بينه وبين ذلك سجن الوظيفة، وحبس انفرادي اسمه

الوجاهة!

في حين لا يمكنه امتلاك المال كوجيه. ينبغي له الظهور بمظهر يضاوي لقبه أو مركزه كموظف كبير، لكنه لا يملك ما ينفقه للظهور بهذا المظهر.

كان عز الدين الصغير وأمه، من تلك الطبقة التي تبدأ وتنتهي معاناتهما خلف باب شقتهم الصغيرة. لم يكن يدرك كل ذلك على كل حال، لكنه كان يعاني مما هو أكبر من هذا.

الطفل الصغير، كان يعاني من التلعثم في إخراج الكلمات.. لم يكن يدرك لم كان لا يستطيع التحدث ببساطة، كأقرانه، لم كان يشكّل له ذلك جهدًا كبيرًا. كما لم يكن يدرك، لماذا يصبح هذا الأمر مثار تنمّر وسخرية من الآخرين.

لم يكن قد سمع من قبل عن مصطلح اسمه تنمر، ربما لم يكن أحدهم قد اخترعه بعد!

كان يُتقن تمثيل عدم ملاحظته لهمسات الأقارب أو نظرات الجيران أو تنمّر الأصدقاء على طريقته في الكلام، مثلما كان يُتقن كبت ما كان يشعر به بداخل نفسه الصغيرة البريئة. التي سرعان ما أصبح الصمت صديقها وأنيسها في وحدتها.

بسنواته التسع تسلّت الابتسامة الشاحبة التي تداري الألم إلى شفتيه، يستقبل كل يوم عشرات التهكمات، والابتسامات السخيفة والتنمّر من زملائه في المدرسة أو في اللعب في الشارع. كان يرتعد من اللحظة التي يصيبه الدور في قراءة نص علانية على مسمع

المدرس أو باقي التلاميذ، يتجنّب رفع يديه للإجابة علانية عن أي سؤال على الرغم من أنه كان أكثر نبوغًا من الجميع، يرتضي أن ينعتة المدرس بالخائب عن أن ينطق كلمات متلعثمة أمامه وأمام أقرانه.

الطفل النابغ في تحصيل العلوم، الذي كان يحصل على أعلى الدرجات في الاختبارات التحريرية المكتوبة، كان يرتعد من اختبار شفهي، يفعل المستحيل ليتجنبه، فاقداً للشجاعة على مواجهة عيني محدّثه.

ويومًا بعد يوم، كان يحاول الهرب من الكلمات التي لا تطاوعه على الخروج من فمه، يؤثر الصمت، وبداخله بركان من الكلمات التي تبحث عن مخرج للحياة، لتنفجر وتطلق أحرفها إلى عنان السماء، في حين كان المخرج الوحيد الذي يمتلكه... معطوبًا.

كان يبحث عن أي مخرج بديل حتى يُحدّث الجبال والأشجار والأنهار والعصافير بما يريد، يكتنفه شعور جارف بأنه لا ينتمي إلى هذا العالم، الذي لا يمكنه التواصل معه دون جراح غائرة، لا يرغب في الوجود به، يريد التمرد، يريد الهرب مطلقًا ساقيه للرياح، بعيدًا عن كل هذه الحدود، والقيود.

ودّ لو كانت هناك لغة أخرى لا تُستخدم فيها الكلمات المنطوقة تستطيع أن تحمل أفكاره ومشاعره وأحاسيسه إلى كل الدنيا.

حتى وجد ضالته، في قلم صغير، وبضع أوراق.

في الكتابة.. لم يكن يتلعثم، كانت الكلمات تخرج من فمه همسًا

حين كان يدوّنُها بطلاقة شديدة، وكأن لسانه كان ينطلق متحرراً من أي قيد، بلغة جديدة، أصواتها من حروف ملتصقة بعضها ببعض، تكوّن كلمات وعبارات. صفحة تلو الأخرى، وكراس تلو الآخر، كان يكتب ويرسم ويبدع.

الكراس والقلم كانا في غاية اللطف.. لم ينظر إليه أحدهما من قبل باستغراب، لم يعلّق أحدهما عليه أو يسخر منه، لم يشعراه يوماً بأنه مختلف، كانا يحتضنان كلماته ومشاعره الوليدة، ويجيبانه بنفس اللغة.

لم يسخرأ منه، لم يتنقرا عليه، حتى لم يبتسما له بشفقة أو بكذب أو برّياء، ولم تكن مشاعرهما قط في أي يوم من الأيام... زائفة. ومنذ ذلك اليوم أصبحا كراسه وقلقه... لا يفارقانه أبداً. مثلما أصبح الزيف... عدوه اللدود.

لم يقرر قط أن يصبح كاتباً، لكن الكتابة هي التي اختارته، وأصبحت عالمه الفسيح، لم يكن يبحث عن أي لقب أو مُسمّى، كان فقط يبحث عن العالم الذي ينتمي إليه، ويهرب من أي عالم زائف!

سرعان ما كبر الطفل الصغير بداخل عالمه الذي صنعه بيديه، العالم الذي وجد أنه ينتمي إليه، ولا يمكنه أن ينتمي إلى غيره، لكنه لم يستطع الانفصال عن العالم الكبير الزائف الذي يحيط به، رافضاً له، مجبراً على الحياة خلف أسواره، مأسوراً بقيوده. سرعان ما أدرك أنه لن يستطيع إلا أن يعيش على حدود العالمين، عالماً بين بوابتين بصالة انتظار، كأنه (مهران ناصري) صغير.

لم يكن يدرك الطفل الصغير ولا الفتى في ذلك الوقت ماذا كان يعني مصطلح أزمة الهوية، لكنه كان بصورة ما تجسيدًا لها.. صارع كثيرًا بحثًا عن هويته، بحثًا عن ذاته، بحثًا عن شجاعة مواجهة العالم بكل حقيقته وزيفه، بكل خيره وشره، بكل تناقضاته، وبكل ظلمه وعنفوانه.

لم تكن المعركة سهلة قط.. خاض فيها كثيرًا من الخيبات، والعثرات، والزلات، تحمّل الكثير، قبل أن يتعلّم المواجهة، ويكتسب الشجاعة الكافية لمواجهة العالم الذي يبغضه.

رفع صوته الخفيض، خرجت الكلمات ببطء، بمعاناة، تنطلق أحيانًا وتتجمّد بفمه أحيانًا أخرى، تتسارع أنفاسه، تحرق عيناه بعيون المستمعين، تخفق نبضات قلبه، تدقّ كالطبول في أذنيه حتى يعلو صوتها على صوت الكلمات، تلثم مرات ومرات، احتمل نظرات العيون، وهمهمات الشفاة، ولكنه نطق، قاوم خوفه، وأجبر نفسه على عدم التراجع أو الهروب.

طرد الأشباح التي كثيرًا ما امتلكت روحه وقيدته، تكلم وتكلم ورفع صوته.. كسر قيوده، ورفع رأسه إلى السماء يناجي الكون. وذهب ليحاول تحقيق أحلام طال عمرها لسنوات عمره، تمزّد على كل شيء، آمن بقدرته على الصمود وتحقيق المستحيل، التزم بالتقدم كل يوم خطوة صغيرة تجاه حلمه.

الفتى الهارب المنطوي الصغير، فرد جناحيه ليحلّق في السماء، ولم يكن ليقنع بما دون النجوم.

وبعد أن فقد أمه، وفقد الحصن الذي كان يحتمي به من عواصف الحياة، فقد النبع الذي كان يستمد منه طاقة الاستمرار في جهاد قبح الحياة. أصبح وحيدًا، مكلومًا هو وأحلامه، التي أقسم على تحقيقها.

بدأ الرحلة الشاقة، لم يكن يتخيل مدى قسوتها، خاض المعركة دون أي أسلحة تعينه على النصر، وبلا بوصلة ترشده للطريق الصحيح، بلا خارطة يمكنه اتباع دروبها بوضوح.

ظل يسعى جاهدًا طارقًا كل الأبواب، لم يكن في حياته شيء آخر، لم يلتفت من الأساس لأي اتجاه آخر، بعد أن فقد في خضم الرحلة، معنى الحب.

حتى دق قلبه لمنيرة.

لم يكن عقله الرافض للزيف، المكوي بناره طوال عمره ينبهر بجمال أي فتاة، لم يكن الجمال ما يلفت انتباهه من الأساس، كان قد أدرك زيف كثير من الأشياء الجميلة.. كان يبحث دائمًا عن جوهر ما، مخفي خلف عيون يعرفها جيدًا من قبل أن يراها.

كان يبحث عن روح تقترب بروحه المنهكة، يمكنه يومًا ما أن يقصّ عليها كل ما كان يخفيه ب صدره، لتحتضنه وتداوي جراحه، لتتهوّن عليه ما عاشه من معاناة لمئات السنين، في عمره الذي بالكاد تجاوز الأربعين، كان يبحث عن مرشد له في العالم الذي لم يكن ينتمي إليه، ولا يعرف عن دروبه شيئًا، كان عز الدين دون أن يشعر.. يبحث عنها.

وعندما وجدها.. سمع منها كلمات لامست أحلامه، كلمات داعبت قناعاته، صادفت صوت عقله وقلبه وروحه، ودفعته إلى ما كان

يحلم به.

لم تكن منيرة تعلم عندما طلبت منه كتابة رواية عظيمة، رواية خالدة، رواية خارجة عن المألوف، بأنها في الحقيقة كانت دون قصد تستفز طاقاته وقدراته، وتنبش في كومة من الأحلام تراكت عليها أتربة الواقع، لم تكن تعلم أنها تطرق حديدًا ساخنًا، وتفتح فوهة بركان خامد ظل ينتظر هزة قوية لينفجر.

لم تكن تعلم أنه جُبل على الكتابة، أن الكتابة هي عالمه الوحيد الذي يعرف دروبه ومسالكه، ولا يعرف غيره. لم يكن أحد غيره ينبغي له أن يكتب هذا العمل الذي تريده أن يكتبه، هناك العديد ممن يمتهنون الكتابة، ويحترفون التدوين والحكي، ويُتقنون أصولها، ويُبدعون فيها، لكن لم يكن أحدهم يعيش بداخلها وتعيش بداخله، يقتات عليها وتقتات عليه، مثلما كان هو.

كان يحلم بذلك الحلم منذ أن أصبح القلم والكراس أخويه وأصدقاءه المقربين، كان في أشد الاحتياج إلى من يُفجّر هذا البركان، ويُطلق الروح المسجونة بداخله لتحلّق، وتطير ملء جناحيها، تبحث وتفتش عن ضالته المنشودة.

حاول، لكنه كان مشتّت الانتباه، يرتدي ثوبًا لا يليق به، ويسعى للإمساك بحروف وكلمات لا تنتمي إلى عالمه، عبارات غريبة عليه، لم تكن لتصبح طوع أمره، في النهاية واجه الفشل.

وعندما أصابت روحه الوهن، واستكان لليأس، كان تصرفها معه هو الصفة التي كان في أشد الاحتياج إليها، وعاء الماء البارد الذي كان

لا بد أن يُصب على رأسه ليستفيق، ويعود من جديد، ويحقق الحلم الذي كثيرًا ما طارده منذ طفولته.

ارتحل إلى خلوته، صارع نفسه مجددًا، هزم خوفه الدفين من جديد، طرد أشباح اليأس والهزيمة، وأخرج من داخله عفريت الإبداع، ليتلبسه ويمسك بيديه ويسطر الأحرف والكلمات، ويهمس في أذنيه بالمعاني والأفكار، ويتردد الصدى، ليوقظ المارد السجين بداخل المصباح القديم.

خاض تجارب عديدة، ارتحل لأزمان بعيدة، وسافر إلى عوالم أخرى، طاف بكل الأماكن، كان عقله قد تحوّل إلى مدينة كبيرة، مزدحمة، كأنها القاهرة تحتضن كل العصور بين أزقتها وضواحيها، وراح يدوّن كل شيء على أوراقه المتناثرة، مزج الخيال بالحقيقة، الحب بالكراهية، الشجن بالأفراح، رسم بريشته ملامح شخصيات وديعة طيبة، وجبارة متكبرة، وصادقهم، عاش معهم وامتك أسرارهم ولمس مشاعرهم وبكى لأحزانهم وفرح لأفراحهم.

استفاق فارس الكلمة، نهض من غفوته، وأمسك قلمه وأوراقه، وسطر عليهما من جديد. ثم لملم تلك الأوراق، وأعطاهما إليها.

وها هو قد عاد اليوم، كالتلميذ في امتحان شفهي، كذلك الذي كان يرتعد منه طوال عمره، ينتظر الاستماع لرأيها فيما كتبه. لعله يفتح له باب تحقيق الحلم، ذلك الحلم الذي أصبح دستور حياته، والذي أقسم على تحقيقه على رغم أي عثرات، وبأية طريقة.

- اللي واخذ عقلك.

قالتها منيرة، وهي تبتسم، وتحرك يدها أمام وجهه، كأنها توقظه من دوامة أفكاره.

- منيرة، أهلاً يا حبيبتي، لم ألاحظ قدومك.

- بالطبع، أنا واقفة أمامك منذ دقيقة كاملة، وأنت في عالم آخر.

- بالفعل، كنت أفكر في أمور عديدة.

- أخبرني إذاً، لا تقلق لن أغضب، هل هي شقراء؟

بابتسامة عريضة أجابها، قائلاً:

- من هذه الناحية، لا تقلقي تمامًا، لا شقراء ولا سمراء، قلبي لا يمكن أن يتسع لغيرك يا حبيبتي.

- حسناً، ربما ننظر في هذا الأمر في وقت لاحق، والآن أخبرني ما أخبار الرواية؟

- أنا الذي أخبرك؟ بل أنا منتظر رأيك على أحرّ من الجمر.

- حسناً، لم آخذ إذنًا للانصراف مبكراً من العمل حتى أجاملك، هل تريد رأيي حقاً، وبصراحة؟

- بالطبع.

- رائعة، أدهشتني، ولم أصدق ما قرأت.

- حقاً، لا أصدق، شكراً جداً.

- ولكن...

- ولكن ماذا؟

- أنت تريد الصراحة، فكرة الرواية بالفعل رائعة، لكنني أعتقد أنه لم يزل لديك الكثير في جعبتك.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن الأحداث عامة، ليست تفصيلية، أحسست وأنا أقرأها كأنها مجموعة من الرحلات أو من القصص القصيرة المتتابعة، جُمعت خلف بعضها حتى تصنع قصة كبيرة أو رواية، أحسست أن هناك عديدًا من التفاصيل لم تُذكر، أو أن الأحداث ينقصها كثير من الملاحظات، وحتى الشخصيات، ينبغي أن يكتمل المجتمع المصاحب لبطل الرواية، أرى أنه ينقصها مزيد من الدقة والتفاصيل في رسم الشخصيات.. مشاعرها.. مخاوفها.. دوافعها الخفية.. تاريخها النفسي.. ماضيها، أريد أن أعرف خلفية كل شخصية، وما أدى بها إلى وضعها الحالي، هل تفهمني يا عز، أنا أريد شخصيات حقيقية حية تمتلك تاريخًا، كأنني أقرأ في كتاب تاريخ فأحصل على خلفية كاملة لكل حياة الشخص الذي أقرأ عنه، وعما هو عليه الآن، كما كنت أتلهف إلى حبكة أكثر تعقيدًا، ممتلئة بالألغاز والتداخلات والمفاجآت، وأشياء من هذا القبيل.

- وماذا يتبقى إذا؟ ماذا أعجبك من الأساس إن كان ينقصها كل هذا من وجهة نظرك؟

- قلت لك الفكرة، الفكرة عبقرية، ولكن لا تركز إلى ذلك وتظن الأمر هيئًا، كل عمل عظيم بُذل فيه من الجهد ما يفوق التصوّر، كان

الاهتمام بكل تفاصيله الدقيقة هو دليل عظمتة، كل تاريخ لحدث ما، كل مكان دارت فيه أحداث ما، كل إحساس تولّد لدى شخصية ما، وكل أمر أخفته شخصية أخرى عن القارئ، ينبغي أن تُكتب بعناية شديدة وباحترام لعقلية القارئ الذي يبحث بذهن يقظ عن تلك التفاصيل وينتبه جيدًا إلى أي خلل ولو بسيط لا يلاحظه أحد، هل فهمتني، نحن نصنع مشروعًا كبيرًا جدًّا، ولن أَرْضَى بأقل من أن تغوص في أعماق كل كلمة به، لا تستعجل أبدًا، امنح نفسك كل الوقت الذي تريده، وستجدني دائمًا الناقد المدقق الذي لا يترك هفوة تمر مرور الكرام.

- هل تعلمين، ربما كنت على حق، ربما لا ينبغي الاستعجال، أنا بالفعل أريد إعادة كتابتها بتأنٍ، والغوص في أعماق كل شخصية وإثراء الأحداث بعدد من التداخلات والخطوط الدرامية.

- أعتقد أنني يمكنني مساعدتك في هذا، كقارئة وناقدة بالطبع، لكن صدقني، أنا على يقين أن تلك الرواية ستحدث ضجة كبيرة جدًّا بعد نشرها، الحقيقة أن فكرتها في غاية الروعة، كما أن بها عديدًا من الإسقاطات، لكن يا حبيبي ينقصها الكثير، يمكن تدعيمها بعدد من الأمور، والحبكات الفرعية، والألغاز والقصص الغامضة أو الخيالية، هل تعلم، ربما كان الشيء الذي أراه ينقصها هو صوت السرد.

- ماذا تقصدين؟

- الراوي يا عز، ربما يمكنك أن تغيّر طبيعة الراوي، الصوت السردى، أعتقد أن هذا سيغيّر كثيرًا من تلقائية الرواية، وتقبّل القارئ لها.

- أنت على حق بالفعل، على كل حال، أشكرك على كل شيء يا منيرة.

- ما هذه الدراما يا عزيزي، على أي شيء تشكرني، أنا سعيدة بتخطيك لما مر بك، وعودتك بهذه الرائعة، قلت لك من قبل سأفعل أي شيء في الدنيا لأجل نجاحك.

- أعدك بذلك.

- حسنًا، ولكن ألم تنس شيئًا يا حضرة الكاتب.

- ماذا؟ هل تقصدين كتابة مقدمة أم ماذا؟

- دعك من الكتابة الآن، أنا أقصد الغداء يا عزيزي.

رفع حاجبيه بغتة قبل أن ينفجر في الضحك، وهو يردف إليها،
قائلًا:

- آه منك، لا يا عزيزتي، انظري خلفك، ها هو النادل قادم بالطعام، طلبت منه ألا يجهزه إلا عند حضورك، لكنك أنت من نسيت أمرًا آخر لم تسأليني عنه.

- أمر آخر؟ ما هو؟

- هذه.

قالها وهو يُخرج من جيب سترته... زهرة بنفسج.

عبر التاريخ

لم تكن تلك هي المرة الأولى، التي انسكبت فيها القهوة التي كان يُعدها نائل على الموقد، مُخلّفة كثيرًا من الفوضى، والتي انهمك في تنظيفها على الفور في حين كان يعيد ملء (الكنكة) للمرة الثالثة، ويبدأ في تجهيز الكوب لضييفه عندما كان يخاطب نفسه، وهو يملأ ملعقة صغيرة بالبن:

- أفق بالله عليك، لن تقضي يومك كله في إعداد كوب من القهوة! قالها وهو يسترق النظر إلى ضيفه الجالس بشرفة المكتب قبل أن يعود إلى المطبخ، كان ربما يريد أن يتأكد أن ضيفه موجود بالفعل، وأن ما كان يشغل عقله عن إعداد القهوة لم يكن حلمًا أو خيالًا، كان يتمنى لو كان كذلك.

كان العجيب هو أن كل هذا يحدث بالفعل.

قبل عشر دقائق فقط، كان قد أيقن أن كل ما حدث له أمس، من مقابلة وحديث مع شريف هو محض خيال أو حلم ثقيل، حتى بعد أن استيقظ من نومه وودّع زوجته التي ذهبت إلى عملها في الساعة التاسعة إلا الربع، مثلما أخبره الأخير تمامًا، وابنته التي غادرت قبلها، في الثامنة.

ظن أن كل ذلك لا يعدو كونه صدفة، حتى بعد أن ترك إفطاره ولم يتناول دواءه كعادته وترك كل ذلك؛ ليصنع لنفسه كوبًا من القهوة ويجلس شارد الذهن في شُرفة المكتب، قبل أن يرن جرس الباب،

ليجد شريف أمامه.

بدأ سطح القهوة في الارتفاع قليلاً، سارع لسكبها في كوب زجاجي صغير، وضع الكوب بجوار كوب مياه كبير على صينية التقديم، وحملهما إلى الشرفة، حيث كان شريف يقف متكئاً على إفريز الشرفة، يطالع الشارع الذي كان قد بدأ في الازدحام، حين توقف انهمار المطر الذي كان يهطل لليوم الثاني على التوالي. لم يشعر بوصول نائل حتى بدأ الأخير في توجيه حديثه إليه، قائلاً:

- أراك مهتماً بشوارع القاهرة في زماننا يا سيد شريف.

- بالتأكيد، كم أتمنى لو كان وطني بهذا الشكل.

- بهذا الشكل؟ بهذا الزحام تقصد، أم التلوث، أم الضوضاء، أم العشوائية؟

- بل بهذه المدنية يا سيد نائل، والحياة، وهذا العدد من البشر، هؤلاء المارة في شارعك فقط يساوون كل أعداد البشر على سطح الكوكب في زماننا يا سيدي، هل تتخيل ذلك، نحن وبكل أسف، وبعد قرابة ألف عام من الآن وعلى عكس المنطقي، لم نصل إلى أي من هذه المظاهر التي تُبغضها أنت، وتعتبرها عشوائية وهمجية، نحن لا نملك طرقات في عالمي، الدروب بالكاد تُصنع من الحصى المُعبّد، والبنائات الفاخرة في زماننا مجرد بيوت صغيرة من الطين والحجارة، وبقية البشر يقطنون في العراء أو الكهوف الجبلية، لا ناطحات سحاب كما تسمّونها، لا مكيفات هواء أو وسائل تدفئة، لا طعام معبأ، أو مشروبات مثلّجة، لا أي وسيلة للرفاهية، أو حتى

وسيلة للطاقة يمكنها إنارة الطرقات ليلاً عدا بعض المشاعل البدائية، لا سيارات مثل تلك أو حافلات أو حتى ضوضاء كما تُطلق عليها، أترى ذلك الرجل الذي يفترش الأرض ويضع عليها بضاعته من الكتب، ربما تُعدُّ ذلك نوعاً من إهانة العلوم والآداب بأن تفترش الأرض، لكنني أخبرك أنه كم أتمنى لو أجد مثله في عالمي، الأدب والعلوم والثقافة متاحة للجميع عندكم وبلا مقابل تقريباً، في حين لا تُقدِّرون قيمتها، حتى أولئك البسطاء المارون في الشوارع أو الراكبون للحوافل يسرون بجوارها بلا مبالاة، يجدونها متاحة بسهولة أمامهم، ولا يكثرثون لها.

- هل تعتقد أن ما تراه هو حقاً مظاهر للحضارة؟ أم للفوضى؟ هل من الجيد أن نمتلك كل ما تقول ونُهمله، ونتعامل معه بعشوائية، أم لا نملكه ونقدِّره حق قدره؟ إنها معضلة.

- فوضى يمكن تقنينها وترتيبها أفضل من لا شيء يا سيد نائل، أنتم تمتلكون كنزاً لا تقدِّرونه؛ ربما لأنه ببساطة موجود أمامكم، لم تُحرموا منه حتى تقدِّروا قيمته الحقيقية.

- ربما كنت على حق، لكنني ما زلت مختلفاً معك في الرأي، على كل حال، تفضّل القهوة التي طلبتها، لم أكن أعرف أنك تحبها لتلك الدرجة.

- حتى هذه، أنت لا تدرك قيمة أن تجد بخزانة مطبخك عبوة تحتوي على البن ببساطة شديدة، وموقدًا يمكنك إشعاله بضغطة زر وقتما تشاء، أنت لا تدرك كم هو عظيم أن تستطيع الحصول على

كوب من المياه النظيفة بمجرد فتح صنبور، وهذا الكوب لم أستطع نسيان طعمه منذ آخر زيارة جمعتني بك، بالطبع لن تعرف كيف أعجبني طعمها إلا قبل مرور تسع سنوات.

- حسناً، ها هي ذي، بالهناء والشفاء.

- شكرًا لك يا سيدي، ينبغي فقط أن تعرف أن كل ما تراه من مظاهر لما تدعوه بالفوضى والهمجية، في الحقيقة لم يكن ينبغي أن تكون موجودة في هذا الزمان، الوطن الذي ابتدع الحضارة والمدنية منذ خمسة آلاف عام، لا يستوي أن يكون هذا حاله، في حين الدول التي اهتمت بحضارته تتمتع بكم أكبر من النظام والحضارة والمدنية.

- لك الحق في هذا، لا أدري كيف وصل بنا الحال إلى ما نحن عليه.

- لكن أنا أعلم جيدًا كيف آلت الأمور إلى هذا الحد.

قالها وهو يتلَقَّف كوب القهوة كأنه عاشق التقى محبوبته بعد الهجران، رشف رشفة وهو مغمض العينين كطفل يتذوق الحلوى لأول مرة، ثم ما لبث أن فتح عينيه واعتدل في جلسته ناظرًا إلى نائل بجدية وهو يحدثه، قائلاً:

- هلا بدأنا استكمال حديثنا يا سيد نائل؟

- تفضّل، أخبرتني أنك ستحدّثني عن التاريخ.

- بالتأكيد، ولكنه ليس التاريخ الذي تعرفه!

- ماذا تعني؟

- سأوضح لك، ولكن أخبرني، على سبيل المثال، ماذا تعرف عن الهكسوس؟

- على ما أتذكر هم شعوب قدموا إلى مصر من غرب آسيا، عن طريق شبه جزيرة سيناء وتمكّنوا من احتلال شمال مصر في نهاية زمن الأسرة الثالثة عشرة من ملوك مصر القديمة، ومكثوا فيها نحو مائتي عام قبل أن يطردهم الملك الشاب أحمس، ملك الجنوب، بعد حروب طويلة قُتل فيها أبوه وأخوه الأكبر ملكا مصر اللذين سبقاه، لقد كان يومًا مشهودًا في تاريخ مصر القديمة، وما زال يُدرس للأولاد في المدارس حتى يومنا هذا، حتى إن ذكرى عودته هو وأمه الملكة (إياح حتب) من الشمال منتصرًا إلى طيبة، كانت متزامنة مع اكتمال القمر بدراً، وخروج المصريين في استقبالهم بالمصاييح التي كانت تضاء بالشموع وهم يهتفون (واح واح إياح)، التي تعني (تعيش تعيش إياح) ذلك الهتاف الذي ظل يتوارثه الأجيال حتى أصبح من معالم استقبال هلال شهر رمضان، بالأسلوب ذاته وبعد أن تحور الهتاف إلى (وحوي وحوي إياحه).

- معلومات جميلة يا سيد نائل، لكن يؤسفني أن أخبرك أن بعضها خاطئة!

- كيف ذلك، أنا متأكد مما قلته لك.

- لا أشك في ذلك يا سيدي، ولكن دعني أخبرك ببساطة أن الحقيقة هي أن الملك (حتب أب رع) آخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد خاض عدة معارك على حدود مصر الشمالية الشرقية مع هذه

القبائل، استطاع على إثرها هزيمتهم هزيمة نكراء ومطاردتهم حتى أرض أور، ولم يذكر التاريخ أي أثر لهم عقب تلك الهزائم والتشرذم في الأرض. الهكسوس يا سيد نائل في الحقيقة لم تطأ أقدامهم أرض مصر، ناهيك عن احتلالها مائة وثمانين سنة، أما ما تذكره من استقبال المصريين للملكة (إياح حتب) وما تم توارثه من الهتاف الشهير في استقبال شهر رمضان في هذا الزمان، فيجب أن أوضح لك أن اسم الملكة أو كلمة (إياح) في الواقع تعني القمر في اللغة المصرية القديمة، وتم توارث هذا الهتاف من استقبال المصريين للقمر الثالث عشر في السنة المصرية، المتقم للعام في التقويم الفرعوني القديم الذي كانت السنة فيه ثلاثمائة وأربعة وثمانين يومًا، كان الأمر أشبه باحتفال رأس السنة في زمانكم.

- كيف هذا؟ أي طفل صغير يعرف أن أحمر طرد الهكسوس من مصر.

- بالتأكيد يا سيد نائل، أي طفل صغير أو حتى شيخ طاعن في السن سيعرف ما تم التلاعب به وتكراره في زمن سابق حتى أصبح حقيقة دامغة في زمانكم، إنه عبث العالم السفلي يا سيدي، تأثير مانيلا، عندما يتم تأكيده في أذهانكم.

- هل تعني أن مصر لم تتعرض لذلك الاحتلال بالفعل.

- نعم، هذه هي الحقيقة، والكثير غيرها على مر العصور، في الواقع يا سيدي أن مصر كثيرًا ما كانت مطمئنًا لكل شعوب الأرض، لكنها سبقت الجميع في تكوين حضارة ومدنية مكنتها من امتلاك جيش

قوي، دأب على حماية أراضيتها، على مر الزمان، في الواقع يا سيدي،
إن مصر في زمانكم غير المتلاعب به، هي أكثر دول العالم تقدمًا.

- ماذا تعني؟

- أعني أنك وكل المصريين تعيشون واقعًا زائفًا، تم التلاعب به ولم
يكن مقدّرًا له قط أن يصبح كذلك.

- ما تقوله عسير جدًّا على التصديق يا شريف، وإلا كان الزيف هو
الحقيقة في هذا العالم.

- في الواقع، إن تشبيهك هذا هو عين الصواب بكل أسف، الزيف
دائمًا هو الحقيقة التي يراها الجميع على السطح، في كل المجالات،
لا يدرك الحقيقة إلا باحث عنها ومتقصّ لها وصادق في التنقيب
عنها، محايدًا في الرأي.

- وماذا أيضًا من الحقائق... أو بالأحرى من الزيف تم التلاعب به؟

- عديد من الأحداث تم التلاعب بها يا سيدي، هزيمة الإسكندر
المقدوني على أبواب الإسكندرية على سبيل المثال، العصر البطلمي
برمته، ودحر الكنعانيين والكوشيين والليبيين القدامى والفرس
والعثمانيين، في مراحل عديدة من تاريخ مصر، وفشل حملة نابليون
بونابرت، وفشل الحملة البريطانية الثانية في احتلال مصر.

- ولكن هذا غير منطقي، هناك بالفعل عديد من الآثار اليونانية
والبطلمية، الراقدة في مياه البحر أمام سواحل الإسكندرية،
الإسكندرية التي سُمّيت نسبة إلى الإسكندر المقدوني، وعديد من

الآثار الرابضة على أرضها تصدح بوجود الإسكندر والبطالمة في حكم مصر لأكثر من ثلاثمائة عام، كل تلك الآثار المادية من المعابد والمسارح والتماثيل وأعمدة السواري تنفي ما تحاول إثباته من تلاعب.

- لا تجري الأمور بهذا الشكل يا سيدي، عندما يتم التلاعب بحدث ما في زمان قديم، ويتم تأكيده بالتكرار لسبع مرات وفقًا للمصفوفة كما شرحت لك، فإنه يترتب على ذلك استكمال سير الأحداث وفقًا للواقع الجديد، الحدث لا يتغير في ذاكرة البشر فقط يا سيدي، بل يتغير على الأرض كحقيقة واقعة، لذلك، فإنه تسير الأمور بعده بصورة طبيعية وفق ما يمكن أن تؤول إليه الأحداث، حرّر عقلك يا سيد نائل من جمود ما رسخ به طوال عمرك حتى تستطيع أن تدرك طبيعة التلاعب بالزمن.

- الأمر أكبر من مجرد تحرير عقل يا سيد شريف، أنت ببساطة تشكّل لي وعيًا مغايرًا عمّا تشكّل لديّ طوال تسعة وستين عامًا هي سنوات عمري، ليس ذلك بالأمر اليسير.

- أعلم ذلك تمامًا، كلنا مررنا بنفس التجربة في اللقاء الأول مع رسول الهيئة العليا.

- حسنًا، ولكن ما فهمته هو أن كل ما علينا أن نعيد الأمور إلى نصابها من جديد.

- لا تجري الأمور بهذا الشكل، إن ما نقوم به يشبه السباق، كلّ من الطرفين يسعى للوصول إلى الأزمّة وتغيير أحداثها؛ وفقًا لما يُكسبه

خطوة جديدة، لكي تزداد الأمور تعقيدًا على الطرف الآخر، هل
تعرني انتباهك أكثر لأشرح لك ذلك.

- كلي آذان مصغية.

- هناك بعض الأحداث التي تربّت على أحداث متلاعب بها، كما
أسلفت لك الشرح، لم تكن في الحقيقة يمكن أن تحدث من تلقاء
نفسها، لكنها يمكن أن تساهم في تصويب المسار بصورة طبيعية.

- لا أفهم.

- سأعطيك مثالًا على ذلك، ثورة عام ١٩١٩ على سبيل المثال،
قد أدت بنتائج إيجابية في طريق العمل الوطني ضد المستعمر
الإنجليزي، مهّدت الطريق للاستقلال السياسي عن بريطانيا عام
١٩٢٢، ثم لجلاء القوات البريطانية بشكل كامل عام ١٩٥٦.

- هذا صحيح.

- حسنًا، دعني أخبرك أن هذا الحدث لم يكن موجودًا في السياق
الطبيعي، لأنه ببساطة لم تتمكن القوات البريطانية من احتلال مصر
من الأساس.

- هذا منطقي.

- حسنًا، أخبرتك أنه تم التلاعب بالأمر على مدار قرون من الزمن،
أحداث مترتب بعضها على بعض، أدت في النهاية إلى إضعاف قدرة
البلاد على صد العدوان، وتأخرها الشديد عن ركب التطور في تسليح
الجيش، وهكذا تم معاونة القوات البريطانية على احتلال مصر، مما

غير سير الأحداث الطبيعية في تلك الأبعاد التي تم تكرار الحدث بها، لذلك ونتيجة طبيعية، دون التدخل من أحد سارت الأحداث في تلك الأبعاد على النحو الذي آلت إليه، بوجود محتل للأرض، وظهور قوى وطنية وقوات فدائية، سعت إلى طرده، وصولاً إلى ثورة ١٩١٩، وما تلاها من أحداث.

- حسناً، أعتقد أنني أوافق على هذا الطرح حتى الآن.

- التاريخ يا سيدي ليس صفحات كتاب جامدة، التاريخ كأنه كائن حي ينبض بالأحداث، كلما استجد عليه حدث جديد ترتب عليه أحداث عديدة لاحقة، أيًا كان الحدث فهو يُنتج تفاعلاً معه يدفع الأمور إلى نتيجة ما، وكلما تغيرت المدخلات أو الأحداث، تغيرت النتائج.

- هذا أمر غريب جداً، ولكنه منطقي.

- حسناً جداً، دعني أخبرك أن ما يحدث الآن من العالم السفلي هو محاولة تلاعب آخر لتلك الأحداث المترتبة على التلاعب الأول، وذلك بإفشال ثورة ١٩١٩ على سبيل المثال، وكل الأحداث التي تصوّب المسار بصورة طبيعية، حتى يتم تعقيد الأمور بشكل أكبر وجعل مهمتنا مستحيلة.

- يا الله، أي حلم هذا، وكيف يتم ذلك؟!

- في المثال الذي أخبرك عنه، ثورة ١٩١٩، تم زرع عديد من القنابل الموقوتة بموعد تحرك المسيرات، والتي انفجرت تباغاً فأصاب المتظاهرين وقتلت منهم الآلاف، وشتتت جمعهم، بعد أن تحول

الأمر إلى مذبحة كبيرة، وقضت على الثورة في مهدها، مما ترتب عليه بالتبعية فشل القوى الوطنية، وعدم تحقق الجلاء في موعده، وامتداد الاحتلال حتى يومنا هذا، حدث هذا في ثلاثة أبعاد حتى الآن، ويجب تدارك الأمر قبل أن يتمكنوا من إكمال تكرار الحدث في سبعة أبعاد، فيصبح واقعًا ملموسًا.

- يا ويلي، وماذا يمكن أن نفعل حيال ذلك؟!

- نعود بالزمن إلى يوم يسبق الثورة ونذل الفدائيين على أماكن القنابل التي يعدونها للتفجير في صباح اليوم التالي، فيدمرونها مسبقًا، وبهذا نستطيع الحفاظ على سير الأمور في الحدث الأصغر، دون تغيير جديد يصعب الأمور حال عدم تمكننا من التغيير الأكبر.

- ما هذا الحلم الذي أعيشه الآن، كأنه من المحتمل أن أنام الليلة وأصحو غدًا لأجد جنود الاحتلال البريطاني تعيث فسادًا تحت بيتي!

- هو كذلك بالضبط، كما أنك ستصحو بذاكرة مختلفة تسير الوضع وتتماشى معه؛ لأنك بالفعل ستكون قد عشته طوال سنوات عمرك في زمنك الذي تبدّل من جديد.

- يا للسخرية، وأنت تطلب مني الآن لتحقيق ذلك، إنقاذ حياة رجال، هم في الحقيقة موتى من عشرات السنين!

- أنا أعلم أن الأمر صعب على الفهم أو التصديق يا سيد نائل، لكنه قدّرنا.

- أنا أتفهم يا سيد شريف، ولكن اسمح لي، في النهاية ما علاقة كل ذلك بإنقاذ الأرض من مصيرها المحتوم.

- مصر العظمى... يا سيد نائل.

- لا أفهم.

- في الواقع يا سيدي، عندما كانت تجري الأمور بصورة طبيعية، قبل كل التلاعبات، كانت مصر ستظل منارة الحضارة للعالم أجمع، ومنبع العلوم والثقافة والفن، وبعد تطور العالم، كانت ستصبح في عام ١٩٤٥ أغنى دول العالم، بأكبر احتياطي من الذهب عرفه البشر، وصاحبة الجيش الأقوى في العالم، وتدار تحت رايتها مائة وعشرون دولة، قامت كل واحدة فيهم بطلب الحماية والانضمام إلى الائتلاف الكبير لمملكة الدول المصرية المتحدة.

- المملكة المصرية المتحدة؟!

- نعم يا سيد نائل، هذا هو مسمى الائتلاف الكبير الذي انضم تحت راية المملكة المصرية العظمى.

- ولكن ماذا عن الحرب العالمية الأولى، والثانية؟ كيف تتوحد دول الحلفاء مع دول المركز، ودول المحور مع الحلفاء بعد ثلاثين سنة أخرى؟

- في الواقع يا سيدي، لم تكن هناك أي حرب عالمية أولى أو ثانية، لقد تم رأب الصدع مبكرًا بفرض حكومة مصر عقوبة على دولة البوسنة والهرسك، عقب اغتيال الأرشيديوق فرانز فرديناند وريث

عرش النمسا في العام ١٩١٤، وتم عقد الصلح، والقبض على منظمة حركة البوسنة الشابة وتفكيكها، والسيطرة على الأمور قبل أن تصل تداعيات الأمر لإعلان دولة النمسا الحرب، وبناء التحالفات العالمية التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى كما تُعرف قصتها التي تمت في التاريخ المزيّف.

- مزيّف؟ هل تعني؟

- نعم يا سيدي، بالطبع، الحرب العالمية الأولى والثانية لم تكونا إلا صفقات قذرة من بيع السلاح لكل الدول المتحاربة للعالم السفلي، كان لا بد أن تحدث تلك الحروب حتى تخلق طلبًا كبيرًا على الأسلحة، ثم ينتج عنها احتلال وتقسيم للدول التي توجد بأراضيها مخازن الوقود الأحفوري والغاز الطبيعي، ومناجم الذهب بالطبع، كان ذلك كله تجهيزًا للاحتلال والتقسيم المتفق عليه بين أباطرة العالم السفلي من جميع الجنسيات، ومسرحًا لصفقات الأسلحة، وإعدادًا لمسرح صفقات الطاقة فيما بعد، وكثير من المكاسب كما شرحت لك.

- يا الله، هل هذا صحيح فعلاً، وهل كانت بالفعل مصر العظمى كما تروي عنها السبب في إنهاء الأزمة في مهدها.

- بالطبع، ثم في ذلك الوقت وبعد تدارك الأزمة، أنشأت المملكة المصرية العظمى منظمة الأمم المتحدة، ومقرها القاهرة عاصمة العالم الحديث، وحيث كانت تسير الأمور المستقبلية على أكمل وجه، ولأنه كان قد تسلّم المصريون في العام ١٩١٧ رسالة جديدة

من المستقبل، تحتوي على كل أسرار الطاقة الفوتونية الكونية، تماثل الرسالة التي كان قد تسلمها الملك مينا منذ خمسة آلاف عام، قبل أن يسرق أحد العابثين من العالم السفلي أسرارها ويعطل عمل الأهرامات، وتحت قوة مصر الاقتصادية الكبيرة، وقوتها العسكرية العظيمة تم إعادة إنشاء أبراج استخلاص الطاقة من الكون، في كل أنحاء العالم، وإعادة بثها في كل بقاع الأرض، وعادت الطاقة مجددًا لتصبح مجانية منذ ذلك الوقت.

- هل تعني؟

- نعم يا سيدي، منذ عام ١٩٢١، كان يفترض أن يمتلك البشر الطاقة النظيفة اللامتناهية والمجانية، لم يكن مقدراً قيام كل تلك الحروب، ولا تقسيم الدول إلى دويلات والوصاية عليها، لم يكن مقدراً قط أن ثباع الطاقة وتشتري، ولم يكن مقدراً أن يستخرج الوقود الأحفوري الذي خلف كل هذا التلوث الذي أصاب الكوكب، مما أدى بالعالم إلى هذه الكارثة، ولن يتحقق هذا أبداً إلا إذا أعدنا تصحيح المسار، وتداركنا التلاعب الذي قام به العالم السفلي، لا بد أن تسير الأمور بصورة صحيحة مثلما حدثت في الواقع، وتعود مصر دولة عظمى تجمع الأرض تحت رايتها، ويعود زمانك الحالي إلى ما كان عليه من تقدم ورخاء، ويعود زماني أنا إلى ما كان عليه من مدنيّة وتقدم.

- هل يعني هذا أن ثورة عام ١٩١٩ لم تقع من الأساس، ثم أنت تتحدث دائماً عن مصر بوصفها مملكة، هل يعني ذلك أنه لم تقم ثورة ٢٣ يوليو، ولم تحدث النكسة، ولا حرب أكتوبر التي كانت نتيجة لنكسة ٦٧، هل ظلت فلسطين دولة عربية؟

- في الأصل، نعم، لكن كل ذلك كان نتائج ترتبت على التغيير الأقدم، لذلك فإنها وقعت وستظل حقيقة حتى يتم تدارك الأمر كله من البداية، كلما أحدثنا تداركًا أعمق في التاريخ، كلما محا خطايا التاريخ، التي أوصلتنا إلى هذا الحاضر العشوائي الذي تعاني منه، والذي تأصل فينا جيلًا بعد جيل.

- ولكن، لا يمكن أن يسير أي تاريخ في العالم دون أخطاء، الأخطاء هي سمة البشر، وذلك أمر طبيعي، ويمكن تقبله بصورة أكثر أريحية مما تخبرني به.

- هناك فرق يا سيدي بين الأخطاء والخطايا، الأخطاء تقع بالطبع، وصفحات التاريخ ممتلئة بأخطاء البشر، لكن الخطايا لا تُغتفر، والمؤامرات أكثر خطرًا على مقدّرات الشعوب، نحن بصدد إعادة المسار إلى ما كان عليه من نجاحات وإخفاقات طبيعية، بينما نحارب المؤامرات التي أدّت بنا إلى هذا الوضع.

- وهل يمكن تجنّب الأخطاء، أو كما تسمّيها بالخطايا؟

- لو أن كل متخذ قرار توافرت له فرصة لأن يعرف ما سيؤول له الوضع في المستقبل، لو كان امتلك تلك المعرفة، لكان راجع نفسه ألف مرة قبل أن يتخذ قرارًا يا سيدي.

- ولكن النجاح والفشل أحيانًا هو الذي يجعل منا بشرًا، هو الذي يرسم حضارتنا، هو الذي يعلّمنا الدرس تلو الآخر، أنت لن يمكنك أن تتحكّم في تبعات اتخاذ قرار تراه أنت صائبًا؛ لأن ما سيترتب عليه من نتائج مختلفة عما تعرفه لن يمكنك حسابه أو تصوّره إلا عندما

يحدث ويؤثر ويصبح واقعًا.

- لذلك ينبغي أن نعيد الأمور لنصابها فقط فيما تم التلاعب به، ولا نضيف أو نعدّل شيئًا جديدًا، وإلا أصبح الأمر بمنزلة فوضى عارمة.

- هل أفهم من هذا أن ما نحن بصدد التصدي له هو إعادة تقويم كل تلك الأحداث الدخيلة، بدءًا من غزو الهكسوس واحتلالها لأرض مصر.

- بالطبع، لكنها ليست مهمتك وحدك، أراك نسيت ما أخبرتك به عن مُحدّثات السفر عبر الأزمان وفق المصفوفة، ليس احتلال الهكسوس دورك أنت بالطبع، لقد حصل هذا التلاعب بالأحداث في أزمنة عديدة، ولكن هذا الزمان يفصلنا عنه ثلاثة آلاف وسبعمائة عام، لا يمكننا السفر إلى هذا الزمن وإلا علقنا به، في حين تدارك ذلك الحدث هو مسؤولية عابري أزمان آخرون لا يفصلهم عن ذلك الزمن أزمان بعيدة، وفق خطة الهيئة العليا، فإنه يتم تدارك جميع الأحداث عبر عديد من عابري الأزمان كسلسلة متعاقبة ومتشابكة يا سيد نائل.

- إذًا، ماذا تطلب مني تحديدًا؟

- الألف سنة الأخيرة، كل عابر أزمان مكلف بتصويب المسار في نطاق ألف عام من زمانه يا سيدي، هو وعابرون آخرون بالطبع، كلّ منهم يكلف بمهمة محدّدة أو أكثر، بالإضافة إلى إيصال الرسالة إلى العابر الذي يليه في الزمن، للألف سنة السابقة عن زمانه، هذا هو قانون الهيئة العليا.

- وماذا يمكنني أن أفعل؟

- تقويم بعض الأحداث، عن طريق إيصال المعرفة التي نملكها
لأساليب التلاعب إلى من يمكنه اتخاذ القرار الصائب، وإرشاده
للتلاعب المنتظر قبل حدوثه.

- وكيف يمكن فعل ذلك، كيف يمكن للملوك والسلاطين القدامى أن
يصدّقوا شخصًا من العامة وهو يُخبرهم بأمور لم تحدث بعد؟

- سيشاهدونها بأم عينهم يا سيدي، سثريها لهم صوتًا وصورة، نحن
نملك تفريرًا لطاقة كل الأحداث التي تم التلاعب بها، سأسلمك إياها،
لتعرضها عليهم، ستجعلهم يشاهدون المستقبل الذي ينتظرهم لو لم
يُنصتوا إلى ما تخبرهم به.

- أتقصد الهولوجرام؟

- بالضبط، هكذا نجحنا في كثير من المهام، وبتكرار كل تجربة
ناجحة في سبعة أبعاد محدّدة سيتغيّر الواقع يا سيد نائل، أو
بالأحرى، سيعود إلى مساره الصحيح.

- حسنًا، وضح لي ما المطلوب مني تحديدًا.

- حسنًا يا سيد نائل، في الحقيقة أنه قد تم تكليفك بمهمة أساسية
كبيرة، وبعض المهمات الفرعية، كانت إحداها هي تبليغ الفدائيين
بأماكن القنابل التي أخبرتك عنها في ليلة الثامن من مارس عام ١٩١٩،
بالإضافة إلى تجنيد عابر آخر ينتمي إلى عصر الخليفة الفاطمي المعز
لدين الله، وسأبلغك بتلك المهام لاحقًا، أما المهمة الرئيسية، فهي الأهم
وينبغي أن نشرحها تفصيليًا الآن.

- وما هي؟

- سأخبرك، إنها رسالة يجب إيصالها للسلطان قانصوه الغوري شخصيًا، ولكن، أخبرني أولاً يا سيدي، ماذا تعرف عن موقعة مرج دابق، وموقعة الريدانية؟

- أنت تتحدث عن احتلال العثمانيين لأرض مصر.

- بالضبط.

- حسنًا، على حد علمي بالتاريخ، لقد وقعت معركة مرج دابق في العام ١٥١٦ في المنطقة التي تحمل نفس الاسم قرب حلب بسوريا، بين جيش العثمانيين بقيادة سليم الأول وجيش المماليك بقيادة قانصوه الغوري، وبهزيمة الأخير وقتله، أو تجرّعه السم وفقًا لبعض المصادر، فقد استولى جيش سليم الأول على إمارة الشام منذ ذلك التاريخ تقريبًا.

- حسنًا، جيد جدًا، هذا ما حدث بالضبط جزاء التلاعب، في حين كانت الحقيقة عكس ذلك، فقد بدأ التلاعب عندما أقنع أحدهم السلطان قانصوه الغوري بمحاولة الوقوف على الحياد بين الصفويين في إيران، وبين العثمانيين في الأناضول، مما عجل بزحف سليم الأول على الشام، كما أقنع أحدهم الغوري أيضًا برفض طلب سليم الأول لعقد هدنة مع المماليك، والتسريع بالحرب، كما تم التلاعب أيضًا بستر خيانة خاير بك وعمالته، وجان بردي الغزالي، قائدي ميمنة وميسرة جيش المماليك، في حين كانت الأحداث الحقيقية قد سارت بإعدام الرجلين بأمر السلطان الغوري الذي علم

بأمر خيانتها من رجاله الذين كان قد جندهم في بلاط سليم الأول، والذين كشفوا له مراسلة القائدين لسليم الأول والاتفاق على خيانة الغوري في قلب المعركة.

- هل تعني أن المعركة سارت لصالح المماليك؟

- بالتأكيد، قبل ذلك، كان قد استطاع المماليك، صناعة المدافع الحديثة، والبنادق، وتسليح الجيش بأسلحة أكثر تقدمًا من أسلحة العثمانيين، ثم ما حدث في المعركة هو أن أسند الغوري راية لواء الميمنة إلى القائد جاسر البيروتي، قائد المماليك القراصنة، وأسندت راية الميسرة إلى القائد صفي الدين الناصري، قائد المماليك الجلبان، في حين ظل الغوري في قلب القوات مع مماليكه الخاصة، وحاصروا جيش العثمانيين وانتصروا عليهم انتصارًا مدويًا وطاردوهم حتى دخلوا القسطنطينية، وفرضوا عليهم الاستسلام بعد أن أصبحت الدولة العثمانية تابعة للحكم تحت راية مصر.

- إذًا، وإن كان الأمر كذلك، فلا وجود لمعركة الريدانية من الأساس.

- بالضبط، هذا الحدث برمته دخیل على التاريخ، ولكنه كان نتيجة ترتبت على التلاعب الذي سبقه، كما أسلفت لك الشرح، منطقة الريدانية من الأساس، والتي تُدعى منطقة العباسية الآن بقلب القاهرة، لم تشهد أي أحداث في ذلك العصر، لقد كانت في ذلك الوقت أرضًا صحراوية على مشارف أسوار القاهرة، سهلًا صحراويًا متسعًا أسفل هضبة المقطم، التي كانت بمنزلة البوابة الشرقية

للقاهرة، كانت تحتوي على الجبّانة، وتقام فيها أسواق وتجارة للتجار
الرحّل ولم يذكر التاريخ الحقيقي أي شيء عنها قبل مرور ثلاثمائة
عام على الأقل.

- هذا غريب جدًّا، إذًا فكل ما تلا ذلك من أحداث ترتبط بالوجود
العثماني في مصر وحتى حكم محمد علي باشا كانت أحداثًا ترتبت
على ذلك التلاعب.

- بالضبط، لقد بدأت في استيعاب كيفية سير الأمور، إلا أنه يجب
أن أوضح لك أن كثيرًا من الأمور متداخلة في تلك الحقبة، فالواقع
أن محمد علي باشا لم يكن حاكم مصر وعائلته من بعده، ولكنه كان
مستشارًا للسلطان المصري الأشرف علم الدين، وكبير وزرائه، ولكن
التلاعب في العصر السابق كما أسلفنا هو الذي وصل به إلى سُدة
الحكم في أحداث التاريخ الزائف، والحقيقة أنه إلى حد بعيد، كان
حدثًا جيدًا لم يكن العالم السفلي مُخطّطًا له.

- بالطبع، فقد ترتب عليه إعادة بناء جيش قوي وأسطول كبير،
وعمران ومدنية سلبها أعداء الوطن عبر الزمن.

- هو كذلك بالفعل.

- حسنًا، أعتقد أنني قد بدأت استيعاب الأمور بشكل جيد، لكن
كيف إذًا وصل حكم مصر إلى ممالك سلاجقة غير مصريين.

- أخبرتك من قبل، ذلك الحدث هو نتيجة طبيعية ترتبت على
تلاعب أقدم، في التاريخ الحقيقي كان حكم مصر في ذلك الوقت
لسلطان مصري، كانت الممالك فرقة في الجيش تشكّلت من

الفرسان الذين انضموا إلى الجيش المصري بعد توحيد عديد من دول وسط آسيا، وعلى رأسها الدولة السلجوقية تحت راية المملكة المصرية، لكنّ تلاعبًا قديمًا بالأحداث، قد ترتّب عليه أن اعتلوا الحكم في تلك الحقبة التي نعمل على تدارك الأحداث بها كي لا تؤول بنا إلى أحداث أسوأ منها، وحتى يتم تدارك الحدث الأكبر من منبعه، لأنه كلما كان التلاعب ضارًا في القدم كان تغييره وتداركه أصعب، لما يترتب عليه من نتائج يلزم تكرار العديد منها، إنه أمر أشبه بالمتوالية العددية ومضاعفاتها.

- يبدو أنني سأستغرق وقتًا طويلاً حتى يمكنني الاعتیاد على ذلك.

- لا عليك، كلنا مررنا بما تشعر به، لم يكن الأمر سهلاً قط.

- حسناً، دعنا لا نستهلك وقتًا أطول من اللازم، يمكنك أن تخبرني الآن بما كلّفتني به الهيئة العليا، وأنا أقبل المهمة بغض النظر عن زمانها.

- حسناً، أنصت إليّ جيّدًا، سنبدأ كالعادة بالمهمة الأسهل، والتي لا تبعد كثيرًا عن زمانك، والتي يمكنك بسهولة التأقلم مع لهجة وطباع وحتى ملابس الذين عاشوها، فلنعتبرها نوعًا من التدريب.

- ذلك جيد جدًّا.

- حسناً، ستكون المهمة الأولى، هي تأمين نجاح ثورة ١٩١٩، سأشرح لك سريعًا ما هو مطلوب منك فعله، وأسلمك خرائط أماكن توزيع القنابل التي ستسلّمها للفدائيين، وأخبرك باسم قائد الفدائيين وكيف

يمكنك أن تقابله وتسلمه الخرائط، وكيف تكتسب ثقته، رجاءً،
امنحني بعض التركيز؛ فالبوابة الزمنية سيحين موعدها بعد أربع
ساعات من الآن، ستذهب إلى اليوم السابق للثورة وتمكث هناك؛
حتى تتأكد من اندلاع الثورة ونجاحها دون أي مفاجآت.

- مهلك يا شريف، ليس بتلك السرعة، أنا لم أخبر أحداً، لا أستطيع
أن أسافر وأقضي ليلة خارج البيت دون أن أخبر زوجتي وابنتي.
ابتسم شريف بهدوء وهو يتابع، قائلاً:

- يبدو أنك نسيت ما أخبرتك به من قبل يا سيد نائل، ستقضي
الليلة واليوم الذي يليها في عام ١٩١٩، لكن رحلتك مائة عام تقريباً،
لن تستغرق أكثر من دقيقتين وثلاثة وأربعين ثانية في هذا الزمن يا
سيدي، قبل فتح بوابة العودة.

- هل هذا صحيح؟ أي جنون هذا؟

- صحيح بالطبع.

- يبدو أنني لن أعتاد هذا الجنون بسهولة، وليكن، ولكن أليس من
المفترض أن نذهب إلى موقع تلك البوابة الزمنية التي سأسافر من
خلالها.

- على رسلك يا سيد نائل، أنا هنا معك لأشرح لك كل شيء خطوة
بخطوة، قلت لك من قبل إن الأرض في دورتها حول الشمس تترك
بصمة طاقة كاملة كل لحظة، ولذلك فإنه لا موقع محدد للبوابة،
الأرض كلها بوابة، أي مكان على الكرة الأرضية يمكن السفر من

خلاله والعودة إليه، ما دام ارتديت الحُلة المضادة للجاذبية الزمنية، وقفازاتها وحذاءها وغطاء رأسها، وأحكمت إغلاقها جيدًا لتحيط بكل جسدك، وكل ما تحمله بداخلها، فتتسلخ من الزمن ببساطة شديدة، وتصل إلى الزمن الذي تُحدّده على أداة التحكم بمعصمك، مثل هذا الذي أملكه على خُلتي، تلك التقنية تعمل كأنها مكابح لتأثير تحييد الجاذبية الزمنية، تسافر بك وتوقف التأثير عند التوقيت الذي تُحدّده لها، في الزمان الذي تضبط مؤشرها عليه، ثم تستطيع خلعها عنك عقب الوصول، والأمر نفسه تفعله عند رحلة العودة، الحُلة تُعيد تأثير الجاذبية لكل ما بداخلها في أثناء التنقّل فقط، سأشرح لك آلية عملها والتحكّم فيها وكيفية تشغيلها وإيقافها عن العمل.

- قلت لك إن الاعتياد على هذا الجنون ليس بالأمر الهين.

- هوّن عليك، دعنا نبدأ أولاً في شرح المهمة، فالوقت يداهمنا، أما عن الفترة الزمنية التي ستقضيها هناك، فاسمح لي، سأطلب منك إن أذنت لي قبل سفرك فنجانًا ثانيًا من القهوة وأجلس هنا أنتظر، لتقضي ليلتك ويومك هناك، وربما تعود إليّ قبل أن أرتشف من الفنجان رشفتي الأولى!

دفتر يوميات

كان شريف يرفع كوب القهوة إلى فمه، ليرتشف رشفته الأولى منه، بعد أن هدأت حرارته قليلاً، حين كان نائل يصرخ في حماس شديد، قائلاً:

- هل رأيت هذه الصورة، هذا جنون، من يمكنه أن يصدقني إن أخبرته أنني التقطت صورة تذكارية مع ثوار ثورة ١٩١٩، ومع تمثال سليمان باشا الفرنساوي، الذي لم يعد موجوداً من الأساس، وفي الميدان الذي أصبح اسمه ميدان طلعت حرب، والذي وضع به تمثاله في موضع التمثال الآخر، والشارع الذي سمي باسمه أيضاً، لقد كانت تجربة عجيبة جداً.

أنهى نائل حديثه بحماس شديد، وهو يمسك بهاتفه المحمول، ويعرض الصورة التي التقطها منذ لحظات على شريف، في زمان يفصله عنه أكثر من مائة عام، عقب عودته من رحلته الزمنية الأولى.

بابتسامة عريضة، نظر إليه شريف قبل أن يجيبه، قائلاً:

- أراك تقبلت الأمر إذًا، وبدأت اعتياده.

- هذا جنون بالفعل، ولكنه أمر رائع، لقد قابلت عبد الرحمن فهمي قائد الفدائيين، وسلمته الخرائط، ونجحت معه هو ورفاقه بالفعل في تفجير قنابل الإنجليز، لقد خضت مغامرات عديدة، وكنت حاضراً حين بدأت جحافل الثوار في الهتاف (الاستقلال التام أو

الموت الزؤام)، أنا حقًا أشعر بالفخر، لقد فعلت أمرًا عظيمًا، وإنه لمن العجيب أنني تحدثت وعشت وتعاملت وأنقذت حياة رجال هم في الحقيقة موتى، أتعلم، ربما أكون قد أنقذت حياة جدي دون أن أعرف.

- تجد ذلك أمرًا عجيبيًا؟! ألم يخطر ببالك من قبل يا سيدي، أنني أتحدث أنا الآخر منذ أمس إلى رجل مات منذ ألف عام؟

قَطَّب نائل حاجبيه، مرت لحظات من الصمت قبل أن يجيبه، قائلاً:

- هل تتخيل، لم أفكر في ذلك قط، ولكنك بالفعل على حق، هذا الأمر غريب جدًا، طوال عمري أقرأ كتب التاريخ، أتعرّف إلى الشخصيات والأحداث، كأني أشاهد فيلمًا تسجيليًا، لا أكثر لموت الأبطال أكثر من اكتراثي لموت شخصية بطل فيلم أعلم أنه خيالي، لم أرَ الأمر قط من هذه الناحية، من العجيب أن أكون أنا هذه الشخصية!

- في الحقيقة يا سيدي كلنا أحياء في أزماننا، أموات في زمن أحدهم!

- هذه العبارة بليغة، ولكنها في الواقع مرعبة يا سيد شريف، هل تعرف ما خطر على بالي الآن، إن كنت أحد هذه الشخصيات، وأنا كذلك بالفعل، وبصورة ما غير منطقية، هل تتخيل أنني قد أصبح يومًا ما بضعة أسطر مكتوبة في كتاب، قد يُكتب فيها عني كلمات كاذبة، مزيفة، أو كلمات لا أحبها، لا أوافق عليها، لا أريدها أن تعبر عني، في حين لن يمكنني تغييرها، ستلتصق بي رغماً عن أنفي، الذي

سيكون قد تحوّل إلى تراب، ورغماً عن عقلي وفمي، ولساني الذي لن يستطيع النطق أو الرفض، يا لها من مأساة، هل تتخيل أن أعيش حياتي كلها أؤمن بفكرة وأدافع عنها، ثم يأتي أحدهم ويكتب عني عكس ما عشت حياتي لأجله، فيعرف الجميع ذلك عني، وأنا لا أملك أن أعترض، هل تتخيل أن تعيش حياة حقيقية وتموت، ثم تعيش حيوات عديدة مزيفة في كتب التاريخ، تستقبل اللعنات في كل صباح ومساء، دون أن تمتلك حق الدفاع عن نفسك، هل تتخيل كم أن الكلمات أقوى من البشر، وأطول عمراً؟!

- الكلمات يا سيدي هي التاريخ، هي المعرفة، هي الحضارة، هي الإدراك البشري، حقيقية أو مزيفة، فكيف إن تم التلاعب بها كما ترى، ونتج عن ذلك واقع خاطئ، تم تبديله والعبث به، هذا الذي قلته منذ لحظات يا سيد نائل، هو بكل أسف حقيقة عالماً، أو بالأحرى... زيفه.

- سامحك الله، لم أتيت إليّ؟! كنت تركتني أتصفح صفحات التاريخ الذي أعرفه، دون اكتراث كالجميع، حتى يضحى اسمي مجرد كلمة مدوّنة في وثيقة شهادة وفاة، كم أود أن أغمض عيني وأفتحها فلا أجد لك أثراً، وأستفيق على أن كل هذا الجنون لم يكن سوى حلم!

- عندما تنفتح العيون، وتُجلى البصائر، لا تعود إلى سابق عهدها يا سيدي.

- بكل أسف، أنت على حق.

- حسناً يا سيد نائل، كانت بالفعل لطيفة جداً تلك الصورة التي

التقطنتها، ولكنني يجب أن أخبرك أن ذلك غير مسموح به، لا بد أن يحاط ما نفعله بسرية تامة، لا ينبغي أن يكون هناك أي شيء يدل على رحلاتنا على هاتفك أو في أي مكان آخر، ينبغي أن تحذفها فورًا، ولا تنس أن كل ما تفعله تسجّله الهيئة العليا كما أخبرتك.

- ولكن.. ولكنني أرغب بشدة في الاحتفاظ بتلك الذكريات.

- ليس ذلك مسموحًا بكل أسف، الذكريات تبقى في العقول يا سيدي، وفي القلوب، لا تغادرها أو تنفصل عنها، عندما تنسلخ منها وتحوّل إلى كلمات أو صور، تصبح مروية لا ذكرى، يصدّقها البعض ويكذبها البعض الآخر، ولا يكثر لها الجميع كما أسلفت.

- ولكنني ما زلت حيًّا، نحن نعيش هنا في زمانني، أنا لم أمت بعد، ولديّ تجربة وذكريات ينبغي أن أخبر اللاحقين عنها، قبل أن ينتهي بي الحال لأن يكتب عني أحدهم ما لا يعبر عني، الفرصة بيدي الآن، أنا لست سطرًا في كتاب تاريخ، أنا لحم ودم، أتنفس وأحيا، لا أريد أن أضيع هذه الفرصة بعد أن أدركت ما قد يشعر به الموتى في قبورهم، لا أريد أن تصرخ عظامي البالية لتخبر الناس بما كنت عليه، ولا يسمعها أحد.

- وهل تظن أنك إن فعلت، سيصدقك أحد، أو يكثر لصرخات عظامك، إن كتبوا عنك أنك الرجل الصالح، أو الرجل الفاجر، هل يُحيي ذلك العظام الرميم.

- لن يُحييها سوى من خلقها يا شريف، أعلم ذلك، ولكن كيف نترك أنفسنا هكذا، كيف نميت الأفكار والذكريات بداخلنا؟!

- القبور تمتلئ بالأفكار والذكريات الميتة يا سيدي، كل كومة من العظام تحت التراب مخزن للأفكار والذكريات والمشاعر، هذا ما يجعلنا بشرًا، وليس اللحم أو العظام، أنت مجرد عابر آخر لهذه الحياة، وأنا كذلك وكل شخص عاش من قبل، مليارات الأفكار والذكريات والمشاعر على مر التاريخ تسبح في الفضاء، ويوارى عليها التراب، هذا ما نحن عليه يا سيدي.

- من أي بئر مظلمة أتيت بتلك الكلمات يا بني، حتى إن كانت حقيقة الحياة كذلك، فانية، لا تساوي الاكتراث لها.

- من الارتحال عبر الأزمان يا سيدي، من التحدث مع الموتى طوال الوقت، من رؤيتي للمعانٍ أعينهم، وسماعي لأحاديثهم عن الأحلام والطموحات، وعن الحب، والجمال، والشجن، من كل ما رأيته وعاينته من أشخاص أعلم أن حياتهم قد انتهت وأصبحت ذكرى لا يكثر ث لها أحد بعد مئات وآلاف السنين، من كل جسد احتضنته بحرارة في الوداع، وأنا أعلم أنه استحال إلى رفات وتراب تحت أقدام العامة في الطرقات، صدقني يا سيدي، لا يختلف تراب الطرقات كثيرًا، ولا يمكنك أن تميز إن كان ما تخطو عليه قدمك يعود إلى سلطان أو إلى خادمه، كل التراب متشابه، أنت نفسك يا سيد نائل، هل يمكنك أن تخبرني، في زماني، وبعد ألف سنة من الآن، هل سيعرف أحد شيئًا عن كل ما تعانيه أو تخبرني به الآن، هل سيعرف أحد إن كان عاش منذ ألف سنة شخص مناضل شجاع عظيم، اسمه نائل من الأساس.

- يا لقسوة كلماتك يا رجل، وإن يكن، هل يعني ذلك أن أدفن عقلي

وقلبي لم يزل نابضًا، هل أتحول إلى تراب وأنا ما زلت على قيد الحياة.

- لا يا سيدي، بل يعني فقط أن تعرف أن عقلك وذكرياتك وأفكارك هي ملك لذاتك، وأن تدرك أن ذاتك هي العالم الكبير الذي يجب أن تبحث عنه، وتقدره، وتكتفي به عن كل شيء عداه، أطمح لأن يعرف عنك كل من ينتمي إلى ذلك العالم، ويقدر ما مررت به من تجارب، ويشعر بالفخر لها، ذاتك هي عالمك، وعقلك هو محيط كونك، وذكرياتك هي كتاب تاريخه الذي يخصك وحدك، ومشاعرك تلك هي كل إبداعه.

- يبدو أن الحكمة لا ترتبط بالعمر كثيرًا، حسنًا، أعدك، سأفكر في هذا الأمر.

- حسنًا، دعني أغادر الآن فأنا أعلم أنك مرهق جدًا من قضاء الليلة السابقة مع الثوار، وعلى كلٍّ، لم يتبقَّ سوى دقيقة واحدة على عودة زوجتك من العمل، رجاءً، يجب أن تخفي تلك الحلة التي ترتديها الآن قبل أن تصل.

- أنت على حق، ثواني وأعود إليك.

لم يكد نائل يخلع حلته ويخفيها في خزانة الملابس، حتى كانت أحلام تفتح باب الشقة وتدلف من خلاله، ألقت السلام على شريف، قبل أن يستأذن في المغادرة، دلفت إلى غرفة المكتب وجلست أمام نائل وهي تبدأ الحديث، قائلة:

- ما قصة شريف هذا يا نائل؟ هذا اليوم الثاني على التوالي الذي

يجلس معك طوال النهار.

- لا شيء يا عزيزتي، إنه كما أخبرتك من أقربائي من البلد، ويريد مني أن أراجع رسالته للماجستير، وأدققها له لغويًا، أنت تعرفين (العشم)، ولا يمكنني أن أردّه خالي الوفاض.

- دمت سندًا وعودًا للناس يا نائل، ولكن ما بك يا عزيزي، أراك مهمومًا؟

- كم اشتاق إلى سؤالك عن أحوالي يا أحلام، أنا أفتقدك جدًّا، لا أجذك أبدًا، كل وقتك في المشفى ومع المرضى، أشعر بالوحدة بعيدًا عنك.

- كيف هذا، لم تشعر بذلك، حديثك هذا يحزنني جدًّا، أنا هنا بجوارك دائمًا، لا يمكنني أبدًا أن أنشغل عنك أو أتركك تشعر بالوحدة.
- لا عليك، أنا فقط منشغل البال قليلًا.

- وما يشغل بالك يا حبيبي؟ (فضفض لي) لا تكتم بداخلك شيئًا، أنا أمامك وكلي آذان مصغية.

- حقًا؟

نهضت أحلام من على المقعد المواجه له، جلست بجواره على الأريكة وربّتت بيدها على صدره، وهي تتابع، قائلة:

- بالطبع يا حبيبي، هيا أخبرني بما يشغل بالك؟

- هل تعتقدين يا أحلام أن ذكريات الإنسان ومشاعره وأفكاره، يجب أن تدوّن بمعرفة صاحبها ليعرفها الناس عنه بعد رحيله كما كان يشعر بها، أم يترك ذلك لشخص آخر يكتب عنه ما يظن أنه يعرفه عنه، يكتب ربما وجهة نظره فيه، ورأيه عنه؟

- هذه معضلة فلسفية يا عزيزي، هل الشخص هو ما هو عليه أمام الجميع، أم ما يظن نفسه عليه، أعني هل ينبغي أن يكون الحكم على الشخص للناس أم له هو نفسه.

- هو نفسه بالطبع.

- تلك وجهة نظر يا عزيزي، ربما كانت الصواب، ولكن هناك وجهة نظر أخرى تقول إن الحكم على الناس يكون بما نعاينه منهم ومن أفعالهم، وإلا كان كل شخص كتب عن نفسه أبياتًا في مدح ذاته، لا أحد يحب أن يكتب عيوبه يا نائل، الجميع سيكتب عن المزايا كأنهم قد أصبحوا ملائكة تسير على الأرض.

- أظنها معضلة فعلاً، ولكن حتى إن كان الأمر كذلك، فإن لكل شخص ما يمكن أن يرويّه عن نفسه من أحداث وتجارب وذكريات، بعيداً عن المزايا والعيوب لشخصيته.

- هذا على الأغلب ما يُدعى كتابة المذكرات، أو اليوميات التي يكتبها المشاهير من الناس، رجال السياسة أو الأعمال، أو أصحاب التجارب المُلهمة في الحياة.

- ولماذا يقتصر ذلك عليهم وحدهم، كل شخص على هذه الأرض يمتلك ما يستحق الحكى، بالنسبة إليه على الأقل، البسطاء والعامة،

الفقراء والمساكين، كل شخص عادي، يمتلك عقلاً يخزّن فيه عديدًا من الأحداث والتجارب والآراء والقناعات والذكريات، لحظات الحب والفرح والفخر والنجاح، لحظات الانكسار والحزن والفشل، كل شخص يمتلك حياة كاملة، إنها ذكريات معتبرة، إنها أغلى ما يملك، لماذا لا يدوّنها.

- لأنه لا أحد يكثرث يا عزيزي.

- أنت أيضًا تقولين ذلك.

- ماذا تعني بأنّ أيضًا؟

- شريف أيضًا قال لي نفس الكلمة، لماذا لا يكثرث الناس، كل شخص يكثرث كل الاكتراث لقصته، لماذا لا يدرك أن هناك عديدًا من القصص لباقي البشر، ليس من الضروري أن يكون صاحبها رجل أعمال أو سياسيًا أو ملهمًا، المهم أنه بشر، من لحم ودم، يمتلك حياة ومشاعر وأحاسيس، يمتلك ذكريات وتجارب، عمرًا طويلًا من الأحداث التي بسهولة شديدة، يطبق عليها حجر من الرخام وشاهد يحمل اسمًا، ثم ما يلبث أن يصبح نكرة لا يعرفها أحد، ثم بعد سنوات يُهدم هذا القبر وتُلمَم تلك العظام البالية ليتم إنشاء طريق جديد.

- حسنًا يا عزيزي، سيكثرث من يهتم لأمرك فقط، هل تُرضيك هذه الصيغة.

- صدقًا لا أعرف، ربما كانت أكثر قسوة، يكثرث من يهتم لأمرى فقط، يا لها من معضلة، أن يعيش أحدهم ويمتلك من الأفكار

والقناعات والمشاعر والأحاسيس، بل والآلام والأحزان الكثير، يمتلك ما يستحق الحكي، يمتلك تجربة فريدة، أو علمًا نافعًا، ويصرخ فيتشتت صوته في الفضاء؛ لأن لا أحد يكثرث بمعاناته سوى من يهتم لأمره، هذا ظلم، وقسوة، ما فائدة الحياة إذا إن كان مصيرنا هو النسيان؟!

- هون عليك يا عزيزي، كثير من أحبائك وتلاميذك يكثرثون بحياة أستاذ كبير مثلك، أنا على يقين بأنك تمتلك كثيرًا من التجارب التي يرغبون في معرفتها والتعلم منها، وأراها فكرة جيدة جدًا.

- أي فكرة؟

- أن تكتب يومياتك يا عزيزي.

نظر إليها مطوّلًا، طال الصمت عندما التقت عيناها بكلمات كثيرة، قطع لقاء العيون صوت منيرة وهي تفتح باب الشقة وتدلف إلى داخلها، نظرت أحلام ناحيتها، قبل أن تربّت على صدر نائل في صمت، وتبتسم له وهي تنهض من جواره في صمت، وتدلف إلى غرفتيهما، في نفس اللحظة التي كانت تقف فيه منيرة غاضبة في وسط القاعة وهي تنظر إلى نائل، قائلة:

- مجددًا يا أبي، لم تتناول الإفطار؟!!

الصفحة الأولى

"القاهرة في ١٧ نوفمبر ٢٠٢١

هذه هي شهادتي للتاريخ، كما أعرفه وكما عشته وعاصرت أحداثه.

هذا هو كتابي أنا نائل وحيد عبد الدايم سويدان.

المولود في القاهرة في العام ١٩٥٢ في ضاحية عابدين.

في أولى مدوناتي عما كان من حياتي، وما هو كائن فيما تبقى من أيامي، في ماضٍ وحاضر ومستقبل الزمان.

ربما يمكنني أن أطلق عليها... أحلامي التي طالما تمنيت تحقيقها.

ربما لو تحولت تلك المدونات يومًا ما إلى كتاب، لأطلقت عليه اسم (أحلام نائل سويدان).

لا تتعجب يا قارئ هذه المذكرات، فما تبقى لي من العمر لم يكن مستقبلًا فقط، بل تخلّله بعض الأحداث الماضية عن زماني أيضًا، مثلما أن مستقبلي الآن كله كان ماضيًا لك. فأنا المسافر عبر الأزمان، المرتحل بين بوابات الأبعاد، الجندي المخلص لهذا الوطن، المدافع عن ماضيه وحاضره ومستقبله.

في هذه الصفحات ستجد التاريخ المسكوت عنه، والحقيقة المخفية، في اختلاف الأيام وتعاقب الأحداث، وتبدّلها من حالٍ،

إلى أحوال وأحوال.

وإنني قبل أن تشرع قي القراءة، أؤكد لك بكل صدق وأمانة للسرد، أن ما ستقرأه من أعاجيب في رحلتي هي حقيقة لم يشبها أي خيال، أو يتخللها أي مبالغة، أو يمسها أي كذب وادعاء، بل هي حقيقة دامغة شهدتها وعاينتها بأم عيني، وأشهد عليها. فأرجوك صدّقني، وحرّر عقلك، فكلما تي تلك إنما هي شهادة للتاريخ. ذلك التاريخ الذي لا أعلم كيف سيصل إليك، وبأي أحداث ستعرف عنه، لقد كنت شاهداً على تبدل أحداثه التي عرفتھا طوال عمري، ولا أتعجب إن تم تبديلها في زمانك، لذلك فاسمع مني، وتعلّم، وبلغ رسالتي، لعلها تكون منجية لك ولسائر الناس، إذا ما دارت الدوائر وتبدلت الأحوال، وتضافر الأعداء على النيل بكم.

اقرأ كلماتي، كأنني أهدي إليك سبيل النجاة، وعندما تلمس قلبك وتستقر بعقلك، رجاءً، اكتب عني، بلغ الناس ما بلغتك إياه في رسالتي إليك، لا تترك عظامي تبلى وتندثر، وتندثر معها حكاياتي.

فلندع ذلك عهداً بيني وبينك. وإن لم تقبل العهد، وإن لم تجد في كلماتي إفادة، فربما تجد فيها عظة، وعبرة من رجل عجوز، يبدو أنه أخيراً فهم معاني الحياة، وأدرك هوانها.

لذلك يا بني، رجاءً، دعني أضع في تلك الأوراق، ما يمنحني الحياة بعد الموت.. الكلمات.. التي هي أطول عمراً مني...

وإن أذنت لي، أحببت أن أبدأ السرد بقصة حياتي وحياة من أحب في بضع صفحات قليلة، حتى أمنحهم فرصة تخليد

ذكراهم".

أنهى نائل كتابة السطر الأخير من مقدمة يومياته، وطوى الدفتر ووضعه على المكتب، في اللحظة التي كانت تدخل عليه أحلام،
قائلة:

- يبدو أنك استمعت إلى نصيحتي.

- نعم يا عزيزتي، على الأقل سأفعل ما يجب عليّ فعله، لكي أرحل وأنا راضٍ عن أنني تركت شيئًا يخبر الناس عما فعلته في حياتي.

- أ طال الله في عمرك يا حبيبي!

- لكنني سعيد جدًا أنني أراك في هذا الوقت من اليوم، اعتدت وجودك في العمل دائمًا طوال النهار وحتى ساعات متأخرة من الليل، أنا افتقدتك جدًا يا عزيزتي.

- أنا دائمًا معك يا حبيبي، لكنك تعلم جيدًا، هذا الأمر ليس بيدي.

- حسنًا، دعنا من ذلك الآن، هذه فرصة لا تتكرر كثيرًا، ما رأيك أن أدعوك أنت ومنيرة للعشاء، على الأقل حتى نحاول كسر جمود العلاقة بينكما في الفترة الأخيرة.

نظرت إليه بحزن، وهي تردف إليه، قائلة:

- أنت تعلم أن جمود العلاقة ليس وليد اليوم أو الآونة الأخيرة يا نائل.

- وماذا بعد، هل سيظل الأمر كذلك؟ لم أرَكما تتبادلان الحديث

منذ سنوات، لا أتذكر منذ متى وأنتما في هذه الحالة، إنها ابنتنا يا أحلام، مهما كان الوضع أو مهما كان ما تظنه هي، ينبغي أن تحتويها وتُشعريها بحنان الأم.

- أنا لم أفعل شيئًا طوال عمري غير محاولة احتوائها يا نائل، أنت تعلم ذلك، أنا أكثر حزنًا منك على هذا الوضع بيني وبينها، لم أرد لذلك أن يحدث قط، حتى على الرغم من أنها تعاملني بجفاء منذ كانت صبية وتبتعد عني وتتجنب التعامل معي، فإنني أحبها وأشعر أن جفاءها كأنه نصل حاد يُغرس في قلبي، أنت تعلم جيدًا أنه لم تفلح معها أي محاولات من قبل، وفي الوقت الذي رغبت فيه أن تصبح كصديقتي، ها هي تبتعد عني أكثر من أي وقت مضى، أنا لا أعرف ماذا أفعل معها، وأموت كل يوم حسرة على ضياع ابنتي مني، إنها تُشعرنني بالفشل والعجز كام.

تسلّلت دمعة من عيني أحلام في حين حاولت التماسك والابتسام رغمًا عنها، لكنها لم تستطع فأنفجرت في البكاء. نهض نائل من على مقعده، احتضنها، ربّت على كتفها، طبع قبلة على جبينها وهو يُمرّر أصابعه بين شعرها، قبل أن يردف إليها، قائلاً:

- هوني عليك يا حبيبتي، يومًا ما ستعلم كم تحبينها، يومًا ما ستكبر وتعرف كل شيء، وتفهم مشاعر الأب والأم تجاه أبنائهما.

- ومتى برأيك يأتي مثل ذلك اليوم، هل يأتي في حياتي، أم بعد موتي، وماذا سيفيد إن متّ وهي تكرهني، هل سيفيدني حبها وتفهمها في ذلك الوقت، لماذا تعذبني ببغضها لي طوال حياتي، لماذا

تفطر قلبي كل يوم وأنا أتمنى أن احتضنها في حين تبتعد عني؟!

- لا تفكري بهذه الطريقة يا عزيزتي، ولا تنطقي هذه الكلمة، هل تعتقدين أنني أستطيع العيش يومًا واحدًا دونك؟!

- أدامك الله لنا جميعًا يا حبيبي! ولكنك تعلم أننا كان لزامًا علينا أن نتدارك ما رأيناه عليها من مشكلات نفسية منذ الصغر، نحن من لم نتعامل مع الأمر بجدية من البداية، أنا أخشى عليها من نفسها، وهذا ما آلت إليه الأمور كما ترى، الله أعلم بما تفكر به أو تفعله بما تمتلكه من قناعات أو تفسيرات لعلاقتنا بها.

- هوني عليك يا دكتورة، لا تثقحي الطب في كل شيء، إنها ابنتنا وليست إحدى مرضاك، وأنا أعرف كيف ربّيت ابنتي.

- لن تقتنع بكلامي أبدًا، حسنًا، أرجوك دعنا نغيّر هذا الموضوع.

- ولم نغيّره، دعيني أناديها ونحاول تحسين الأحوال.

- لا ترهق نفسك يا عزيزي، لقد ذهبت منيرة لحضور حفل زفاف صديقتها، يبدو أنك نسيت أنها أخبرتك قبل أن تخلص إلى النوم عصرًا.

- فعلاً، لقد نسيت تمامًا، ولكنه فال حسن، يبدو أننا لن ننتظر وقتًا طويلاً قبل أن نحضر حفل زفافها هي الأخرى.

- منيرة؟!

- نعم يا أحلام، ابنتك على ما يبدو تعيش قصة حب.

- حَقًّا؟ كيف علمت بذلك؟ ومن يكون؟

- أنا لم أعرف منها، لم تخبرني بشيء، ولكنني أعتقد أنها تحب ذلك الكاتب الذي تملأ البيت برواياته.

- كاتب، أي كاتب؟ عز الدين الأحمدى؟

- نعم هو.

- وكيف هذا؟ أتقصد أنها تحبه من كتاباته، هذا حب صبياني، هذا يليق بمراهقة يا نائل.

- لا ليس كذلك، بل أعتقد أنها تحبه هو نفسه، وتلتقي معه، أنت بالطبع لا تتعاملين معها كثيرًا، لكنني أرى تغييرًا كبيرًا في حالتها النفسية، كما أنها قد أصبحت تهتم كثيرًا بهيئتها، وزينتها، وتنتقي ألوان ملابسها جيدًا، لم تعد ترتدي ألوانًا قاتمة أو ملابس سوداء كما كانت تفعل في الآونة الأخيرة، كما أصبحت أكثر مرحًا وحيوية.

- هذا أسعد خبر سمعته في حياتي، كم كان أمر زواجها هذا يؤرقني ليل نهار! أضف إلى ذلك أنني لا أستطيع معرفة خباياها كأي أم في علاقة طبيعية مع ابنتها.

- سيتغير كل هذا، أنا واثق، ابنتنا تكبر وتزداد تعقلًا كل يوم، وسرعان ما ستفهم أنك تحبينها، وتندم على ما كانت تفعله معك طوال عمرها.

- أتمنى ذلك يا نائل، وحتى إن لم يحدث ذلك قريبًا فأنا سعيدة جدًا بما أخبرتني به الآن.

- حسنًا، إن كان الأمر كذلك، دعيني أستغل سعادتك تلك التي أفتقدتها منذ زمن بعيد وأدعوك إلى عشاء رومانسي على ضوء الشموع، سأحضر لك أنا العشاء، ألا تشتاقين إلى ليلة رومانسية من الأيام الخوالي.

- كنت أتمنى يا حبيبي، يبدو أنك نسيت أيضًا موعد مائدة العشاء التي دعونا إليها أصدقاءك الأستاذ فكري، والمستشار فاروق، وزوجتيهما: عفاف، وخديجة.

- يا لذاكرتي اللعينة! لقد نسيت بالفعل، وماذا نفعل، ينبغي أن نُعد مائدة تليق بالعشاء الذي وعدناهم به.

- لا عليك يا نائل، كل شيء مُعد بالفعل، لقد أعددت كل الأصناف وأنت نائم، حتى لم أرد قطع استرسالك عندما رأيتك تكتب في دفترك، وأنت لم تشعر بي.

- حقًا؟!

لم تكذ أحلام تُنهي كلماتها حتى رن جرس الباب. وما هي سوى لحظات حتى كانا يجلسان على المائدة مع ضيوفهما، يتبادلان أطراف الحديث.

اليد السوداء

الرحلة السابعة..

حللت بمنطقة الأزبكية، في الثامن من مارس، عام ١٩١٩، كان وقت الظهيرة، في حين كان بالسماء كثير من الغيوم. لم أتبين إن كانت هذه الغيمة السوداء قادمة من الشمال، من جهة إنجلترا أم من جهة القصر الملكي.

لم تكن مهمتي عسيرة، ناهيك عن أنها المرة السابعة التي أنجزها فيها، كانت المرة الأخيرة، التي نضمن بها وقوع الحدث من تكراره في الأبعاد، لذلك فقد تحرّكت على الفور، كنت قد حفظت موقع الشقة التي كان يجتمع بها أعضاء جمعية الفدائيين، أو ما كانت تُعرف باليد السوداء، كانت تقع ببدروم بناية في شارع جانبي ضيق، متفرع من شارع القصر العيني، في منطقة قريبة من ميدان الإسماعيلية، أو ما أعرفه أنا في زماني باسم ميدان التحرير. كنت أعرف مسبقًا، موعد اجتماع الجمعية، لبحث ما يجب على كل فرد منهم فعله لتأمين مظاهرات الغد التي كانوا قد دعوا الشعب إليها.

سرتُ بخطوات هادئة حتى وصلت إلى البناية، تلفتُ حولي، حتى تأكدت ألا أحد يتبعني، هبطت الدرج، وطرقت الباب، سادت فترة من الصمت، قبل أن يفتح لي شاب صغير الباب، مدعيًا النوم، متصنّعًا التثاؤب، في تمثيل غير متقن، كنت أعرف اسمه جيدًا من زياراتي السابقة، بادرته بالحديث، قائلًا:

- أنت حسن ياسين على ما أعتقد، رئيس اتحاد الطلبة بجامعة

القاهرة، وأعلم يا بني أن الجميع بالداخل، أنا نائل سويدان، شريك لكم في العمل الوطني، وأرغب في الحديث مع السيد عبد الرحمن فهمي فورًا لأمر مهم وخطير جدًا على أمن الثورة وسلامتها في الغد.

أصابت كلماتي حسًا بالذهول، لم يعرف ماذا يفعل، تسمر في مكانه، قبل أن تزيحه عن الطريق يد رجل، وتشهر في وجهي مسدسًا باليد الأخرى. ابتسمت بهدوء في وجه الرجل، وأنا أتابع حديثي، قائلاً له:

- فرصة سعيدة مقابلتك يا أحمد ماهر أفندي، لا داعي لإشهارك هذا السلاح في وجهي، نحن رفاق درب واحد، عندي لكم أخبار خطيرة جدًا عن اعتزام الإنجليز إحباط مخطط الثورة لباكر، وتكبيد المقاومة خسائر كبيرة جدًا، ينبغي ألا نضيع الوقت في التعارف، أو الشك، لا وقت لدينا، أريد مقابلة عبد الرحمن فهمي فورًا.

أتاني صوت رخيم، من خلف الباب يقول:

- من أنت أيها الغريب؟

- سعيد بسماع صوتك يا عبد الرحمن أفندي، أنا كما قلت لحسن، اسمي نائل سويدان، وأنا مبعوث إليك برسالة، تحوي خرائط لأماكن وجود عديد من القنابل والمتفجرات التي سيتم تفجيرها في جحافل الثوار غدًا، لإجهاض الثورة.

وضع يده على يد أحمد ماهر، الذي خفض فوهة مسدسه عن وجهي، وهو ينظر إليّ بريبة قبل أن يقول: "وإن كنت جاسوسًا

علينا"، قلت له "اقتلني"، نظر إليّ بعينين كعيون الصقر ثم ما لبث أن أشاح بوجهه عن وجهي ونظر إلى الفضاء من خلفي متفحصًا، قبل أن يسألني بصوت خافت: "هل تبعك أحد؟" قلت له: "لا، لقد تأكدت جيدًا"، فأشار لي بيده للدخول.

جلست معهم على مائدة مستديرة، تحيطني نظرات الشك والريبة، في حجرة خالية من الأثاث تقريبًا، مغلقة النوافذ تمامًا، منسدلة الستائر، يتدلّى من سقفها مصباح خافت الإضاءة.

طفت بعيني سريعًا في الأرجاء.. في أحد الأجناب كانت هناك ردهة تطل على رواق به بابان، الأول كان لغرفة يصدر منها صوت معدني مكتوم، في تكرار متتابع، عرفت أنه صوت آلة طباعة كلاشيه يدوية قديمة يطلق عليها (بالوظة)؛ حيث كان يقوم الفدائي عبد العزيز علي، بالإشراف على مجموعة من الفدائيين بالغرفة، في أثناء طباعة آخر المنشورات التي من المقرر توزيعها للدعوة لمظاهرات باكر، في حين كان بالغرفة الأخرى والأخيرة، ثمة أجولة وبراميل من المواد الكيماوية التي تفوح رائحتها، لتملأ الشقة بأكملها، وعديد من المواسير المعدنية، وبعض البنادق القديمة والمسدسات.

بدأت الحديث، عندما كانت تلاحقني العيون المرتابة، بكلمات سريعة أخبرتهم فيها بكل خطط الإنجليز، وبكل تفاصيل الأماكن التي كانت تخزن بها القنابل في أماكن التجمعات وخطوط سير المظاهرات، فضضت الخريطة التي كنت أحملها في طيات خلتي عتيقة الطراز، التي كنت أرديها تحت حلة السفر عبر الزمن، بعد أن خلعت الحلة الزمنية فور وصولي لهذا الزمن وارتيديتها تحت ملابس

في أحد الحمامات العامة.

وضعت الخريطة على الطاولة المستديرة، ورحت أشرح عليها، كأنني فدائي متمرس أو زعيم وطني، كانت العيون منتبهة إلى ما أقول في حين العقول هائمة في معرفة شخصيتي، لم يتبق سوى شيء واحد لأخبرهم به، من أنا؟ ومن أين أتيت؟ وكيف عرفت هذه المعلومات؟

كان هذا أصعب ما في الأمر، بدأت بالإيضاح، بين نظرات الريبة والشك، والدهشة، أو التفكير في جنون المتحدث، كان يبدو الأمر كأن كل الحجج التي كان يمكن أن تقال -عدا حجتي- كان يمكن أن تصبح منطقية قابلة للتصديق.

لم أمهلهم كثيرًا، عرضت ملفات الهولوجرام واحدًا تلو الآخر.

ساد الصمت، والحنق، والدهشة، لم يكن أيهم يعرف ماذا يفعل، حتى أنهى ذلك الجدل عبد الرحمن فهمي، حين قال:

- أنا لا أصدق كل هذا الدجل، كأنه فيلم مما يُعرض في السينما لكنه ملوّن وناطق، ويجعلني أشعر كأنني في قلب الأحداث، وهذا غريب، لكن المعلومات خطيرة إن ثبت صحتها، لذلك فلا أعتقد أنه يمكننا المغامرة بعدم الالتفات إليها، حتى إن كان أمر السفر عبر الزمن هذا خدعة منك أيها العجوز.

بكل تأكيد لم أكن أنتظر منه التصديق ببساطة، لكنني كنت أنتظر فقط أن يتجاوز أمر السفر عبر الزمن ويمنح التركيز الأكبر لخطورة الأمر، سعدت بما قاله، ابتسمت رغماً عني، كأنني أتنفس الصعداء بعد

اجتيازي لاختبار صعب، لم يسعني حينها سوى أن أجيبه، قائلاً:

- هذا جيد، دعك مني أنا بالله عليك، والتفت إلى مصلحة الوطن.

نظر إليّ مطوّلاً، اعتقدت أنه يسمع دقائق قلبي في تلك اللحظة، وأنا أتصنّع الثبات واللامبالاة، قبل أن تجمععه مشاورات عديدة مع باقي أفراد التنظيم، في النهاية أشار إليّ بيده وهو يقول:

- اسمع يا نائل أفندي، سنأخذ كلامك على محمل الجد، لكنك ستصبح تحت مراقبتنا منذ هذه اللحظة، وحتى يتم تأكدنا من صدق ما جئت به.

- أنا موافق، لا مانع عندي أبداً.

- حسناً، ستشاركنا كل ما سنفعله في هذه الليلة، وحذار أن تكون خائناً.

- أنا مثلك تماماً، ومثل كل فرد هنا، أدافع عن وطني يا عبد الرحمن أفندي، لا تصفني بالخائن من فضلك.

- فليكن، على كل حال سنرى.

أشاح بوجهه عني، وهو يرفع صوته ينادي شخصاً بالحجرة المجاورة، كان اسمه سيد محمود، كان شاباً نحيلاً، قمحي اللون أجعد الشعر، يرتدي نظارة طبية مستديرة العدسات، عرفت أنه طالب في كلية العلوم بجامعة القاهرة، أتى سيد إلى الغرفة، دار بينهما حوار حين بادره عبد الرحمن بالسؤال:

- كم لدينا من القنابل المعدة يا سيد أفندي؟

- اثنتان فقط.

- قبلتان فقط، هذا لا يكفي أبدًا، أنا أريد أن أجهّز الآن ثلاثين قبلة على الأقل.

- هذا العدد كثير جدًّا، لا أملك الإمكانيات اللازمة التي تكفي لكل هذا العدد، لديّ ما يكفي من كربونات البوتاسيوم، وحمض الكبريتيك، لكن ينقصني التراي نيترو فينول، وبعض المواسير المعدنية أيضًا.

- حسنًا، كيف يمكن أن نوَقِّر لك احتياجاتك من هذا... الفينول، أو أيًّا كان اسمه؟

- يمكنك أن تبعث أحد رجالنا إلى بعض تجّار المواد الكيماوية بالوكالة، سأعطيك بياناتهم، قل له يسألهم عن حامض البيكربك، إنهم يعرفونه بهذا الاسم.

- حسنًا، عظيم، وأنا سأدبر لك أمر المواسير، ابدأ إذا من هذه اللحظة في العمل، أريد أن تنتهي من التصنيع قبل حلول الليل.

- أمرك.

ذهب سيد أفندي محمود، وأنا جالس كالتمثال أشاهد بعيني العمل الدائر داخل خلية سرية من الفدائيين، بدا لي الأمر كأنني أشاهد فيلمًا تسجيليًا عن العمل الوطني في العصر الحديث، كان عبد الرحمن لا يتوقف عن إصدار الأوامر يمينًا ويسارًا، مثلما لم يكن يتوقف عن التدخين، كلّف البعض بالتجهيز لحمل قبلة أو قبلتين

والسفر بهما لملاقاة فدائي اسمه أسعد مشرقي، بمديرية أسيوط، لتنفيذ تفجير مخزن الإنجليز في الصعيد. كلف آخر بملاقاة الفدائي عبد الوهاب البرعي بمديرية الغربية، والفدائي محمد حلمي الجيار بمديرية الدقهلية، والحاج أحمد رمضان زيان بالإسكندرية.

في حين طلب من أحدهم أن يذهب سريعًا ليستقدم الحاج أحمد جاد الله وزوجته، مؤكدًا عليه أن يخبره بضرورة إحضار عدد ثلاثين أو أكثر من (السجائر المكنة)!

لم أفهم شيئًا، كذلك أوصاه أن يحضر جلبابًا معه، لم أفهم أيضًا حتى وصل الرجل بالفعل بعد دقائق وبصحبة زوجته. كانا عجوزين مثلي تمامًا، لم أتبين عمرهما لكنه كان بالتأكيد يقترب من عمري، كان والحق يقال من الغريب مشاهدتهم في وسط كل هؤلاء الشباب، الحاج أحمد جاد الله، شيخ كبير، تتدلى لحيته البيضاء أسفل شاربه، يتعمم بعمامة ثشي بأصله الذي ينتمي إلى قرية ريفية، وزوجته التي كانت ترتدي عباءة سوداء، وبرقعًا أبيض على وجهها.

فضّ الحاج ما كان يحمله من جوال، فإذا بالسجائر (المكنة) لم تكن سوى مواشير تصنيع القنابل البدائية، علمت بعدها أن الحاج أحمد، كان سمكريًا بإحدى ورش الترسانة البحرية، وكان المسؤول عن تصنيع المواشير بورش الترسانة وتوريدها للفدائيين.

نظر عبد الرحمن إليّ وهو يقدّم إليّ الحاج وزوجته، ويقول:

- الحاج أحمد سيصاحبك منذ هذه اللحظة، وتحت مراقبة باقي الفدائيين بالتأكيد، لكنك ستصاحبهم في جميع رحلاتهم.

أومات له برأسي وأنا أمت شفتي، ولا أفهم شيئًا.

بعد ساعات، كنت أرتدي الجلباب المتهرئ الذي جلبه من أجلي الحاج أحمد، وأسير أنا وهو خلف زوجته، التي كانت للعجب، قد بدلت من هيئتها، وارتدت ملابس امرأة غجرية، وكشفت عن وجهها ليظهر عليه وشم من عدة خطوط طولية أسفل ذقنها، وهي تسير حاملة (مشنة) كبيرة من الخوص، مغطاة بقطعة من القماش يختفي تحتها كمية من الرمل وبضعة أصداف بحرية، وهي تنادي بصوت ساحر، وتقول:

- أبيت زين أبيت.. وأشوف الودع... أبيت زين... وأقول ع المستخبي... للشابة وللجدع!

من الغريب أن المصريين كانوا يعزفون عن رؤية الطالع، كأنهم كانوا على دراية مسبقة به! في حين كان أغلب الزبائن الذين أوقفونا من عساكر الإنجليز. الغريب أيضًا أن الحاج أحمد كان يُحسن ترجمة ما تقوله لهم زوجته من هراء! في الحقيقة كان الهراء هو ما يلقيه هو عليهم من ترجمة لا تفت لما تقوله زوجته بصلة!

كانت الترجمة لا تزداد على بضع كلمات إنجليزية ركيكة، من عينة (فيري جوود) و(إكسترا) مغلفة بعشرات الكلمات العربية التي يفهمها العساكر بحكم الخبرة، على أن تنتهي جميع الترجمات بجملة واحدة، (جيف ات ماني يا خواجه)!

شعرت حينها بالأسى، لأن ينتهي بي الحال تابعًا لصعلوك متسول وامرأة أفاقة، لم يكن هذا ما تخيلته عن النضال والعمل الفدائي قط!

لكن سرعان ما تبدّل الحال، وقفنا نقرأ الطالع لأحد الضباط الإنجليز الشباب، كان خارجًا لتوّه يترنّح من باب كازينو (فيكتور مالديني) بشارع عماد الدين ، كان الضابط الشاب الذي يحمل رتبة ملازم، (سكران طينة) لا يدري يمينه من يساره أو وجهه من قفاه.

لمحت في الظلام لمعة في عيني الحاج أحمد، فهمتها زوجته على الفور، فغطت وجهها بالبرقع، حتى لا تظهر ملامح وجهها العجوز، وشدت رداءها عليها حتى تظهر بعض مفاتن جسدها الذي كان قد أكل عليه الزمان وشرب، على كل حال كان الضابط الشاب سكران، لا يميّز بين جسد امرأة ساخن، وبين جوال من البصل الأحمر.

بدأت السيدة في السير أمام الضابط بدلال وتقصّع، بأسلوب رخيص يفجّر شهوات السكارى، في حين مال الحاج أحمد على أذن الضابط كأنه قوّاد متمرّس!

بابتسامة رخيصة كشفت عن أسنانه السوداء من تدخين المعسل، قال له بصوت خافت -لا أعلم كيف سمعته- : (وان باوند يا خواجة، إنكلود إيجار الأوضة)!

ضربت كفًا بكف، ما كان يكفيني أن أصبح تابعًا لمتسوّل وأفاقة، فأصبحت تابعًا لقوّاد وباغية!

دس الضابط يده في جيبه وأخرج بضعة قروش وضعها في يد الحاج أحمد، وهو يقول له: (كده إيناف يا خبيبي)، الغريب أن القوّاد لم يمانع، بل خضع للثمن القليل مجيبًا الضابط (وماله يا چوني، عينينا للتاج البريطاني)!

سارا معًا خلف زوجته التي زادت في التقصيع، وسرت خلفهما كخروف بقرنين!، حتى انعطفا في حارة ضيقة. وفجأة، هجم على الضابط شابان ملثَّمان من الخلف كمَّا فمه وشلا حركته، وقتلاه طعنًا بنصل حاد، ثم جَرَّا جثته بداخل إحدى بوابات البنايات، وأخذوا يجردانه من سلاحه وذخيرته، وشارة رتبته العسكرية، وبطاقة هويته.

لم يبذ على الحاج أحمد أي أثر للمفاجأة، ولا على زوجته التي عادت من فورها لما كانت عليه، خلعت البرقع وعادت لتنادي من جديد: (أبين زين... وأشوف الودع). نظر إليَّ الحاج أحمد، وهو يبادرني بالقول معتمدًا:

- "لا مؤاخذه يا سيدنا الأفندي، ابن الرفضي ده أصله كان لُقطة، هو اللي جه لقضاه، مكانش ينفع نسيبه، يالا أهو راح عند اللي خلقه، نكمل مشوارنا احنا بقى!".

أما الأغرب في الأمر، أنه وبعد أن توقفنا كثيرًا لرؤية طالع العساكر الإنجليز، بمنتهى الأريحية، وصلنا إلى وجهتنا في حارة جانبية. لتجلس السيدة ببساطة على الأرض وترفع غطاء (المشنة) وتعبث بيدها تحت الرمل، فتُخرج ثلاثة قنابل مما أعدهم الفدائي سيد محمود، وتسلمهم إلى الفدائي الذي سيقوم بالتنفيذ.

وقفت أشاهد المشهد متسمّرًا في مكاني، يدور بذهني كم من المرات كان أحد العساكر يُلقى بصدفته بعد أن "يوشوشها" فوق تلك القنابل المختفية تحت الرمل!

كانت تلك على ما يبدو هي وسيلة الفدائيين لتوزيع القنابل والأسلحة بعضهم على بعض.

يبدو أن تاريخ هذا الشعب، مخترع النكات، مبتكر (الفهلوة والحداقة)، كان حافلاً بالفعل!

تكرّر الأمر عدة مرات قبل أن يتم توزيع جميع القنابل على أماكنها، تحدّثت ساعة الصفر لتفجير القنابل في صباح يوم التاسع من مارس، في الساعة صباحاً، قبيل بدء تجمع طلائع المظاهرات المثقّق عليها بساعتين، وحتى يتأكد الفدائيون أن كل القنابل التي أعدها الإنجليز قد أصبحت في أماكنها، أنهينا جميع الرحلات، وسلّمنا كل ما كنا قد أعدناه من قنابل. مكثت معهم في شقة الأزيكية طوال الليل، لم ينم أحد تقريباً، بين طباعة لمنشورات وتوزيع لها، وبين جلسات إعداد للمظاهرات والعمل على تأمينها.

في الساعة صباحاً، دوّت أصوات الانفجارات في أماكن متفرّقة من العاصمة، وفي توقيت متزامن، تلتها أصوات صفارات (الكونستابلات) وأصوات اندفاع سيارات الجيش الإنجليزي، وهي تجوب الشوارع كأنها أسود جريحة جائعة، تبحث عن مقتحم عربيها. لم أتصور من قبل رمز الأسد الإنجليزي، وهو مصاب جريح، لكنه كان أمراً جيداً، زاد من مخيلتي ثراءً.

ساد الهرج بينهم، لم يتخيلوا أن يفعلها الفدائيون بهذه الجرأة، والمفاجأة، لم يدركوا من أين استطاعوا الحصول على معلومات بهذه الدقة، أصابتهم الضربة بتشتت الانتباه، وترقب مزيد من

الضربات. نجحت الخطة، ولم يتبقَّ سوى بدء المسيرات كما كان مقدَّرًا لها.

شكرني عبد الرحمن فهمي وهو يشد على يدي.

في النهاية التقطت صورة تذكارية مع الخلية، التقطتها صحفي شاب كانت مهمته توثيق الاجتماعات وتدوين ما يحدث بها في محضر كتابي. الغريب هو أنني تذكرت فجأة، كنت في أحد الأيام رأيت صورة مشابهة لما كانت عليه أوضاعنا أثناء التقاط الصورة، في ملحقات كتاب (سنوات ما قبل الثورة) للمؤرخ صبري أبو المجد.

كانت الصورة مشوّشة جدًّا وذات جودة سيئة، لم أتبين منها ملامح من ضمتهم بشكل جيد، إلا أنني تذكرت أن ما لفت نظري فيها في ذلك الوقت هو أنني كنت أجد أحدهم يشبهني بشدة!

بالطبع لم أخبرهم بأن أحدهم بكل أسف سينتهي به الحال سجينًا ثم خفيًّا على بوابة مخزن، ولا بأن الآخر سينتهي به الحال مجذوبًا مشردًّا في شوارع القاهرة، والبعض منهم ستلتهمه دوامة النسيان...

كما لم أخبر عبد الرحمن أفندي فهمي، بأنه هو شخصيًا سيتم تخوينه، ويتنكر له كل رفاقه الذين كانوا تحت إمرته، ولا بأنه سيتحول إلى معارض كبير لسياسة سعد باشا زغلول، ولسياسة حزب الوفد.

لم أشأ أن أخبره بأن أقرب رجاله إليه، سينكره ثلاث مرات... قبل صياح الديك!

اكتفيت بما رأيته من نضال، ومن عمل وطني جمع الرفاق على قلب رجل واحد، على الأقل في هذه الحقبة من الزمن، كان من الأفضل أن أترك ذاكرتي محتفظة بتلك المخيلة حتى النهاية.

حقًا.. البدايات دومًا جميلة. ولكن.. ليس هذا ما يحدث في أغلب الأحوال، عندما يتعلق الأمر بالنهايات.

كان يقف بجواري في الصورة عبد الرحمن أفندي فهمي، وعلى يساره أحمد أفندي ماهر، في حين وقف على يميني فدائي شاب آخر اسمه مصطفى أفندي النقراشي. بعد التقاط الصورة، نظرت إلى الفدائي المجاور لي، النقراشي أفندي، ابتسم وشد على يدي مصافحًا، وهو يقول لي.

- شكرًا لك يا سيدي.

ابتسمت وأنا أجيبه، قائلاً:

- لا شكر على واجب يا... باشا!

استأذنت منهم في الانصراف بعد نجاح المهمة. ترجّلت بهدوء حتى وصلت إلى ميدان الإسماعيلية، أو ميدان التحرير كما نسميه اليوم، لم يكن عساكر الإنجليز المنتشرين في الشوارع يلقون بالاً لأمر كهل عجوز يمشي محني الظهر، انعطفت في شارع سليمان باشا الفرنسي، على أحد الأجناب، كان هناك مقهى، يفتح أبوابه.

نظرت في ساعة يدي، كانت التاسعة إلا عشر دقائق، اجتزت الشارع، ودلفت إلى داخل المقهى، استقبلني جرسون جريجي، قلت

له في عجالة:

- نهارك سعيد، قهوة (سكيتو) من فضلك.

- من عينيا (يا خبيبي).

طالعت صورة الملك فؤاد الأول المعلقة في صدر القهوة، قبل أن أضع طربوشي على الطاولة، والتقط بيدي من عليها، نسخة من جريدة اللطائف المصورة، نظرت إلى عناوينها الرئيسة وأنا أتابع، قائلاً له:

- ممنون جداً، مع الشكر!

القاهرة

الرحلة الثامنة.

حلت بضاحية الجمالية، في يوم الاثنين، الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦١ هجرية، الموافق الثالث عشر من شهر يوليو سنة ٩٧٢ ميلادية.

كنت قد التحفت عباءة سوداء، ورثتها عن أبي، فوق الجلباب الذي تركه لي الحاج أحمد جاد الله هديةً منه، وانتعلت خفّين من الجلد ابتعتهما من سوق خان الخليلي قبل أن أرتحل عبر الزمن، كنت أعتقد أن مظهري هذا لا يمكن أن يثير أي تساؤلات.

كانت المنطقة التي حلت بها مجاورة لما بين القصرين، حيث كانت المنطقة الفسيحة التي تقع بين القصر الشرقي والقصر الغربي للخليفة حديثي البناء، كان هناك جمع غفير من الناس، يحيطون بالأرض الفضاء، يشاهدون عرض عسكر الخليفة الجديد، الذي حط على أرض الفسطاط منذ أيام، باعثًا جنده قبله بعدة سنوات، تحت إمرة الحلواني، كان هذا ما يطلقه عليه عامة الخلق، في حين كان اسم القائد جوهر الصقلي.

انتصر الحلواني ومن معه من الجند، على البقية الباقية من عسكر الإخشيديين، قبل أن يستيقظ المصريون ذات صباح ليجدوا منابرهم تنادي بالعمر المديد للخليفة المعز لدين الله الفاطمي! كانت الجمالية، قد دخلت في زمام ما أطلق عليه الفاطميون مدينة القاهرة، والتي كانت تجاور الفسطاط، والعسكر، والقطائع، وتسطر

سطرًا جديدًا بتاريخ عاصمة مصر المحروسة.

ترجّلت خلف الجمع الغفير، أشاهد عسكر الخليفة الجديد، تلمّست طريقي بين الخلق، أسأل عن سوق النحاسين، أخبرني أحدهم أن هذا المكان الذي أقف عنده، هو ذاته سوق النحاسين، بيد أنه تحول حديثًا إلى ساحة بين القصرين، أو فسطاط العسكر وساحة عروض اصطفافهم.

سألته مجددًا عن رجل يُدعى جعفر بن عرفات النحاس، لم يكن يعرفه، لكنه دلّني على مكان وكالة الحاج حمدان، بضاحية باب الخلق، أخبرني أنني سأجد هناك أغلب دكاكين النحاسين، بعد نقلها من ساحة بين القصرين. شكرته وذهبت أبحث عنه بين دكاكين النحاسين، حتى وجدته.

كان رجلًا نحيفًا جدًّا، أشعث الشعر واللحية، لم يتجاوز الأربعين من عمره وإن كان يبدو في التسعين، تكاد عظام وجهه تبرز من خلف ما يكسوها من جلد، يرتدي بعض الهلاهيل، حافي القدمين، على وجهه ويديه وهلاهيله سواد لا أظنه يذهب بالدعك بأحجار الهرم الأكبر كلها، في حمام المتولي، ولعام كامل دون توقف.

قدمت له نفسي بوصفي تاجرًا من الصعيد، أخبرته بأنني أريد أن أتحدث معه بشأن بعض الصفقات بعيدًا عن الدكان، في بيته إن أمكن، نظر إليّ ببلاهة متناهية، كأنني فضائي هبط عليه من خلف نجوم مجموعة الجبار، قال لي:

- أتريد أن تشتري أم تريد بيع ما جئت به؟

- أشتري بالطبع.

- تشتري؟! وهل بالفسطاط من يملك المال يا هذا؟

- وما الغريب في هذا؟

- لا شيء، لا شيء أبدًا، أهلاً بك إذا أيها الوجيه.

قالها وجذب لي (قُرمة) متضعضة من الخشب، أكل عليها الزمان وشرب، مسحها بجلبابه فازدادت سوادًا، ودعاني للجلوس، بدا له أنني من الأثرياء، لأنني بالتأكيد أمتلك بعض الدنانير في وسط هذا القحط الشديد الذي تتعرّض له البلاد!

جلست بهدوء على (القُرمة)، حين كان يميل عليّ بجذعه هامسًا:

- لو كنت من العباسيين فأنصحك بأن تتواري الآن، فرجال الخليفة الجديد منتشرون بالأرجاء منذ أيام، لن يسر المُقدّم الجديد وعسكره أن يروك هنا.

- ما لي أنا والعباسيون.

- رداؤك الأسود هذا، ألسنت منهم، لم تتشح بالسواد إذا.

خلعت العباءة، وقلت له:

- لا عباسيين ولا أمويين، أنا مصري فقط، مثلك.

بدت عليه الدهشة، نظر إليّ متفحصًا، بعد أن ظهر عليّ جلاباب الحاج أحمد القديم المتهالك، الذي كانت تداريه العباءة الفاخرة، وقطب حاجبيه، بدا له أنني لست وجيهاً كما ظنّ، فضحك بسخرية

وهو يردف إليّ، قائلاً:

- قم من على القُرمة إذا، شكك صعلوك مثلنا جميعًا، ماذا تريد أيها الغريب.

- أريد أن أحدثك على انفراد يا جعفر، هناك أمر مهم.

- أي أمر مهم، البلاد في غلاء لم يسبق له مثيل، ومجاعة وفقر منذ سنوات أيها الغريب، لا بيع ولا شراء، لا شيء سوى الكساد، ماذا تريد.

- سأخبرك، ولكن دعنا نذهب إلى بيتك إن سمحت.

- بيتي؟! وبم أعود إلى بيتي وخزانة الطعام فارغة، وعيالي جوعى.

- خذ هذه العباءة، اعثر لها على مشترٍ، وابتع طعامًا لأهل بيتك، ودعنا نذهب.

- صدقًا تقول؟

- نعم، بالتأكيد.

وثب من على الأرض كالفهد، التقط العباءة، وطار من أمامي راكضًا، ناحية مجلس المعلم حمدان، تابعتة بعيني، رأيته يجلس عند قدمي المعلم، يعرض عليه العباءة، وهو يمسك بها يقلبها بين يديه، ويظهر لها محاسنها، كأنه بائع أقمشة محترف.

تناول المعلم العباءة يتفحصها، أخذ يقلبها بين يديه، وهو ينظر



مليًا إلى خيوط حياكتها الغربية على زمانهم، حتى مط شفتيه ودس
يده بجلبابه، قبل أن يُخرجها ويضع شيئًا بيد جعفر. لحظات وعاد
إليّ وبكفه بضعة دنانير، أشار إليّ وهو يقول في عجالة:

- هيا بنا.

نزلنا على سوق باب الخلق.. ابتاع رطلًا من اللحم، ورطلين من
البلح العجوة، وملء قسطين من الزيت، وعدة أرطال من الفول
والعدس، وبعض الخضراوات، وجوال من الطحين، وصحني حتى
باب داره.

دخل على أهل بيته، كأنه عتتر زمانه، ألقى إليهم بما يحمله بخیلاء،
وهو يخبر امرأته بزهو أن بصحبته ضيف، تاجر أتى إليه خصوصًا
بعدما سمع عن مهارة صنعه!

جلسنا على حصيرة في فناء الدار، أخذ يكسر أعواد الحطب
ويلقيها في فجوة في هيكل من الطين، ليشعل القمينة التي لم ترَ
النار منذ شهور على ما يبدو.

كان وقت المغرب قد حان، وبدا أن الشمس تهوي من السماء نحو
الأفق بعد رحلة طويلة، بدت كأنها منهكة من الجوع هي الأخرى.

حاولت أن أبدأ الحديث إلا أنه استوقفني، قائلاً:

- لا حديث الآن، أنت ضيفي، وقد حان موعد الإفطار بعد صلاة
المغرب.

ابتسمت وأنا أحاول أن أعتذر بلطف، إلا أنه لم ينتظر مني ردًا،

عاجلني بالنهوض والسير نحو باب البيت، لم أفهم كيف يريد أن يدعوني للإفطار خارج البيت، بدا على وجهي الحيرة، لكنه أشار إلي كعادته أن أتبعه، يبدو أنه كان لديه ترتيب آخر!

خرجنا من البيت، نحو ما وصفه لي بجامع القاهرة، الذي بناه الحلواني لنشر دعوة الخليفة الجديد، لم يكن جعفر على ما يبدو يكثر كثيرًا لفارق بين مذهب سني أو شيعي، كان يكفيه كما بدا أن يجد قبلة للصلاة فحسب، بيد أنني كنت مخطئًا بحقه، فلم يكن في الواقع يكثر سوى لشيء واحد فقط! نظرت إلى ما أشار إليه فوجدته لم يكن سوى جامع الأزهر الذي أعرفه.

يبدو أنه لم يثن بعد زمان تسميته بالأزهر، نسبة إلى كنية السيدة فاطمة الزهراء، ربما بعد عام أو عامين في هذا الزمان سيطلق عليه هذا الاسم، والذي سيظل ألف سنة على حاله، بيد أنه لم يكن أثرًا كما أعرفه، كان لم يمض على تشييده أكثر من شهر، كانت حجارتها لا تزال مصقولة لامعة، وأخشابه يافعة متماسكة، ورخام أرضيته ناعم كالحرير.

دلفنا إلى صحن الجامع في الوقت الذي ارتفع فيه صوت المؤذن لصلاة المغرب.

أصابني الدهشة، حين انتهى المؤذن من عبارة (حي على الفلاح)، وأتبعها بعبارة (حي على خير العمل)، نظرت إلى جعفر وعلى وجهي علامات الدهشة، أسكتني بنظرة من عينيه، مال علي هامسًا، وقال:

- لا عليك، فليتشيع من يريد وليتبع السنة من يريد، أكم من

مذهب مَرٍّ من هنا يا عزيزي، دعنا لا نفوت المهم في الأمر، الوليمة
يا صديقي، فلا يختلف مذاق المرق وأكتاف الكبش إن كان طاهيهم
شيعة أم سنيًا، ادعُ للخليفة فقط، وهيا لنقم إلى الصلاة!

أدينا الصلاة، ودعونا خلف الداعي بالعمر المديد للخليفة المعز، ثم
خرجنا إلى رحاب الجامع، كانت الأرض قد فُرشت بالحصير، ووُضع
عليها طبالٌ عديدة من الخشب، اجتمع حولها خلق كثير من العوام
كأنه يوم الحشر. أمسك جعفر بيدي، وسحبني كالبهيمة، حتى وجد
لنفسه ولي بجانبه ركنًا بين المتزاحمين.

وما هي إلا ثوان وكان يدخل علينا بعض عسكر الخليفة بصحون
من الفخار والنحاس، بها قطع من اللحم والفتة وشورية البهاريز
والمرق، وأكواز من الصفيح يصبون لنا فيها من الأباريق منقوع قمر
الدين الحموي، والعرقسوس، وبضع حبات من التمر اليابس.

أكل جعفر كذب يلتهم آخر غزال على وجه الأرض، أكل كثيرًا
حتى استلقى على قفاه، وهو يردّد على مسامع العسكر، بفم ممتلئ
بين الفينة والأخرى، عاش الخليفة الفاطمي، شي لله يا فاطمة،
حبيب المساكين يا علي يا أبا الحسنين، فليسقط العباسيون
والإخشيديون والقرامطة!

انتهينا من الأكل، أو بالأحرى انتهى الطعام من فم جعفر، فذهبنا
إلى بيته مجددًا. قال لي ساخرًا وهو يجلس في المندرة:

- بعد أن دعوتك لإفطار ممتلئ باللحم والمرق والبهاريز، وجب عليّ
أن أدعوك إلى التحلية، فزوجتي أفضل من يصنع الزلابية في

الفسطاط، أقصد القاهرة، ولدينا اليوم طحين كما تعلم، أنت ضيفي اليوم يا حائل.

- قلت لك نائل.. اسمي نائل سويدان.

- حسناً يا صديقي، الزلاية الطازجة لأجل نائل سويدان.

كنت قد قاربت على الانفجار من هذا الجعفر، وزلايته، حينما قاطعته وبدأت في الحديث، قائلاً:

- دعك من الزلاية أرجوك، هلا أعرتني انتباهك للحظات يا جعفر.

- ماذا تريد، أنت لم تقل لي؟

- وهل أنت أمهلتني لأخبرك، اسمع يا جعفر، جئت برسالة من زمن بعيد.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني قدمت إليك من القاهرة، بعد ألف سنة.

لم يبد عليه أنه سمعني من الأساس، كان ينفخ في النار، ليجهز لإعداد الزلاية، سعيداً بها، بيد أنه أجابني ببساطة، مجاملاً:

- نعم، يشيد الحلواني بجوار مدينة الفسطاط والعسكر والقطائع، مدينته القاهرة المعز، منذ أسبوع تقريباً، أصبح الجميع يلقّبونها بذلك الاسم العجيب، ولكن لا تكن متفائلاً، سرعان ما سيعود العباسيون ليستعيدوها ثانية، أو الإخشيديون، أو القرامطة، أو أي عسكر آخرين، ويسمّونها اسماً جديداً، ويدعون على المنابر لخليفة أو

لسلطان آخر، لا فرق يا عزيزي، فليطلقوا عليها ما يريدون من أسماء، في العادة، لا تختلف معاناة الخلق هنا باختلاف الأسماء.

- جعفر، هلاً سمعتني، بعد قرابة مائتي عام من الآن سيأتي سلطان اسمه صلاح الدين الأيوبي، سيوحد المدن الأربعة بداخل سور واحد، ويطلق عليهم جميعاً اسم القاهرة، وستظل بهذا الاسم لقرون طويلة، هل فهمت الآن، أنا أتحدث عن المدينة الكبيرة، عن العاصمة، أما عن حاضرك الآن، فأنا أعلم جيداً أمر المجاعة التي تُصيب البلد، وغلاء الأسعار، أعلم أنك لا تجد قوت يومك أنت وعائلتك، وكل الناس من حولك، ولكن فضلاً أعرنني انتباهك، أنا هنا لتحسين هذه الأحوال السوداء، ولتصويب الأمور، لا بد أن تنتهي هذه الديستوبيا.

- ديستو... ماذا، أتقصد الزلابية؟!... دقائق وتكون جاهزة!

- يا الله... فلتذهب الزلابية إلى الجحيم، أنصت إليّ أرجوك، أنت وكل هؤلاء الناس تملكون كنوزاً، وتعيشون كالمتمسولين لكل زائر، أو غاني، أو محتلّ، أو فاتح، سمّهم ما شئت من الأسماء، وأطلق عليهم ما شئت من الألقاب، مثلما سَـطُـلِق عليهم كتب التاريخ، يا جعفر اسمعني جيداً، أنا قادم إليك برسالة من مستقبل لم يأتِ على زمانك، بعد ألف عام من الآن.

- مستقبل، أي مستقبل يا زائل، القيامة على وشك الوقوع، ألا ترى ما نحن فيه.

- قلت لك اسمي نائل، والقيامة لن تقع الآن وحتى بعد ألف سنة، أنا أؤكد لك.

- لا ريب أنك تناولت عدة أقذاح من البوظة المتخمرة يا مائل، لقد ذهب عقلك تمامًا.

- الحديث معك هو ما يدفعني حقًا إلى الجنون، اصمت قليلًا فقط، واستمع إليّ، واسمي هو نائل... نائل، هل فهمت.

كنت أشد شعري من الغيظ، قبل أن أحدث نفسي متممًا:

- على أي أساس تختار الهيئة العليا عابر أزمان مثل هذا الأحمق؟ هل يحمل هذا الجعفر أمانة صد هجوم الإسكندر المقدوني، هل يمكن لهذا المخبول أن يتعلم اللغة القبطية أو الهيروغليفية، هل سيستطيع هذا الرجل ذو المخ الزلابية التحاور مع الملكة كليوباترا، هل يحمل هذا المغفل أمانة تصحيح مسار الألف سنة التي تسبق عصره، ليت شعري.

نظر إليّ جعفر، كان يبدو أن صوتي كان مسموعًا، قبل أن يوجّه إليّ سؤاله:

- الملكة ماذا، كلوتاترا؟! ومن تكون الملكة تاترا هذه، زوجة الخليفة؟

كان قد فاض بي الكيل، قلت له صارخًا فيه:

- اصمت تمامًا وشاهد هذا.

أنهيت كلماتي، وقمت على الفور بتشغيل ملف هولوجرامي، لشوارع القاهرة في زماني، وأنا أقول له، هذه هي القاهرة يا جعفر التي أعرفها، بعد ألف عام من الآن.

أصابه الذهول، قفز من مكانه فجأة يصرخ، قلب طست عجيب
الزلاية على الأرض، وهو يحاول أن يدفع بجسده للخلف، ويضع
يديه على وجهه يحاول إبعاد خطر مجهول عنه، وهو يقول:

- شي لله يا سيدي عبد الله المحض الحسني، يا ابن الأشرفين.

أنهيت المقطع بعد أن ساد الصمت وتجمدت مقلته تنظران إلي
في رعب، فاغتنتم الفرصة وأمسكت أخيرًا بلجام الحديث، مرت
ساعتان قبل أن أستطيع إنهاء شرح كل ما جئت من أجله، وأسلمه
حُلتَه، وأعلمه كيف يستخدمها، كان -والحق يقال- نبيهاً، غير ما يبدو
من حماقة عليه، لكن عقله كان يقبع تحت أطنان من أتربة وسحاق
أكسيد النحاس الأخضر، والهباب الأسود كان لا بد أولاً لعقله أن
ينجلي.

كان كالكثيرين في كل زمان، أسير العوز، والفقر، يحترف اللا
مبالاة، ويمهر كل المهارة في السخرية، ويخلط الهم والغم بالطحين
والماء في إناء واحد، ليصنع الزلاية، مثلما يصنع النكتة على حاله
وحال الخلق!

كان جعفر، مصريًا، عاش منذ ألف عام، وترك أحفادًا كثيرين
يملؤون ربوع مصر حتى اليوم. لكنه شيئًا فشيئًا، بدأ يجاريني
الحديث، بدأ غبار النحاس ينجلي، عاونتته على ارتداء حلتَه،
وضبطت تاريخها إلى زمني، وقمت أنا وهو برحلة إلى القاهرة التي
أعرفها.

عدنا إلى القاهرة في زمني، كان الوقت ظهرًا، صحبتته إلى بيتي،

جلبت له بعض الملابس العادية في زمني ليرتديها، ثم تجوّلت معه في شوارع القاهرة، سرت معه على كورنيش النيل، صحبتته في رحلة إلى مصر القديمة، زار جامع وجامعة الأزهر، والحسين، وباب الخلق، صحبتته إلى خان الخليلي، حين وقف أمام المشغولات النحاسية بالسوق، يُقلبها بين يديه وهو يتباكى على ما وصلت إليه الصنعة من رداءة!

مشيت معه في الغورية، والحسينية، وجلست معه على إحدى مقاهي شارع المعز، لم أتوقف للحظة عن سرد كل شيء حدث في الألف سنة المنصرمة، وما كان يجب أن يحدث إن استطاع أن يتدارك ما سبق من أخطاء على زمانه. أعتقد أنني أديت الرسالة كما يجب، فهم كل شيء، أدرك ما كان يعيش فيه من حلم زائف، لواقع مرير.

لم أنس أن أمر على منطقة الجمالية، وأصعبه إلى محل حلواني النيل، لأبتاع له قرطاسًا من الزلابية!

بعد عدة ساعات من سرد أحداث التاريخ عليه، وإيضاح كل شيء، كان قد أصبح إنسانًا آخر، أكثر فهمًا ودراية، وأقل سخافة، وأكثر همًا وحرزًا ولوعة. والأهم أنه قد توقّف تمامًا عن الحديث عن الزلابية بعدما تذوّق قطعة من شوكولاتة سنيكرز!

انتهى.

كانت عقارب الساعة تداعب الخامسة صباحًا، حين انتهى نائل من

التدوين في صفحات دفتره، وضع القلم بجواره على المكتب، فرك عينيه وهو يتثاءب، نهض من على مقعده، دلف إلى الفراش بجوار أحلام التي كانت تغط في نوم عميق، لم يشعر أحد بسهرته التي طالت حتى قرب الصباح، أغمض عينيه وراح في سبات عميق.

بعد ساعتين فقط كان يرن جرس هاتف منيرة، ثم يرتفع صوت إذاعة الأغاني.

وهي تحمل كوب عصير البرتقال، دلفت إلى حجرة نوم نائل وأحلام، ربّت على كتف نائل بلطف لتوقظه، بصعوبة شديدة فتح عينيه، أخبرته أنها ستغادر البيت لعملها، وأنها كعادتها كانت قد جهّزت له الإفطار.

بكلمات يغلبها النعاس، شكرها، أخبرها أنه سيفعل، خرجت من الغرفة، فأغمض عينيه من جديد.

في طريقها إلى باب الشقة، لاحظت أن مصباح غرفة المكتب مضاء. ذهبت لإطفائه، فلاحظت على المكتب دفترًا مفتوحًا، وقلّمًا، على رغم ضيق الوقت، غلبها الفضول، جلست على المقعد، وأمسكت دفتر اليوميات، وتصفّحته.

قَطبت حاجبها بغتة، ارتسمت ملامح الدهشة على قسماات وجهها، نظرت خلفها وأرهفت السمع حتى اطمأنت أن أباهَا عاد للنوم، وأن الصمت يلف البيت. دست يدها بحقيبتها، أخرجت هاتفها النقال، ضغطت على أيقونة الكاميرا، ووجّهت الهاتف نحو الصفحة تلو الأخرى.

قبل أن تغادر البيت، أعادت ترتيب كل شيء مثلما كان، ضغطت على أيقونة برنامج الرسائل (واتس آب)، أخذت تقلّب في قوائم الأسماء، حتى توقفت عند اسم (حبيبي).

من ثلاث كلمات، كتبت له رسالة نصية، (عندي لك مفاجأة)، وضغطت زر الإرسال!

المحروسة

الرحلة التاسعة..

حلث بضاحية المقطم، في يوم الرابع من شهر محرم سنة ٩٢٢ هجرية، السابع عشر من شهر فبراير سنة ١٥١٦ ميلادية، كان وقت الظهيرة.

كنت قد ارتديت جلبابًا وقفطانًا، ابتعتهما من خان الخليلي في أثناء رحلتي مع جعفر في القاهرة، وخفّين من الجلد، علّني لا ألث الأنظار، وأخفيت حلة السفر عبر الزمن في حفرة حفرتها تحت صخرة كبيرة، وكتبت على الصخرة اسمي بواسطة قطعة من الحجر الطباشيري، وجدتها في الجوار فوق الرمال، حتى أستطيع العودة واستخراجها من جديد لأجل رحلة العودة.

سرت هابطًا من على الهضبة، مترجلاً في الطرقات المعبّدة بقطع الحجارة الرخامية، حتى قادتنى قدماي إلى وكالة الغوري، كنت أعرف شكلها جيدًا، من تسكّعي بجوارها في شبابي.

كانت تعجّ بالناس، صحن دائري كبير، مزدحم بالباعة، بعض النسوة يفترنش الأرض على جنبات السوق، يعرضن بضاعتهن من العشب، حزمًا من الكزبرة والجرجير والملوكية، خلفهن عربات خشبية وقف بجوارها بعض الباعة، يعرضون بضاعتهم من الخضراوات والفاكهة، والغلال، والأواني الفخارية، والبهارات الهندية ومساحيق العطار، وبعض الحلي المصنوعة من أحجار العقيق والفيروز، وأردية مطرّزة للنساء، وجلابيب وقفاطين وعمائم للرجال.

خلف تلك العربات الخشبية كان هناك خمس وعشرون بابًا لمخازن البضائع، يجلس بجوار كل باب منهم على ما يبدو تاجر كبير، يدخن النرجيلة وبجواره غلام أو غلامان يقومان على خدمته، وفي السقيفة كان هناك ثمان وعشرون غرفة، تُعقد بها الصفقات بين التجّار الكبار من بلاد الشام والروم والترك والفرس، والتجار المصريين، كانت على ما يبدو نوعًا من التجارة التي تقوم على جلب الواردات من البلدان الخارجية مقابل صادرات من البضائع المحلية، أو الاستيراد والتصدير بلغة زماني. كان يعلو غرف عقد الصفقات، عديد من المشربيات لنوافذ غرف مبيت التجار الأغراب.

استوقفت أحد الباعة وبادرت بسؤاله:

- السلام عليك يا أخي، ابحت عن رفاعة المتولي، صاحب حانوت القميز، هلا دلتني عليه؟

- ولماذا تسأل عنه؟ هل أنت من رجال المحتسب؟

- بالطبع لا، إنه صديق قديم.

- صديق قديم؟ وتبحث عن بائع القميز في سوق الوكالة؟

- وماذا في ذلك، أنا... أنا فقط نسيت أي حانوت هو له.

- حانوت له هنا؟ ألا تعلم أن حانوت القميز في رحب الآخور؟

- آخور؟... نعم... نعم بالطبع أعلم.

- تعلم ماذا، من أنت؟

- أنا... أنا قلت لك صديق قديم لرفاعة.

- أنت تكذب يا هذا، صديق رفاعة ولا تعرف ما هو الآخور.

قالها الرجل، ونظر إلى الباعة من حوله، وهو يصرخ بأعلى صوته، ويشير إلي:

- إنه بضّاص إنكشاري، امسكوا به.

تأزّم الموقف بغتة، في لحظات وجدت عديدًا من الحرافيش يُطَبِّقون أيديهم على خصري ويديّ ورقبتي، سرت أحاديث بينهم وأيادهم تمسك بي كخطاطيف من حديد لا تفلتني أو حتى تتركني لأتّنفّس، كان على ما يبدو كل واحد منهم يَمُرُّ نفسه بعطية من الوالي على الصيد الثمين الذي بين أيديهم.

لم يكن قد مر أكثر من أيام على طرد السلطان قانصوه الغوري لسفراء ابن عثمان، الذين أتوا إليه في غطرسة وخيلاء محمّلين برسالة فجّة الكلمات، متعالية الألفاظ، وقحة اللهجة، من سلطان الترك سليم الأول، تدعوه إلى الرضوخ لسلطانه والدعاء له على المنابر بوصفه السلطان، وضرب العملة باسمه، وإلا زحف إليه بجيش جرار وأجبره على ذلك صاغراً.

كانت قد سرت الهمهمات بين المصريين بقرب اندلاع الحرب، وبين باغض للمماليك وعربدتهم وضرائبهم، مستبشراً بخلاص، وبين مهموم باحتلال قوم لبلده واستبدال سلطان بسلطان وعسكر بعسكر، وبوار تجارة ونهب أراضٍ وأرزاق، كان الوضع ملتهبًا، لا يمكن التنبؤ بما ستلده رحم الأيام المقبلة، كان لكل صنف من الناس همه

وتخوّفه، الأشراف والتجار والأمرء في وادٍ، والحرافيش والصعاليك في وادٍ آخر، وكنت لسوء الطالع، بين يدي الصنف الثاني، يتلمّس كل واحد منهم هبة أو خُلعة نظير عظيم شجاعته في الإمساك بيّ. ويا له من إخفاق في رحلتي الأولى لزمان الممالك!

من بين أكتافهم المتلاصقة حولي، لمحت غيمة متواترة من أترية حوافر الخيل، وتنامت إلى أذني أصوات سناكبها، تفرّق الجمع من حولي حين أحاط بيّ عديد من جند الممالك، لأطالع أمامي، فارس مملوكي في كامل ردائه، كأنني قد غصت فجأة في صفحات كتاب تاريخ مصوّر، يمتطي صهوة جواده، ينظر إليّ بعينين فاحصتين، جاحظتين، تثيران الرعب في النفوس، قاطبًا حاجبيه، بوجه كأنه قد من أحجار القلعة الجيرية البيضاء، تتدلّى عليه خصلات شعر أحمر أشعث، وذقن وشارب متناثران، وجسد مفتول العضلات أشبه بأجساد منحوتات أبطال الإغريق الأسطورية، تنفر عروقه من ساعده القوي.

بدا محتفزًا، تلمّس بأصابع يده مقبض سيفه، متأهبًا لسحبه من غمده وهو يأمرني أن أجتو على ركبتي كالأسير، قبل أن يوجّه حديثه إليّ بصوت جهير أجش، ترتعد منه الفرائص، بلغة السلاجقة للممالك البرجيّة، والتي يعرفها الأتراك جيدًا.

- سين كيمسين يا بانجي؟

- لا أعرف ماذا تقول؟

- حسنًا، من أنت أيها الغريب؟

- اسمي نائل يا سيدي، أنا مصري، أنا غريب عن القاهرة، من الصعيد، ولا أعرف شيئًا عما يدعونه عليّ، أنا لست بصاصًا، ولا أي شيء.

- من أي بلدان الصعيد أنت؟

- من... آا من أسيوط.

- أسيوط؟ تقصد ديروط.

- نعم يا سيدي.. بالفعل هي ديروط.

- أنت بصاص لعربان بني زعازع إذا.

- لا يا سيدي، أقسم لك أنا لست بصاصًا أبدًا.

- أنت تكذب، هل أرسلك شيخ العربان لتتلصص على أخبار المحروسة، بعد أن علم أخبار الحرب، وانشغال السلطان، ليغير على وجه قبلي من جديد؟

- أقسم لك يا سيدي إنه لا شيء من هذا صحيح.

- من أرسلك إذا؟

- لم يرسلني أحد يا سيدي، أنا فقط نزحت إلى هنا لأبحث عن عمل.

- عمل؟ شيخ عجوز مثلك يبحث عن عمل هنا، أنت كاذب.

قالها الأمير المملوكي، ولم ينتظر مني جوابًا، نظر إلى مماليكه، وأمرهم بشد وثاقي واصطحابي إلى قلعة الجبل..

في غرفة تتسع بالكاد لنصف رجل، من حجارة عتيقة تكاد تنطق لتروي قصص السجناء الذين طواهم النسيان بين جنباتها، وباب حديدي من عدة قضبان صدأة، يتوسطه مزلاج كبير، وجدت نفسي مقيدًا بسلاسل من حديد، ومُلقي على الأرض.

كانت ثمة رائحة عفنة تنبعث من كل مكان، لم أكن أعرف هل كانت رائحة جثث من لقوا حتفهم قبلي في هذا المكان، أم رائحة الظلم والقهر والذل. كانت حجارة الغرفة تكاد تنطق بما شهدته من أهوال، كان المكان موحشًا، رهيبًا، مظلمًا كأنه ثقب فلكي أسود، يجذب الأمل في الخلاص من النفوس المحطمة ويسحقها بداخله.

لا أعتقد أن هناك من دخل هنا؛ وخرج حيًّا من قبل، لقد كنت سجينًا في سجون المماليك، أكثر رجال الأرض تعرّضًا للخيانة والمؤامرات، وأكثرهم قسوة، وأكثرهم إعدامًا لأعدائهم.. ولرفاقهم، وأصدقائهم، وأمرائهم أيضًا!

كنت وحدي، في زمان لا يعرفني ولا أعرفه.

في مكان لا يعرفني، حتى إن كنت أعرفه.

أمر غريب أن يصبح الإنسان غريبًا عن وطنه، وهو في قلب عاصمته.

لم أكن أفكر سوى في عائلتي، في أحلام التي ربما لن أتمكن من رؤيتها ثانية، وفي أبنائي، وحفيدي، وفي كل من أعرفه، في الحي

الذي وُلدت فيه، والحي الذي عشت فيه بقية حياتي.

حياتي؟!

هل حقًا ستنتهي هنا، والآن في هذا المكان الموحش، وهذا الزمان الذي لا أنتمي إليه، ولا أتمنى أبدًا أن أنتمي إليه؟!

وماذا عن مهمتي؟

ماذا عن وطني، وعن العالم الذي أعرفه؟

هل سأكون السبب بإخفاقي في حلول الكارثة الكبرى، وموت ثمانية مليارات من البشر؟

وفي وسطهم.. أحلام، ومنيرة ومراد.

وحفيدي.. وأحفادي المنتظرون.

جلست في ظلام موحش، لا يختلف شيء عما ينتظرني من مصير، كان يبدو أنها النهاية. وآخر كلماتي التي سأكتبها في السطر الأخير بتلك المدونة..

نحن سطور مقروءة، وسطور منسية.

أوراق مهترئة.. وتراب مندثر..

وأرواح تسبح عبر الأزمان.

جلست صامتًا، منتظرًا.. لم يكن يجول بخاطري سوى الروايات التي سمعتها عن أولئك الذين خاضوا تجربة العودة من الموت، كانوا جميعهم يتحدثون عن... ضوء في نهاية نفق مظلم.

كان يتبقى لي فقط أن أخوض تلك التجربة.. لكن بلا عودة.

انتهى.

ضوء في نهاية نفق مظلم

الرحلة العاشرة..

لم يطل بي الأمر أكثر من دقائق. كانت تتراقص على الجدران ومضات من أحد المشاعل النارية المصطفة في الرواق، أكاد ألمح ضوءها، وهو يُضفي لونًا برتقاليًا قاتمًا على كل شيء، كأن فتحة باب سجنني قد استحالت إلى نافذة على الجحيم.

لمحت ظلًا يقترب بخطوات حثيثة، لم أكن أعتقد أن لملاك الموت ظلًا!

ربما كان وحشًا آدميًا، أو حيوان أسطوري، لم أكن في وضع يسمح لي بالتخيّل أكثر من هذا.

أيًا كنت يا هذا، فلتأت سريعًا وتخلّصني من ألم الانتظار. كانت الخطوات تقترب أكثر فأكثر. لم أكن متيقنًا إن كان ذلك الصوت هو وقع خطوات القادم، أم دقائق قلبي. لكن لم يطل انتظاري، سمعت صوت المزلاج يُفتح ببطء شديد، كما لو أن القادم يسعى لأخذ روعي بلطف دون إيقاظ باقي السجناء، فُتح الباب، دلف إلى المحبس شاب لا يبدو على هيئته الهزيلة أنه أحد هؤلاء المماليك الأشداء، وهو يضع إصبعه على فمه، يشير إليّ بالصمت، همس إليّ بصوت خفيض كفحيح الثعابين، قائلاً:

- أنت نائل؟

أجبت بهزّ رأسي علامة الموافقة. أشار إليّ بيده ألا أتحرك أو أنبس

ببنت شفة، مد يده في ردائه، أخرج من ثناياه مفتاحًا حديدًا كبيرًا،
عبث بقيودي بأصابع حذرة عن أن تنتج أي صوت، فتحررت.

نظرت إليه، بدهشة وعلى وجهي ألف سؤال. أنزل من على كتفه
حقيبة من الكتان، فضّ شرائطها، فانفجرت كاشفة عن خلتين،
رماديتين، من نسيج ميكروني منقوش عليهما شعار الهيئة العليا
للسفر عبر الأزمان!

همس لي قائلاً:

- ارتد حلتك، واضبط التاريخ على الخامس من ديسمبر عام ٢٠٢١،
الواحدة ظهرًا.

على مقهى (الفيشاوي) الشهير بحي الحسين، جلست ألتقط كوب
القهوة من على الطاولة، وأرتشف منه رشفة شعرت كأنها إكسير
الحياة، بعد أن التقطت أنفاسي الضّعاء، وكأنها حلت محل روعي
التي كانت على وشك الصعود هي الأخرى منذ دقائق، في المقعد
المواجه كان يجلس أمامي سمير، منقذي، ذلك الشاب الهزيل، ذو
العشرين عامًا، وفي مقعد جانبي كان يجلس شريف، الذي كان ينتظر
عودتنا من عرين الأسد.

- أتمنى أن تكون قد تعلّمت شيئًا من رحلتك الخرقاء يا نائل.

قالها شريف بلهجة غاضبة، ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي
أسمعها منه، وبهذه الألفاظ، ناهيك عن مخاطبتي دون كلمة سيد

نائل، كان يبدو أنني ارتكبت خطأ كبيرًا.

- تعلمت؟ لقد كدت ألقى حتفي.

- وهل تتخيل أن ذلك لم يحدث؟

- ماذا تعني؟

- أعني أن السلطان أمر بتوسيطك في صباح اليوم الذي كان على وشك أن يبدأ.

- توسيطي؟ ماذا يعني ذلك؟

- قتلك يا نائل، التوسيط في لغة الممالك هو الشق لنصفين بالسيف.

- يا ويلي، الشق لنصفين، يا له من مصير مُفزع! حمدًا لله على أنكم أنقذتموني في الوقت المناسب.

- أي وقت يا نائل، أنت قُتلت بالفعل، لقد نفذ المشاعلي الحكم وشقَّ جسدك لنصفين، ودفن جسدك في قرافة الجبل، مع الخونة والصوص وقطّاعي الطرق، وتحلّل واندثر منذ قرون.

- ماذا تعني بذلك؟ لا أفهم، ومن هذا المشاعلي؟

- المشاعلي هو المنوط بتنفيذ أحكام الإعدام، كالذي اصطلحتهم على تسميته عشاوي في زمانكم، وبإخفاك في المهمة والقبض عليك وقتلك، ودفنك في زمان غير زمانك أحدثت اختلالاً في الزمن، تم رصده مع باقي تأثيرات مانديلا بعد قرون، كيف كنا سنعرف ماذا

حدث برأيك؟

- مهلك يا شريف، هل يعني هذا أنني ميت الآن؟

- في ذلك الزمان، وفي ذلك البعد، الإجابة نعم، لكنني أرسلت إليك سمير، في الليلة التي سبقت قتلك ليتدارك الحدث، ويعيدك حيًّا إلى هنا، بمعاونة أحد حراس القلعة بعد أن قبض برطيلاً معتبرًا وسلمه مفاتيح قيودك، سمير هو زميل لنا مسافر عبر الأزمان، لم يكن ينبغي قط أن تلتقاه أو تعرّفا بعضكما حفاظًا على سرية المهام.

- قلت لك إنني لن أعتد هذا الجنون.

- دعك من الجنون وأخبرني، لمَ تسرعت وذهبت إلى هناك قبل أن ألقاك من جديد لأشرح لك كل شيء عن المهمة؟

- ظننت أنني بهذا أعِدُّ لك مفاجأة سارة، بأن أنجز المهمة قبل أن ألقاك.

- إياك أن تخرق قوانين الهيئة العليا من جديد، هل تسمعني، إن لم يكن لأن ذلك خطأ جسيم فعلى الأقل للحفاظ على حياتك، أنت تتعامل مع المماليك، هل تفهم، إنهم محاربون، رجال ذوو جلد، لا يعرفون رحمة أو شفقة، لا يملكون عاطفة، لا يتهاونون مع أحد، معتادون قطع الرؤوس، والتوسيط والتجريس والشنق والإخراق والمعاصير والخنق بالوتر، وكل أساليب القتل، حياتهم زاخرة بالمؤامرات والمكائد والخيانات والمخامرة والمعمولية، لا يثقون في أحد، حتى لو كنت خشداشًا لهم، كان يجب عليك أن تتلقّى تدريبًا جيدًا قبل أن تذهب إليهم، كان يجب عليّ أن أعلمك كل شيء عنهم،

كان ينبغي أن تعرف مصطلحاتهم وبعض لغتهم، كان ينبغي أن تعرف كل ما يجب عليك معرفته قبل المخاطرة برحلة انتحارية، أنت لم تكن تعرف سوى اسم الرسول المجتد في زمانهم فقط، وذهبت لتبحث عنه دون حتى كلمة سر أو رمز تعارف.

- رمز تعارف؟

- بالتأكيد، وكيف كنت تتصور أنه سيساعدك دون رمز تعارف مثقّق عليه، على الأغلب إن كنت قابلته لكان هو من قتلك، ألم أخبرك عن رحلات العابثين من العالم السفلي، كيف يتأكّد رفاعة المتولي من أنك مبعوث من الهيئة العليا ولست من العالم السفلي دون رمز تعارف، يا نائل لا بد أن تفهم أن هناك الكثير والكثير مما يجب أن تعرفه عن المهام قبل البدء في تنفيذها.

- ولكننا لم نفعل كل هذا في رحلاتي إلى ثورة ١٩١٩.

- الوضع يختلف، تلك الرحلات السبع لم تكن سوى اختبار لك، في زمان قريب، يتحدث فيه الناس نفس اللغة، ونفس المصطلحات تقريبًا، حتى الشوارع والبنائيات لم تختلف في شيء تقريبًا، ولم يكن هناك أي شخص هناك ليعينك على تنفيذ مهمتك، لم يكن هناك داعٍ لذلك، قلت لك تلك الرحلات لم تكن سوى اختبار وتدريب لك لا أكثر ولا أقل.

- ورحلة العصر الفاطمي، ألم تتم هي الأخرى في هدوء؟

- كل الرحلات في كفة، والتعامل مع الممالك في كفة يا نائل.

لن أطيل عليك يا بني، أخبرتك من البداية أنني أكتب إليك يومياتي تلك لكي تتعلم منها ما كان وما هو كائن وما سيكون، لم أرد أن أخفي عليك شيئًا، حتى إن كان إخفاقًا أو سوء تقدير، أو خطأ، وجدت أنني لا بد أن ألتزم الصدق في سردي لك كل ما رأيته وعايينته حتى ما كان منه من زلات، أحببت فقط أن تعرف أن رحلاتي عبر الزمن لم تكن قط بالشيء الهين أو اليسير، لقد كانت معاناة لأجل هذا الوطن.

تركت شريف وسمير، على وعد بلقاء شريف في اليوم التالي لنبدأ التدريب. نصحني بقراءة كل ما أجده أمامي من كتب تؤرّخ لفترة دولة المماليك ولا سيما نهايتها، حتى موعد لقائنا.

في طريقي إلى البيت، مررت بسور الأzbekية، بحثت كثيرًا حتى وجدت نسخة من كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس، وجلست ليلتي كلها ألتهم صفحاته.

ملحوظة:

بعد هذا اليوم العصيب، وفور عودتي إلى البيت، أردت الاستحمام بماء دافئ، لأنفص عن جسدي وعقلي كل ما علق بهما من هموم... وأوساخ.

أغلقت باب الحمام، خلعت ملابسني.. فوجدت ندبة عرضية على كامل محيط خصري، تحت شرتي ببضعة سنتيمترات!

هذا ما خطّه قلبي يوم أن قُتلت في زمان المماليك واستكملت حياتي في زمانني.. في يوم الأحد الموافق الخامس من شهر

ديسمبر في العام ٢٠٢١

انتهى.

السلطان

الرحلة السابعة عشرة..

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ألتقي فيها مع السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، كانت في الواقع المرة السابعة، تلك المتقمة لتدارك الحدث في سبعة أبعاد، وحتى يتحول إلى واقع ملموس تم تداركه.

كنت قد تمرّست على الأمر، بعد أن سُجنت بقلعة الجبل، وقُتلت بالتوسيط من قبل، ثم بعد أن كدت في الرحلة الأولى للمهمة أن أفشل في مواجهة السلطان. فالرجل والحق يقال كان مُهابًا، زاده طعنه في العمر هيبة على هيئته.

كان السلطان يناهز الخامسة والسبعين من عمره، إلا أنه كان يتمتع بصحة جيدة، ذا جسد قوي، بدا ممتلئًا بعض الشيء، عظيم الطول، كستنائي الشعر واللحية يشوبهما بياض رصين، غليظ القسمات، معقوف الأنف، عريض الفك، ملوّن العينين، ثاقب النظرة، هادئ الطباع.

كنت قد ضبطت تاريخ رحلتي على وقت يسبق تاريخ استقبال السلطان لرسل ابن عثمان، حيث حلت في رحلاتي الستة السابقة، وتبعتها بالسابعة في نفس تاريخ اليوم، الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة، من العام ٩٢١ هجري، الموافق التاسع من شهر يناير عام ١٥١٦ ميلادي.

حللت كعادتي بضاحية المقطم، في وقت الشروق، مرتديًا جلبابًا قطنيًا وقفطانًا من الجوخ، كنت قد ابتعتهما من سوق وكالة الغوري، وجلبتهما معي من زياراتي السابقة، لم يكونا ليلفتا الأنظار قط، وتعممت بعمامة بيضاء من الكتان. ترجّلت قاصدًا بيت رفاة المتولي، الذي كان يقع في الناحية القبلية من الجبل، كنت قد حفظت مكانه، طرقت الباب ثلاث طرقات سريعة وانتظرت هنيهة ثم أتبعته بطرقة رابعة، عندما فتح لي رفاة سارعت بنطق رمز التعارف بيننا.

استقبلني بحفاوة، لم يكن رفاة في الحقيقة أكثر من معاون للهيئة العليا، لما كان لديه من علاقات كثيرة في البلاط السلطاني، فقد كان رفاة هو مورد القميز لقصر السلطان، لم يكن من عابري الأزمان، ولم يكن من المسموح أن يعرف شيئًا عن طبيعة المهام، كان مجرد صعلوك من عامة الحرافيش يمكنه تسهيل المهام، أي مهام، حتى لو كانت اغتيال السلطان ذاته، مقابل برطيل معتبرا!

والبرطيل يا بني هي الرشوة، أو الإكرامية كما يدعوها أهل الزمان الذي أنتمي إليه، يا للعجب، يبدو أن الأمر متوارث إدا، كم أتمنى يا بني أن تكون تلك العادة القبيحة قد انتهت من عالمك!

نسيت أن أخبرك أن القميز، هو لبن الخيل أو الحمير، وقد كان هذا القميز هو المشروب المفضّل للسلطان، ناهيك عن باقي الأمراء وعامة المماليك، لذلك كان لرفاة مكانة خاصة بالقصر الملكي، بصفته مورّد أجود أنواع القميز السلطاني!

كان ذلك الرفاعي، حرفوشًا بمعنى الكلمة، تربّى وسط الحمير يُطعمهم ويعتني بهم وينظف آخورهم، ويحلب ألبان إناثهم. أظن أنه ينبغي أيضًا أن أخبرك أن الآخور هو الإسطبل.

على كل حال، لم يكن رفاعه أكثر من حرفوش، قبل أن تضحك له الدنيا ذات يوم، ويجد نفسه أمام بعض الأمراء المماليك الكبار، كانوا قد جلسوا للاستراحة في أثناء رحلة صيد بري بجوار المرعى الذي كان يصطحب رفاعه الحمير إليه. فقدّم لهم على سبيل المجاملة والخضوع واتقاء الشر، صحن قميز طازج من ألبان الحمير، فأعجب به الأمراء، وذات يوم رفعوا حديثهم عن قميز رفاعه الحلو إلى السلطان. ليتحوّل رفاعه بين عشية وضحاها، من ذلك الصعلوك خادم الحمير، إلى المعلم رفاعه تاجر القميز الطازج، خادم السلطان وساقبه.

ولكن، على رغم كل شيء، فقد ظل يحتفظ بداخله بالصعلوك ذاته سليل الحرافيش. وهكذا، فقد أصبح المعلم رفاعه، على صلة وثيقة بالأمير جقمق الصالحي الذي كان يشغل منصب الأستاذار، وهو الأمير المسؤول عن واردات قصر السلطان من مأكّل ومشرب، كما كان على صلة وثيقة، يمكن أن ترتقي إلى نوع من الصداقة بالأمير سنجر الدقاري، الذي كان يشغل منصب الجاشنكير، وهو المنصب المسؤول عن طعام وشراب السلطان، والمكلّف بتذوّقهم قبل السلطان للتأكّد بأنهم خاليون من السمّ!

كان الأخير، هو الأقرب إلى السلطان، ومحل ثقته، هو من بنينا عليه خطتنا لمقابلة السلطان.

على عربة يجزّها حمار، تَحْمِلُ جِرار لبن القميز الذي يتعيّن توريده اليوم إلى قصر السلطان، ركبت أنا ورفاعة متوجّهين ناحية قصر الروضة، حيث مسكن السلطان، ومقر إدارة شؤون البلاد والعباد، كان ينتظرنا هناك الأمير جقمق الصالحي.

من بوابة خلفية للقصر دلفنا بعربتنا، قمت أنا بإنزال جِرار القميز الفخارية في مخزن مخصّص لها، قام الجند باستلام القميز، وتدوين العدد والوزن بدفتر من ورق البردي، من دفاتر الحسبة، وانتظرنا لحين وصول الأمير سنجر، جاشنكير السلطان، كان يجب على رفاعة وكل مورد مثله أن يتذوق الصنف الذي يورده أمام الجاشنكير قبل أن يتسلمه ويُقدّم هو على تذوقه أمام السلطان، انتظرنا حتى الظهيرة، على دكة خشبية أمام مخزن جِرار القميز، حتى وصل الأمير سنجر معتلي صهوة جواده، في خيلاء.

نظر إلى رفاعة بعدم اكتراث، ثم رمقني بنظرة تلوح فيها علامات الاستفهام، لم ينتظر رفاعة السؤال، فبادر بالإجابة:

- هذا أخي الأكبر سويدان يا أميري.

وسط ملامح غليظة قاسية، ظهر شبح ابتسامة باهتة على وجه سنجر، وهو يومئ برأسه بلا مبالاة، ويعيد النظر إلى رفاعة دون إبداء أي اهتمام، وهو يقول له:

- حسّنًا، هيا، فلا وقت لديّ.

دون تردد أخرج رفاعة من رداءه طبقًا فخاريًا صغيرًا وأمسك

بالجرّة الأولى وأمالها حتى سكبت بعض ما فيها بالطبق، وتجرّعه في شربة واحدة، ثم ذهب يفعل مع الجرة الثانية والثالثة مثلما فعل مع الأولى. ثم توقّف فجأة، وأمسك بموضع معدته، وتحجرت مقلّته وهو يسقط على الأرض يتلوّى من الألم ويصرخ، قائلاً:

- آه يا ويلي، أمعائي تتقطع، يا له من سم زُعاف!

نظر إليه سنجر قاطبًا حاجبيه، ثم ما لبث أن قهقهه من الضحك، نزل من على جواده، واقترب من رفاة، اتكأ على ركبته، وضربه بيده على قفاه، وهو يقول:

- أيها المهرّج، لا تنفك عن الأعيبك تلك أبدًا.

ضحك رفاة وهو ينهض من على الأرض موجّها حديثه إليه سنجر، قائلاً:

- حياتي فداء لمولاي الأمير، إنما رأيتك عابسًا، يبدو على وجهك الضيق يا مولاي، فأردت أن أضحكك.

- أنا بالفعل مهموم على حال مولانا السلطان يا رفاة.

- ومن يجرؤ على أن يصيب مولاي بالهم، أخبرني باسمه فقط وستجده معلقًا على باب زويلة قبل العصر يا سيدي.

ضحك سنجر مجددًا، وهو يربّت على كتف رفاة، ويقول له:

- تعلّقه على باب زويلة، وكيف ستقبض عليه، بكتيبة من الحمير، ما رأيك بدلًا من أن نخلع عليك لقب (أمير خمسة) أن نخلع عليك لقب (حمير خمسة).

قالها وانفجر ضاحكًا، وكذلك رفاعة. حاولت إخفاء ما ظهر على ملامحي من اشمئزاز من ذلك التندر المتعالي من أمير مملوكي، كنت أود أن أسأله ماذا يعني لفظ مملوك من الأساس أيها السنجر؟

هل تجرؤ على إيضاح المعنى، أمام رجل مصري حر، يعيش على أرض وطنه، لم يَبِعْ أو يشتَر من قبل؟!

كتمت ذلك الإحساس، ورسمت ابتسامة باهتة على وجهي حتى انتهى رفاعة من دعاياته السخيفة مع سنجر، ثم استأذنه في التحدث معه للحظات على انفراد. كان كل شيء يسير كما خططنا له، كان يطلب من الأمير الجاشنكير، أن يبلغ السلطان وهو يقدم له القميص أن ثمة رسولاً قادمًا له برسالة خطيرة، تتعلق بأمن المملكة بأسرها من خطر العثملي، ويود أن تكون زيارته سرية وعلى وجه السرعة.

مثلما جرى الأمر في كل المرّات السابقة، كان يبدو أن مقابلة السلطان أمر عسير جدًّا حتى في ذلك الزمان، لم يكن المرء لينال شرف الوقوف أمامه إلا بعد أن يمر على عدة أمراء قبله.

ومثل كل المرات السابقة، استدعوني لأجلس مع أمير المجلس، ثم الداودار، وحتى الأتابك، في حين لم أزد حرفًا على مسامعهم جميعًا أكثر من أن (الأمر خاص بجناب السلطان، لن أتحدث إلا لجناب السلطان، هناك خطر داهم على المملكة بأسرها، وعلى حياته هو شخصيًا، والخطر سينالكم جميعًا إن لم أبلغ مولاي السلطان بالأمر).

كالعادة تركوني أجلس في غرفة مغلقة، حتى دخل عليّ رجل كنت

قد عرفته جيدًا، وقد كان هو الدرجة الأخيرة التي تفصلني عن مقام السلطان، لكنني كنت أحب هذا الرجل.

كان والحق يقال سلطانًا هو الآخر، كان يتبقى فقط ستة أشهر في هذا الزمان على مراسم سلطنته، وإن كانت لن تدوم له طويلًا، وسرعان ما يكتب التاريخ أنه كان آخر سلاطين المماليك على الأرض، بعدما ينال هو الآخر حظه من الخيانة، ويتدلَّى جسده على باب زويلة!

كان الأمير طومان باي، نائب السلطان وابن أخيه. كان شابًا عتيًا، لم يكد يتجاوز الأربعين عامًا، حليق الذقن، كثيف الشارب، ذا طلة مهيبة، وجسد قوي، وطبع هادئ رزين، وعينين تملؤهما الحكمة. عندما دخل عليّ، نهضت من مجلسي وانحنيت، وأنا أبادر بالحديث، قائلاً:

- أهلاً مولاي السلطان.

- لست أنا السلطان يا هذا، أنا الأمير طومان باي.

- سويدان يا سيدي، اسمي سويدان، لكنني قصدت ما قلته للتوّ، فأنا أعرفك باسم السلطان الأشرف طومان باي.

- ماذا تقصد؟

- فليتسع صدر مولاي للحديث، ويمنحني الأمان لسرد كل ما جئت من أجله، فإن ما جئت من أجله لهو أمر عظيم، على المملكة وعلى الجيش وعلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري، وعلى السلطان

الأشرف أبي النصر طومان باي.

- أمنيحك الأمان، هات ما عندك.

شرعت في الحديث إلى طومان باي، فقد كنت اكتسبت خبرة من تكرار هذا الأمر، هي أنه كان أكثر الناس استماعًا، وإنصافًا، وقدرة على استشعار الخطر، وتفهمًا لما جئت من أجله.

كان أصعب ما في مهمتي هي توضيح كيف يمكن لإنسان أن يسافر من زمان في المستقبل إلى الماضي، في زمان لم يعرف التلفاز أو أفلام الخيال العلمي السينمائية، أو حتى روايات الشباب ملف المستقبل.

كما كان من أحدثه أميرًا مملوكيًا حازق الذهن، ثاقب النظرة، ليس مثلما كان جعفر صعلوكًا أبله، كالعادة استعنت بكل مقاطع الهولوجرام التي زودني بها شريف، عن استقبال رسل العثملي، وعن معركة مرج دابق، وخيانة خاير، والبرادلي، وانسحاب الميمنة والميسرة في قلب المعركة ومقتل الغوري، ثم عن معركة الريدانية، وما تلاها من كزّ وفرّ، حتى انسحاب طومان باي، واختبائه في ناحية البحيرة، وخيانة شيخ العربان حسن بن مرعي له وتسليمه إياه، مختتمًا مقاطعي بمقطع شنق السلطان المملوكي الأخير على مرأى ومسمع منه.

طالت جلستنا لأكثر من ساعتين على ما أظن، كان في خلالها مشدوها بما يراه صوتًا وصورة عن مستقبل الأيام السوداء التي لم تعد بعيدة عنه، وعن المملكة كلها. كان ضلّبا، صلدًا، لم يبذ عليه

التأثر من مشاهدة جسده وهو يتدلّى من المشنقة، سوى أن أصابه الهم، وهو يتمتم بكلمات بدا لي أنها حنق على حال أمراء المماليك وتخبّطهم وعدم قدرتهم على الوحدة في وجه عدو مشترك، في النهاية رفع رأسه، وقطّب حاجبيه، نظر إليّ مطولاً قبل أن يتحدث إليّ بهدوء، قائلاً:

- أمهلني بعض الوقت حتى أدبر لك أمر مقابلة السلطان.

خرج طومان باي من الغرفة، أخذت أرثب أفكاري، منتظراً الوقوف أمام السلطان. مرّ بعض الوقت، أظنه ساعة أو أكثر قليلاً، كنا قد أصبحنا وقت الغروب، قبل أن يُفتح الباب، ويدلف منه السلطان الأشرف قانصوه الغوري وخلفه طومان باي.

أغلق طومان باي الباب قبل أن يأمر بعض المماليك الخاصة بحراسة الباب من الخارج ومنع أي أحد من الدخول. انحنيت أمام السلطان، وقدمت له التحية، ردها عليّ، وقال لي في اقتضاب: أرني ما أريت ابن أخي من أحداث الزمان أيها العرّاف.

استغرق الأمر أكثر من ساعة أخرى، كنت قد انتهيت من عرض كل المقاطع على السلطان، وهو صامت تماماً، يتابع بهدوء شديد كل ما يُعرض أمامه، حتى انتهيت، التفت إليّ قائلاً:

- أنت عرّاف ماهر إذًا، وربما ساحر عظيم، بدلاً من أن تستبصر وتروي لنا أحداث المستقبل، تصوّرنا لهذا النوع من السحر.

- لا يا خوند، أنا لست عرّافاً ولا ساحراً، أنا رجل عادي، مُعلم بسيط للغة العربية، وُلدت في عام ١٩٥٢ ميلادي، أي بعد قرابة أربعمئة

وثلاثين سنة من اليوم، وقرأت كل ما عرضته على مولاي السلطان في كتب التاريخ في زماني، ثم أتى لي شخص من زمان بعيد يملك تلك التقنية التي مكنتني من عرض التاريخ عليك يا سيدي.

- حسناً، وإن صدقت هذا الهراء، فهل يُفيد ذلك بشيء الآن؟

- نعم يا خوند، إن منحتني الأمان لعرض أمري.

- أمنحك الأمان، هات ما عندك.

- سيدي، أنا رجل من رعيتك، أقف الآن على أرض مصر، وفي هذا التوقيت أنت سلطان البلاد، وأنا جندي وفي لهذه البلاد، إن سمحت لي، عرضت عليك ما أرى، علّه يُصلح الأحوال ويبقي البلاد شر الأهوال، ويقرب الآمال، ويجعلك تظفر بالمنال، والأمر في النهاية مرفوع لمقام السلطان، يأمر بما يرى، وعلينا الطاعة.

- أنت تحسن البيان يا سويدان.

- شكرًا لك يا مولاي.

- تكلم يا سويدان، أعطنا مشورتك.

- الحرب خدعة يا سيدي، وتخطيط، وتسليح، وكرّ وفرّ، سيأتي إليك رسل ابن عثمان بكتاب لن يسرك مقاله، وستأخذك العزة والنخوة وتطرد رسله وتهينهم، وبذلك تعلن الحرب، في الوقت الذي دارت فيه الدوائر على جيشك وضعفت شوكته، وهذا ما يريدّه ويسعى إليه العثماني تمامًا يا سيدي.

- وبمّ تشير علينا إذا يا سويدان؟

- اكظم غيظك يا مولاي، لا تُجب الرسل وأنت في ثورة غضبك، لا تهدي إليه الفرصة لشنّ حرب أنت لست مستعدًا لها، وأنت سيد الحروب والمعارك يا سيدي وتعرف جيدًا أن هذا هو نعم الرأي.

- ثم ماذا بعدما أفعل ذلك؟

- استخدم الحيلة يا سيدي، الحرب خُدعة كما تعرف، ابعث إليه بكتاب تطلب فيه إعلان الهدنة حتى انقضاء موسم الحج، ثم التفاوض على شروطه، ومهلة لتدبر أمر التنحي عن السلطنة إن لزم الأمر، المهم أن تكسب الوقت، الحرب آتية لا محالة يا سيدي، لكننا لابد أن نؤجل موعدها، حتى نُعد العدة لها، الوقت سلاح فتاك في كسب الحروب يا سيدي، ثم وبعد أن تمتلك بعض الوقت، انظر في أمر الجيش وجاهزيته، مولاي يملك علاقات طيبة بملوك الشرق والغرب، استقدم بعض المدافع ذات العجلات يا سيدي، وعلى الفور اجعل ورش تصنيع آلات الحرب تصنع منها عديدًا من النسخ، إن امتلك العثماني ثلاثمائة منها، دعنا نمتلك ألف مدفع أو يزيد، وكذا بنادق للرماة، باختصار شديد، احرص في فترة الهدنة على تطوير تسليح الجيش يا سيدي، أنت تواجه جيشًا يحارب بالبنادق في حين لا يمتلك المماليك سوى السيوف والرماح، وست مدافع عتيقة فقط، ثابتة بلا عجلات.

- ولكن الخزانة خاوية يا سويدان، أراك تعرف جيدًا ما كُتب في كتاب التاريخ.

- استعن بالمصريين يا سيدي، فلا أفضل منهم ولا أكرم في الزود

عن بلادهم في الأزمات، لكن اسمح لي، احرص يا سيدي على وضع الأموال في وجهتها الصحيحة، واضرب على يد كل أمير طامع أو فاسد أو مارق أولاً، استقو بشعبك عليهم، أنت سلطان كل المصريين لا الأمراء منهم، اقترب من الناس، حدّثهم في الأسواق، اجعلهم شركاء في الغمة، وأطلعهم على ما ينتظرهم إن لم يقفوا وقفة رجل واحد اليوم، ففي مثل هذا اليوم يا سيدي، لا صوت يعلو على صوت المعركة، والمعركة معركة وطن يا مولاي، لا معركة سلطان أو أتاك جيش.

- وتظن أن ذلك يمكنه أن يجمع ثمن ألف مدفع وآلاف البنادق.

- وأكثر يا سيدي، أنا أقسم لك، عندما يتعرض هذا الشعب إلى أزمات تقرير المصير، إلى خطر وجودي، إلى العبث بمقدّراته، يقف كالمارد مضحّيًا بالغالي والنفيس، للزود عن بلده، في التاريخ الحديث يا سيدي عشرات الأمثلة، لم يأت زمانها بعد، وإن سمحت لي...

- ماذا تريد، تكلم، لقد سبق أن منحتك الأمان.

- القصور والضياع والحليّ والدنانير المخزّنة لدى الأمراء ورجال البلاط والدولة، لا بد أن تبدأ بهم، وليكن أول متبرع بماله هو جناب السلطان ونائبه، عندما يجد الشعب سلطانه وأمراءه يقدمون أغلى ما لديهم، سيقفون إلى جوارهم، ابدأ بنفسك يا مولاي، وأخبر الأمراء أنهم مخيرون بين القصور والقبور!

- تريدني أن أقتل من يعصى أوامري منهم، أنت لا تعرف الممالك جيّدًا يا سويدان، ما تقوله سيصنع فتنة كبيرة.

- لا يا سيدي، لم تفهم مقصدي، لست أنت من سيقتلهم، العثمانية سيفعلون، بعد موتك أنت والأمير طومان باي، أطال الله في أعماركم بالخير، ستدور الدائرة عليهم أجمعين، سيعيث جنود ابن عثمان في ديار المصريين وفي الأزقة والحارات والحوانيت، وكل شبر في أرض مصر يبحثون عن الجراكسة ويقتلونهم وينكلون بهم، لن يبق منهم حي، سوى الخونة لك.

- ما تشور به علينا عسير جدًا يا سويدان.

- ما من حرب يسيرة يا سيدي، كل الحروب غُسر، لكن بعد الغُسر يسرًا.

- فليكن، وإن فعلت كل ذلك، ماذا بعد؟

- سارع بعزل خاير الخائن من ولاية حلب، وعزل جان بردي الغزالي من ولاية حماة، وأمسك زمام أمور الشام قبل الزحف إليها، ثم بعد أن تُعد العدة يا سيدي، ويظهر لابن عثمان، زيف الهدنة، وتنكشف الخديعة، سيزحف على رأس جيش قوامه مائة وعشرون ألف مقاتل، في حين جيشك سيكون أربعين ألفًا فقط، لذلك فالمشورة يا سيدي، لا تلاقه في مرج دابق أبدًا، المروج يا سيدي أراض واسعة مفتوحة، تدور الحرب فيها بمواجهة الجيشين، وهذا ما يريده تمامًا، وسيسعى إليه، لذلك لا تجعله يمتلك الأفضلية، وأنت يا خوند سيد الحروب والمعارك وأعلم مني بذلك.

- أكمل حديثك يا سويدان.

- اسع لملاقاته في ممر جبلي يا سيدي، وليكن بيت ياشوط، أو

فتحة حمص، انتزع منه أفضلية المواجهة، وأجبره على دفع جيشه في موجات قليلة العدد، بعد أن تعتلي مدافعك الهضاب والتلال، ويعتلي الرماة ميولها الأمامية، ثم ابعث له حينها بردك على رسالته الوقحة، برسالة مهينة، بأقذع الألفاظ، رسالة تجعله يغتاظ أي غيظ، وتصيبه بالحنق وتدفعه لفقد أعصابه، وتجعل منه شخصًا لا يرى شيئًا سوى الانتقام، في ذلك الحين ستأخذ العزّة، وتحركه الضغينة، وحينها سيفقد كل حكمة ويظل يدفع بجيشه إليك لقمة سائغة في موجة تلو الأخرى، وعندما يعم الهرج في صفوف جيشه يا مولاي، ادفع بكتيبة من مغاوير المماليك الخاصكية تلتف من خلف الجبل، وتهاجم مؤخرة جيشه، تدمر المؤن والذخائر وفناطيس المياه، وتصب القطران في فوهات مدافع المؤخرة، وتحدث هرجًا ومرجًا كثيرًا، وتضرب عزيמתهم في مقتل، وعندما يتشتت الجيش وتذب فيه روح الهزيمة، ابدأ الهجوم الكاسح بالفرسان، مخترقًا قلب الجيش، واطبق باليمين والميسرة لتصنع جدارين كثيفين من العسكر، بما يؤمن نجاح معركة قلب الجيش، وتحت قصفات المدافع من الجبل، حينها لن يكون لابن عثمان سبيل إذا لم يُقتل، إلا التقهقر والهرب مدحورًا.

- أراك محاربًا عتيدًا يا سويدان، ليست هذه كلمات مُعلّم.

- كتب التاريخ تذخر بأخبار المعارك يا سيدي، وأنا قارئ نهم.

- لقد أحسنت مشورتنا يا سويدان، السلطان مدين لك.

- مولاي السلطان ليس مدينًا لأحد، أنا جندي أزود عن بلادي

بروحي لا بمجرد مشورة.

- ونحن نقدر لك ذلك يا سويدان، وقد خلعنا عليك عباءتنا تلك،
وننتظرك على مائدة العشاء، أنت اليوم ضيف السلطنة.

قالها وهو يخلع عباءته ويضعها على كتفي، حين صفق طومان باي
بيديه، فانفتح الباب، نظر إلي الغوري بمودة وابتسم، ثم أدار وجهه
عني في عجلة وانصرفا معًا.

أخبرتكم يا بني، أنها كانت المرة السابعة، لكن الحق يقال، كان لحم
الخروف المشوي شهياً جدًا هذه المرة، كذلك كانت الملوكية طازجة
جدًا.

كانت الدهشة بادية على السلطان حين علّته كيف يصنع من
قطعة من رغيف الخبز الشمسي (ودن قطعة)!

لكنني -والحق يقال- لم أستطع أن أتجرّع أكثر من رشفة واحدة
من حليب القميز، إكرامًا للسلطان ليس أكثر، كدت أفرغ ما بجوفي
حين تخيلت يد رفاعة وهي تحك قفاه من العرق ووسخ الزريبة ثم
تحلب ضرع حمارة في كأس!

يا للمماليك، وقميزهم!

بيد أنني لم يكن من السهل عليّ أن أرفض مائدة تقام على شرفي،
أو أن أكون ضيف السلطان، ليس ذلك بأمر يحدث لك كل يوم، أو
بالأحرى، سبعة أيام.

كان هذا ما كتبت في يوم الأربعاء الموافق ٢٣ فبراير عام ٢٠٢٢.

انتہی.

الخاتمة

تلك هي خاتمة يومياتي، وها أنا أكتبها إليك يا بني رغم كل شيء.

ترددت كثيرًا قبل أن أكتب ما رأيته اليوم، بعد ما حدث، وبعد ما آلت إليه الأمور، بعد أن عشت الكارثة واطلعت عليها. فكرت مرارًا في تمزيق كل شيء، كأنه لم يكن، وتمنيت النسيان في دوامة الزمان، في الحقيقة أن ذلك النسيان كان أكرم لي، كان سيصبح أفضل ما يحدث لي في هذه اللحظة. لكنني في النهاية عدلت عن ذلك، وارتضيت أن تلعنني، ويلعنني كل من سيعيش في زمانك. ارتضيت أن تستهلّ يومك كل صباح وكل مساء، بأن تستعيز بالله من الشيطان الرجيم، وتلعن نائلًا إلى يوم الدين.

هأنا أفضح لك سري، الذي كان سببًا في كل مصائب الدهر، التي ستعاني منها ويعاني منها وطني إلى أجل لا يعلمه إلا الله. نعم يا بني، لقد كنت أنا هذا الغبي، أنا هذا الأخرق الذي سبّب لك كل ما ستعيشه من واقع أليم. وقد رأيت أن من العدل أن تعرف حكايتي حتى النهاية. لعلي بها أعلمك درسًا قاسيًا جدًّا على نفسي، أكثر قسوة عليك وعلى كل من سيعيش في زمانك، كنت أتمنى أن يكتب عني التاريخ المُعلم الصالح نائل سويدان، لكنه بكل ألم، سيكتب الأحمق الأجرب الملعون.

اسمع مني حكايتي يا بني، فإنها الحكاية الأخيرة.

كنت عائدًا يكاد يقتلني الفضول لمعرفة ما سأجده من تغييرات

حدثت في حاضري. وما إن وصلت إلى زماني، حتى سرت في الطرقات أتلمس معرفة الفارق من عيون الناس، وأحاول التعرف على ما سأجده في واقعهم، وما سيمكنني أن أقرأ عنه مدوّنًا في كتب التاريخ، وما سيصنع بالحاضر من تقدّم ومدنية وحضارة. حتى رأيت الصدمة..

رأيت شوارع مظلمة، مقفرة، قذرة، خربة، كأنما أصابها وابل فطمس مع معالمها كل خير فيها، لم أجد أثرًا لبنايات أو ناطحات سحاب، أو أشجار وبساتين وحدائق غناء، لم أجد أثرًا لميادين وطرقات وأحياء، لم أجد أثرًا لعمران حديث كان يباهي مدن العالم، لم يكن هناك على مرمى البصر سوى أطلال مهدمة لقلعة صلاح الدين فوق هضبة المقطم، وأطلال أخرى لبعض مآذن مساجد العباسيين والفاطميين والمماليك.

كان كأن الزمن قد توقف عند عصرهم، ثم بدّل اتجاهه إلى الخلف. كانت أطلال الذكريات القديمة هي كل ما تبقى من عالمي الذي كنت أعرفه. لم أجد تلك المدينة التي لا تنام، مثلما تركتها ورائي، بل وجدت حاضرها قد أصبح هباءً منثورًا، حصيدًا، خاوية على عروشها، كأن لم تغنّ بالأمس.

لم يكن بها سوى بعض البيوت البدائية من الطين، والغشش، وبيوت صنعت من الصفيح الصدئ، الشوارع من التراب الأحمر، تسير بها كل فينة سيارة قديمة متهاكة فتثير غيمة من التراب والعدم، في حين يغلب على الطرقات العربات الخشبية التي تجرها الحمير والبغال، وأكوام من النفايات في كل مكان، تفوح رائحتها فتزكم

الأنوف وتشى بما تحمله من أمراض عضال، وغربان تحلق في السماء كغيوم سوداء جاثمة على وجه الأرض الحزينة.

وعشرات المشرّدين بالعراء، يفتershون الأرض ويلتحفون بالسماء، ومئات المتسولين في كل مكان يلتمسون المساعدة ممن هم أكثر منهم بؤسًا، وعصابات من المجرمين تهتك عرض ما تبقى من أمان للناس، وبنات ليل قبيحات، كأنهن جراء شاردة يبحثن عن لقمة تسد جوعهن، بسد جوع حقراء البشر بعد العبث بأجسادهن الرخيصة الواهنة.

سرت بضع خطوات كالمجذوب، أتلّفت حولي لا أصدق ما أرى. حتى شعرت بوخز نصل معدني يكاد يخترق جانبي الأيمن، توقفت رغبًا عني، عندما صاح بي أحدهم (قف مكانك)، لم أكد ألتفت حتى وضع أحدهم خنجرًا على رقبتى، وهو يصيح بي (هات ما معك)، لم يكن معي شيء من الأساس لأعطيهم لهم، عبثت أياديهم النتنة بجسدي يفتشون عن أي شيء أخفيه في جيوبي، لم يعثروا على شيء.

لكنهم كانوا بؤساء بما يكفي لأن يجدوا في ملابسي غنيمة معتبرة، جرّدوني من الجلاباب المملوكي والمركوب، وما إن فعلوا، حتى رأوا الخلة الميكرونية التي كنت أخفيها في ثنايا ملابسي تحت الجلاباب.

بالطبع كانت كأنها كنز لهم، لم يدركوا عنها شيئًا، لم يفكروا في السؤال حتى، كان يكفيهم أنها مختلفة، وثمانية على ما يبدو، يمكن بيعها مقابل بعض علب الطعام وخرطوشة سجائر، أو مقايضتها مع

أحد الرعاية مقابل حمار مريض أو كلب سمين، يمكن قتله وأكله ليسد جوعهم عدة لأيام!

كانوا أولئك الملاعين كرماء بحق، بترك ملابسي الداخلية على جسدي. كانت أنصال أسلحتهم البيضاء التي هددوني بها قد تركت آثارًا من الجروح على يديّ ورقبتي، فرغوا مني أخيرًا، نظرت إليهم بغيظ، لا أدري هل ألعنهم أم أشفق عليهم، وأقدم لهم اعتذاري على كوني سببًا في جعلهم بهذا البؤس والحقارة، حتى أحسست بضربة قوية على مؤخرة رأسي، أفقدتني الوعي.

بعد عدة دقائق، فتحت عيني وأنا أظن أن ما حدث لي كله كان كابوسًا مقيتًا، لكنه بكل أسف لم يكن حلمًا، كان واقعًا أسود، كان أحد المشرّدين قد عطف عليّ عندما رأني بهذا الشكل وألقى على جسدي قطعة قماش، كانت على ما يبدو قفطانًا قديمًا قبل أن تصبح كأنها ممسحة للأرض، يفرشها تحت جسده الهزيل، لم يكن بوسعي سوى أن أشكره على ستر جسدي بقطعة قماش بها من الوسخ أكثر ما بها من عُقد خيوط الكتان، تفوح منها رائحة العرق وربما رائحة بول الكلاب الضالة.

وضعت الخُرقة على كتفي، ونهضت سائرًا، بقدمين حافيتين إلى حيث لا أدري. هبط الليل سريعًا، كأنه أشفق على النهار، واستعجل تخليصه مما يعانيه.

من مكان بعيد، لمحت أنوارًا ساطعة، تتسلّل من خلف سور عالٍ، يقبع خلفه بناء عظيم، لم يكن على مرمى البصر أي آثار للمدينة

والحضارة سواه، دنوت من أحد الرجال المفترشين الأرض، وسألته
عن هذا المكان ذي الأنوار الساطعة، اعتدل في جلسته، ولملم
قميصه المهترئ قبل أن يجيبني:

- إنه معسكر الخواجات، من أين أنت، ألا تعرفه؟

- عذرًا، فأنا غريب، أي خواجات تقصد؟

- أي خواجات؟ الخواجات المحتلين يا هذا، كيف لا تعرفهم، من أي
دويلة أنت؟

أسقط الأمر في يدي، محتلون؟ أي احتلال؟ من هؤلاء الخواجات؟
وماذا يعني هذا الأخرق بالدويلات؟ لا ريب أن الرجل سكير غائب
عن الوعي، لا ريب أنه قد تجرّع زجاجتين من الخمر المغشوش لتوّه
حتى يهذي بهذه الكلمات.

تركت هذا المخبول، وبحثت عن أي رجل عاقل يمكنني أن أسأله
عن كل هذا الجنون، لمحت من بعيد رجلًا طاعنًا في السن، ربما كان
يكبرني بسنوات، يفتش في كومة نفايات عن أي شيء يدسه في
فمه، ذهبت إليه وطلبت منه الإيضاح.. ولم يبخل عليّ الرجل، قال
لي كل شيء، ويا ليتته لم يقل...

ويا ليتني لم أُولد!

لم أكن أجرؤ على تصديق ما قاله الرجل، كان واقع أسوأ من كل
الكوابيس التي يمكن أن أتصورها، تركته ورحت أبحث عن بيتي،
وعن نفسي..

لمحت من بعيد عربة خشبية يجرها بغل، تسير قاطعة الطريق المظلم، كان يملكها جامع قمامة، عرفت بعد ذلك أنه لم يكن يجمع القمامة ليحرقها أو يخلص الناس منها، بل كان ينتقي منها ما يصلح للبيع في سوق الجمعة، حيث أصبح للقمامة سعر في هذا الزمان..

استأذنته أن يوصلني إلى شرق القاهرة، بعد أن أخبرته أن القمامة هناك تذخر بعدد من الأصناف الثمينة بعكس قمامة وسط البلد، كان يبدو أن الرجل لا يبتعد كثيرًا عن موقع عمله، على عربة خشبية، وبسرعة سير البغل، كانت بالفعل مصر الجديدة تُعد نوعًا من الارتحال والسفر الطويل.

لم يكن الرجل يعرف ماذا يعني شارع سفير عندما أبلغته وجهتي لأول مرة، لم يكن يعرف من الأساس منطقة تحمل اسم مصر الجديدة!

جلست على العربة طوال الرحلة أتأمل ما كانت عليه القاهرة من فقر وجهل وعشوائية وغوغائية، على مدار ساعتين، كنا نسير في دروب من الحصى، بين العشش والخيام. حتى وصلنا إلى ما حسبته يشبه ضاحية مصر الجديدة، وجّهته إلى الموقع الذي كان يماثل شارع سفير الذي كنت أعرفه.

كان طريقًا ترابيًّا شق في الصحراء من آثار الدواب، كانت هناك بعض البيوت الطينية والعشش هنا وهناك شُيدت في عشوائية حول الطريق. كانت الدنيا قد أظلمت تمامًا، عدا ضوء القمر. يبدو أنه كان الناجي الوحيد من عالمي الذي كنت أعرفه!

في وسط البيوت كان هناك مجلس من الحصير، يجلس عليه بعض الناس، يتوسطه موقد من الحطب، يعلوه إبريق كبير لصنع الشاي، عليه من الهباب الأسود طبقة أكثر سماكة من طبقة الصفيح التي صنع منها، ورجل يصب الشاي المغلي لعدة مرات، للجالسين في أكواب من الصفيح مقابل بضعة قروش أو مقايضة ببيضة أو رغيف من الخبز.

دلفت إلى المجلس، بحثت بين الجالسين عن شخص بعينه. كنت أبحث متلهفًا عن الأستاذ فكري، صديقي القديم، مُعلم التاريخ.

بعد عناء وجدته، يجلس منزويًا في أحد الأركان، في البداية لم أعرفه، بدا شاحبًا هزيلًا، يرتدي جلبابًا باهتًا، لم أتبين له لونًا من الأساس، ذهبت إليه وجلست بجواره، مشدوها صامتًا لا أنبس ببنت شفة.

بادرني بالحديث قائلاً:

- أهلاً نائل، ما بك يا صديقي؟ أراك مهمومًا.

- ألا ترى ما حل بنا.

- وماذا حل بنا؟

- هل تسألني؟ ألا ترى هذا الفقر والجهل والعشوائية، وكأننا نعيش كالذباب.

- وما الجديد؟ أليس هذا حالنا منذ وُلدنا.

وقعت كلماته عليّ كصاعقة برق ضربت رأسي من سابع سماء،

نعم، بالطبع، لا بد أن يكون كذلك، لقد تغيّر كل شيء عبر الزمن، وهذا نتيجة التغيير، نعم بالطبع، هذا منطقي طبقًا لقانون الجنون الذي عبثت به كالأحمق.

قلت له:

- آسف، لقد تعرّضت لتوّي لمحاولة تعدّ وسرقة، وتلقيت ضربة على رأسي أصابتني ببعض التشوّش.

لم يبدُ عليه أي نوع من الدهشة، كان الأمر يبدو كأنه حدث عادي يتعرّض له الناس كل ساعة، كان هذا على الأغلب هو السبب في أن الطرقات كانت تعجّ برجال يحملون النبايت والهراوات والعصى والسكاكين، يحفظون أمن هؤلاء البؤساء ممّن هم أشد منهم بؤسًا مقابل إتاوة، تسد جوعهم.

تابعت حديثي قائلاً:

- هلاً شرحت لي ماذا أوصلنا إلى هذه الحالة، رجاءً قص عليّ حكاية التاريخ، بداية منذ نهاية عهد الممالك؟

لم يبخل عليّ أستاذ التاريخ، روى لي كل شيء، كما اعتاد روايته لتلاميذ الكتاب الذي يجلس إليهم كل صباح يُحدّثهم عن ماضي الزمان، ليعود آخر النهار برغيفين وقطعة من الجبن يسد بها جوع أهل بيته.

كنت جالسًا أمامه كتمثال من الشمع، أستمع لحديثه الطويل حين قال:

- بعد أن دحر السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي، آخر وجود للصليبيين في الشام، وحرّر أنطاكية في العام ١٢٦٨م، وبعد فشل الحملة الصليبية الثامنة على تونس في نفس العام، لم ينس الصليبيون ثأرهم، ولم يتوقفوا لحظة عن أطماعهم في الشرق وفي إفريقيا، وبحلول عام ١٤٨٨ عندما اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، عادت أساطيلهم البحرية تغزو البحر الأحمر والمحيط الهندي، وتنشئ حاميات على سواحلها وتطبق رويدًا رويدًا على المشرق العربي ودول إفريقيا الغنية بالماس والمعادن والذهب، حتى تصدّى لهم السلطان قانصوه الغوري، وجرت معارك عديدة بين أسطول المماليك والأسطول البرتغالي، كان أشهرها معركة شاول على ساحل الهند، في العام ١٥٠٨ والتي انتصر فيها المماليك واستعادوا السيطرة على سواحل الدولة والجزيرة العربية، لكن ذلك زادهم حنقًا وكراهية وطلبًا للثأر، وطمعًا في احتلال بلادنا ونهب ثرواتها.

- كل هذا صحيح، قرأت كل هذا في كتب التاريخ، فماذا حدث بعد ذلك حتى أدى بنا إلى هذا الوضع؟

- حقبة حروب المماليك والعثمانيين بالطبع يا نائل.

- حقبة حروب؟! أي حقبة حروب هذه؟! وماذا حدث فيها بالله عليك؟

- عندما انتصر قانصوه الغوري على جيش العثمانيين في معركة بيت ياشوط، فتح ذلك الباب لحرب طويلة بينهما استمرت أكثر

من عشرين عامًا بين كَرّ وفرّ، أنْهَكَ فيها الجيشان، ونفدت فيها خزائن الدولتين وانهار اقتصادهما، كانت تلك العشرين سنة كفيلة بتجهيز أكبر حملة صليبية عرفها التاريخ، وآخرها، الحملة الصليبية التاسعة، بتعاون كل دول الغرب مع البرتغاليين، وتجميع كل جيوشهم وأساطيلهم البحرية، وبقيادة كل ملوك الغرب، هجموا على دول المشرق والمغرب وجنوب وشرق إفريقيا في تزامن، وبجيش قوامه مليون مقاتل من كل الجنسيات الأوروبية، لم يكن لأحد في ذلك الوقت القدرة على مواجهته قط، لقد استغلوا ضعفنا، وانشغالنا بصراعات داخلية، وصراعات فيما بين دولنا، واجتاحت الجيوش الجرارة كل الدول العربية والإفريقية، وحتى بلاد الأناضول، وقسّموا الغنيمة فيما بينهم، حيث قُسمت مصر إلى دويلة شمالية، وشرقية، وغربية، وجنوبية، ودويلة النوبة وشمال السودان، في حين أعطيت سيناء لأولئك الذين اجتمعوا من الشتات من كل دول العالم، ومنذ ذلك الوقت وبلادنا تحت احتلال الخوارج يا نائل.

- يا ويلي، وطننا محتل منذ خمسمائة عام!

- أنت مشوّش الذهن بالفعل، وكأنك لا تعرف!.

- أنا بالفعل مشوّش يا فكري، لكن يبدو أنني عرفت الآن.

كنت أتصبّب عرقًا من هول ما سمعت ورأيت، وبينما كان فكري يحاول استكمال حديثه، سطعت أنوار عالية من عدة كشافات لسيارات حربية، أثارت عاصفة من التراب، قبل أن تتوقف أمامنا وينزل منها عديد من جنود الخوارج.

دون أي مقدمات أو مبالاة لأحد اقتحموا المجلس، وأخذوا يتفحصون الجالسين، ويشيرون لبعضهم ليركبوا سيارة كبيرة ذات صندوق خلفي، كان من يشار إليه لا ينبس ببنت شفة، يطأطئ رأسه ويمتثل للأمر فحسب، بعد أن يكلف أي رجل من الجالسين أن يخبر أهله بأنه ذاهب عنهم إلى أن يشاء الله.

كنت أنظر بدهشة ورعب، لم أستطع النطق أو الحركة. سلط أحدهم كشافًا قويًا على وجهي، أمسك ذقني بيده وأخذ يلوي وجهي يمينًا ويسارًا ويفتح فمي بيده، كأنه يتفحص جارية معروضة للبيع في سوق نخاسة، أو خروفاً في سوق ماشية قبيل عيد الأضحى، ثم ما لبث أن أشاح وجهي بيده، وبصق على الأرض، وتركني ليفعل مثل ما فعله بي مع باقي الجلوس.

انتهى الانتقاء، واكتفوا بما جمعوه من الرجال الأشداء، حين لم تتسع العربة لموضع قدم آخر، شحنوا البضاعة كأنها شحنة من الدواب، ورحلوا. لم يبد على أحد الجالسين الدهشة، وكأن ذلك الأمر كان روتينيًا، عادوا إلى أحاديثهم ببساطة كأن شيئًا لم يحدث!

نظرت بهلع إلى فكري، سألته، ماذا يحدث، أجابني بلا مبالاة:

- لا شيء، إنهم ينتقون بعض الرجال للعمل بالمناجم، مثلما انتقوا مراد ابنك الأصغر من قبل، كيف بالله عليك لا تعلم هذا؟!

- مراد؟! ابني؟! مُستعبد مثل هؤلاء، يا ويلي.

صرخت ملتاغًا على مصير ابني، ومصير كل من مثله، ولم أتمالك نفسي من البكاء، انهارت كل قواي، ووقعت على الأرض مغشيًا عليّ.

لم أعرف كم مضى من الوقت قبل أن افتح عيني لأجد حولي حلقة من الناس، وبجانبى فكري، وأجد وجهي وجلبأى مبللاً بالمىة، نهضت، جلست منزوياً بأحد الأجناب، طأطأت رأسى بخجل مما فعلت، قبل أن يحاول فكري تهدأتى قائلاً:

- هون عليك يا أخى، كل أبنائنا مع ابنك فى المناجم منذ شهور.
- وهل تظن أن ما تقوله يهون على، ثم عن أى مناجم تتحدث؟
- مناجم الذهب بالنوبة والسودان بالطبع، على كل حال لا تخش شيئاً، نحن عجوزان، لن يختارانا أبداً.
- قالها ببساطة المعتاد على الأمر، المجبول على الرضوخ والهوان، صرخت فيه فجأة:

- الذهب... نعم، الذهب، لقد فهمت الآن!

- ماذا فهمت؟

- لا عليك، ولكن هل بهذه السهولة، يساق أبنائنا كالنعاى لاستخراج خىرات بلدنا لصالح الخواجات؟

- تتحدث كأن للبلد جيشاً يحاربهم.

- نعم، أنت على حق، أين الجيش؟

ضحك ضحكة مريرة ساخرة قبل أن يجيبنى، قائلاً:

- لم يعد هناك جيش منذ عصر الممالىك يا نائل، ماذا دهاك اليوم؟

- لا شيء، أنا فقط أعاني من كابوس مرير.

- أعتقد أنك بحاجة إلى الراحة فعلاً.

- ليتني أرتاح الراحة الأبدية يا فكري، ليتني أنام فلا أصحو ثانية، من فضلك، هل يمكنك إرشادي إلى بيتي، أنا لا أعرف كيف أذهب إليه.

- لا تقلقني عليك يا صديقي، أل هذه الدرجة أنت مشوّش الذهن.

- لا تقلق، لم يعد هناك شيء يدعو للقلق بشأنه، لم يعد هناك أي شيء من الأساس!

- قم معي يا نائل، سأوصلك إلى بيتك.

نهضنا معًا، سرنا في الشارع الترابي، حتى وصلنا إلى عشة من الأخشاب المهترئة، ذات باب من الصفيح، أشار إليّ بيده عليها، نظرت إليه بدهشة، كتبت سؤالي، هل هذا بيتي؟ هذا البيت لا يليق بحمير رفاعة، لكنني كنت أستحق أكثر من هذا.

دلفت إلى داخل العشة، كان الجميع نيامًا، وجدت مصباحًا زجاجيًا تفوح منه رائحة الكيروسين، يبدو أن أحدهم قد ملأه قبل أن ينام، ووجدت بجواره هذا الدفتر الذي أكتب لك فيه آخر كلماتي.

لقد اتضح كل شيء يا بني، وكُشفت الخدعة..

أنا هو الأحق الذي جنّده العالم السفلي ليعبث بتاريخ بلاده، ويهدي إليهم نهب ذهبها على مدار خمسة قرون من الزمان، ليكّدسه في خزائن الأرض السحيقة، ثم يستخرجه منها ويستعبد البشر بعد

آلاف السنين، بعد أن استعبدوا أبناء وطني، ومزقوه إلى دويلات وألقوه في ظلام، وجهل وفقر وجوع. أنا من أهدي إليهم ما كانوا يطمحون إليه.

لم يكن شريف شريفًا قط.. خدعني الوغد الحقير، وحين ظننت أنني أزود عن بلادي مضحيًا بحياتي ومخاطرًا من أجلها، كنت في الحقيقة أعاون أعداءها على احتلال أراضيها ونهب خيراتها، كنت أعاونه دون أن أدري على تسريع خطتهم، وبدلاً من أن تتم بعد آلاف السنين كما أخبرني، جعلتها أنا تتم في زماني، وجعلت من نفسي ومن أبنائي وأحفادي عبيدًا يعملون بالسخرة في مناجم ذهب بلادي ليهدوه إلى الخواجات.

أي ذل ومهانة جلبتها إليهم، وإليك يا بني أنت وأبناء جيلك وما سيلي جيلك من أجيال متعاقبة، يا ليتني كنت مت قبل أن ألقاه، قبل أن أحمل عار بلد بأكمله، ولعنة أجيال من البشر!

كيف كنت بهذه السذاجة، كيف لم أفهم، كيف لم أدرك أن أخطاء التاريخ وجدت ودونت في الكتب لتتعلّم منها، لا لنصوبها، كيف لم أفهم أن تصويب خطأ قديم، يمكنه محو آلاف التصويبات والبطولات من رجال جاهدوا لتصويبه فيما بعد، كيف أهدرت بحماقة، جهد ملايين البشر، كيف أطبقت عليهم قبورهم وألقيت بسيرتهم إلى دوامة النسيان، لقد صنعت بهم ما جعلني أكتب إليك كلماتي لكيلا يُصنع بي، كيف لم أدرك أن الأخطاء هي طبيعة البشر، كيف تخيلت ماضيًا يخلو من الأخطاء، ودولة لا تغيب عنها شمس القوة.

لماذا لم أدرك أن كتاب التاريخ فصول وصفحات، كتاب التاريخ كائن حي، مثلنا جميعًا، يحبو، وينهض، ويشتد عوده، ويصلب ظهره، يقوى ساعده، ينضج ويمتلك الحكمة، ثم يشيخ، وتخور قواه، وينحني ظهره، ويموت.. صفحة تُطوى، لتحبو صفحة أخرى وتُعيد الكرة.

لم يكن التاريخ أخبار انتصارات الملوك والسلاطين فحسب، بل أخبار خطاياهم التي لا تُغتفر، وأخبار الرجال الذين حملوا على عاتقهم تصويب الأخطاء.. والخطايا. أما المحتلّ فهو المحتل في كل زمان ومكان، الغاصب المغتصب على مر العصور. وهأنا أمامك أنموذجًا لأخطاء التاريخ التي لا تُغتفر، ربما لم أكن أقصد، لكنني بخطأ صغير، دمرت مستقبل ملايين البشر في هذا الوطن، وربما يا بُني، بتصرف صحيح صغير منك، ومن غيرك، تصوّبون هذا الخطأ، فهكذا كان وسيظل التاريخ، كقطع من الحجارة يتم رصّها فوق بعضها، الواحدة تلو الأخرى، حتى تصبح بناءً شاهقًا، لا يمكنك تغيير موضع حجر من أحجار القاعدة أبدًا، وإلا انهار البناء!

مثلما فعلت أنا، وحزّكت الحجر، بعد أن تم البناء. وهأنا أرجوكم، اغفروا لي، فأنا رجل عجوز، قد أصابه الخرف، ولم يكن من الحكمة أن يُسند إليه هذا الأمر الجلل.

في نهاية كلماتي...

أيا بني، كنت أتمنى أن أترك لك درسًا وسيرة ذاتية، فتركت لك لعنة وحكاية رجل ملعون.

لقد كنت مجرد رجل حاول تصديق أحلامه وأحلام أجيال وأجيال،
أحلام وطن وشعب وأمة، وآمن بتحقيقها، وبذل في سبيل ذلك قدر
استطاعته، لكنه استفاق على كابوس مرير، أدرك بعد فوات الأوان أن
الأحلام وإن كانت مشروعة، لم تكن سوى... أحلام!

وها هي قصتي تنتهي عند هذا الحد، قصة الحالم الأحمق الذي
ستلعه الأجيال. فإن كنت تاركًا شيئًا ما يشفع لي عندك، فهو أنني
كنت صادقًا فيما رويته لك، حينما تلعنني كل صباح يا بني تذكر أنني
لم أرد لك هذا المصير.

فلتناضل يا بني، أنت ورفاقك، قاوموا الجهل، والفقر، والجوع،
ونهب الخيرات، انشروا الوعي بينكم، قاوموا الاحتلال، والخوارج،
حاربوا من أجل بلدكم، ولا تستسلموا أبدًا.

وتذكر يا بني، أن العالم السفلي هو شيطان يقتات على الذهب،
الآفة كلها في الذهب، السؤال عن الذهب، والإجابة هي الذهب، وقود
كل المعارك هو الذهب.

ذهب أصفر، وذهب أسود، وذهب أخضر، ذهب يُنقب عنه في
الأرض، وذهب يُستخرج من البحار، ذهب مسموع، وذهب مقروء،
وذهب مفتون به. بشر يستعبدون إخوانهم لأجل الذهب، وبشر
يتقاتلون لأجل الذهب.

وتذكر يا بني..

سيظل المحتل طالما ظل الذهب، فإن ذهب الذهب... ذهب!

نائل سويدان.

القاهرة في الخميس الموافق ٢٤ فبراير عام ٢٠٢٢.

البداية

تسلّلت خيوط رفيعة من أشعة الشمس عبر فتحة ضيقة بين
ضفتي النافذة، داعبت عيني نائل. بينما تهادت إلى الأذان كلمات
مألوفة، وصوت يقطر شجنًا، كانت وردة الجزائرية تشدو قائلة:

(بنستقبل ربيع، وبنودّع ربيع، يأمرنا القدر، تنطفي الشموع، ويغيب
القمر... ونصبح ذكريات، مجرد ذكريات، مجرد غنوة حلوة من ضمن
الأغنيات...).

فتح عينيه بصعوبة، ظل هنيهة صامتًا محدقًا في سقف الغرفة،
قَطب حاجبيه، فرك عينيه، وعاد ليتطلع للعالم من حوله.

كان كأنه يشاهد عالمه للمرة الأولى، نظر إلى النافذة، أدار وجهه
إلى الناحية الأخرى، في ذهول، أخذ يلفّ بعينه الغرفة كلها، هنا
خزانة ملابس، وهنا صوان، وهذا الذي يرقد عليه هو سرير، وهذه
المرأة النائمة بجواره هي أحلام، نظر إلى يديه وقدميه، كان يرتدي
بيجامة من القطن الخفيف، لم تكن تلك الخُرقة القذرة التي نام وهو
يرتديها، لم يكن هناك رائحة خانقة لبول الكلاب الضالة، بل كانت
هناك رائحة لمعطر جوّ لطيف تعم الأجواء.

وضع قدميه على الأرض، نهض ببطء شديد، كادت الأرض أن تميد
به، سار بخطوات حثيثة، وضع يديه على الأثاث، يتفحّصه ليصدق
ما تراه عيناه، كان حقيقيًا بالفعل، لمس الحائط، لم يكن طينيًا، بهدوء
شديد فتح باب الغرفة، نظر مشدوّهًا إلى القاعة، كان كل شيء كما
تركه في زمان ولّى ولم يعد له أثر!

كان صوت وردة الجزائرية لم يزل يتهادى إلى أذنيه..

(ضحكتنا بكى، قسمتنا كده، تهدينا السنين، أيام الهموم، ونموت عطشانين.. ونصبح ذكريات، مجرد ذكريات، مجرد غنوة حلوة من ضمن الأغنيات...).

صاحب صوت الأغنية، صوت طرقات مكتومة.

مستندًا إلى الجدران، بقدمين حافيتين، سار بخطوات بطيئة نحو مصدر الصوت، كان يصدر من المطبخ، اقترب بهدوء يتفحص ما كان يحدث.

كان مذياع منيرة يقتنص من الأثير ما تبثّه إذاعة الأغاني، مثل كل يوم، من موضعه على رفّ بداخل المطبخ، وكانت هي تُمسك يد الهون الخشبية وتطحن شيئًا بداخل صحنه.

لم تشعر بنائل وهو يقف خلف باب المطبخ ينظر إليها، أفلتت دمعة من عينه وهو لا يصدق أن حياة ابنته تسير بطبيعية، شيء ما لا يفهمه قد حدث وأعاد الحياة إلى ما كانت عليه، كان حتى هذه اللحظة لا يدرك ماذا حدث، لعله لم يفق من نومه بعد، لعل ما يعيشه الآن حلم جميل في وسط واقع مزرٍ قبيح، أم كان الحلم كابوسًا رآه وعاش بداخله لأيام...

لكن في الحالتين فإنه ليس بخير، لم يكن هذا أو ذاك كحلم عادي، يستغرق ثواني ويعلق بذاكرته منه مجرد ومضات، لم يكن ذلك ما يعيش بداخله منذ أيام طويلة، ويذكر كل تفاصيله، بل ويدونها في

دفتر يوميات من مئات الصفحات، لا بالتأكيد هو ليس بخير، ربما تراوده أحلام يقظة، أو أنه قد أصابه الخرف، ربما كان كل ذلك من نسج خياله.

همس إلى نفسه:

- يبدو أن النهاية تقترب يا نائل، أصابك الخرف، هل مضى العمر بالفعل حتى أرذله؟ متى مضت كل تلك السنوات؟

انهمرت الدموع من عينيه رغماً عنه، نظر إلى منيرة، كانت ثوليّه ظهرها، لا تشعر به، ولم تسمع وقع خطواته الحثيثة بجانب صوت المذياع، كانت قد أعدّت له كوب عصير البرتقال الذي يحبه، كان موضوعاً على طاولة المطبخ، ابتسم، أراد أن يحتضنها، لعل النهاية قد اقتربت.

خطا نحوها، لكنه توقف فجأة، وقطّب حاجبيه بغتة وهو يتابع ما كانت تفعله، أفرغت ما كان بصحن المطحنة في يدها، بدا كأنه مسحوق أبيض، بعناية أفرغته في كوب العصير، وقلّبتّه، ثم لملت بعض علب الأدوية من على الطاولة، وأخفتها بحرص في أحد أدراج المطبخ، تحت علب التوابل.

دون أن يعرف السبب، وجد نفسه يعود أدراجه سريعاً قبل أن تلاحظه، عاد إلى فراشه، سحب الغطاء عليه، مدّعياً النوم. بعد ثوان، كانت تطرق الباب حاملة كوب العصير، وتوقظه.

- صباح الخير يا أبي، ما كل هذا النوم.

- صباح الخير يا منيرة، كم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة يا أبي.

- الحادية عشرة؟ كيف ذلك، ولماذا لم تذهبي إلى عملك حتى الآن؟

- أي عمل يا أستاذ نائل؟ اليوم هو الأول من مايو، عيد العمال، هل نسيت؟

- عيد العمال، أول مايو، كيف ذلك؟ بالأمس... كنا في شهر فبراير! نظرت إليه بدهشة، ارتسم شبح ابتسامة باهتة على شفتيها قبل أن تجيبه، قائلة:

- لا يا أبي بالطبع، يبدو أنك كنت تحلم أو ما شابه.

- أحلم؟

نظر إليها مطوِّلاً في صمت، وذهنه يصخب بأفكار متضاربة لا حصر لها، قطع انهمارها على عقله صوتها مجدداً، وهي تقول:

- يبدو أنك فقط لم تستيقظ جيداً، على كل حال هيّا لتشرب العصير وهو طازج؛ حتى أتأكد من أنك لن تتركه كالإفطار كل يوم.

نظر إليها بريية، تساءل في قرارة نفسه، لم تُصر على أن يشربه أمامها، لم ترغب التأكد من أنه تناول ما وضعتة بداخله، تناول الكوب من يدها، ثم وضع يده على معدته، وهو يقول لها:

- هاتِ هذا الكوب، أنا بالفعل أشعر بالعطش، سأدخل الحمام ثم

أنظف أسناني وأشربه!

- في الحمام يا أبي!، تشرب العصير في الحمام؟!.

- بالطبع، إنها عادتي منذ كنت طفلاً، لا عليك، كنت أخفي عليكم بعض العادات الغبية، لكنني أعاني من المغص، هيّا، هاتِ هذا الكوب، لا أطيق الانتظار.

- حسناً، سأتركك قليلاً يا أبي، لديّ ارتباط بموعد، وعندما أعود، لديّ الكثير لأحكيه لك، عن هذا الموعد، سيسرك ما ستسمعه، ولكن دعني أنهي أمراً مهماً جداً اليوم، قبل أن أحكي لك عن كل شيء، ولكن لا تنس أن تشرب كوب العصير، أرجوك، اتفقنا.

- اتفقنا، تصحبك السلامة.

ذهبت مسرعة، انتظر حتى سمع صوت باب الشقة وهو يقفل، نهض مسرعاً، دلف إلى المطبخ، سكب كوب العصير، فتح درج البهارات، التقط علب الدواء المخبأة، وعاد سريعاً إلى غرفة النوم، أيقظ أحلام من نومها بعصبية، قبل أن يلقي إليها بعلب الدواء، وهو يسألها:

- هلا أخبرتني يا دكتورة، ماذا تفعل هذه العقاقير بمتعاطيها؟

نهضت أحلام بصعوبة من نومها، بعينين نصف مغلقتين نظرت إليه، وهي تجيبه:

- أي عقاقير يا نائل أنا لا أفهم شيئاً.

وضع نظارته على عينيه وهو يقرأ أسماء الأدوية المدوّنة على

العلب، حين أجابها:

- ريسبريدون، وأريبيرازول، وبريجابالين، ما تأثيرهم الطبي؟

وهي تتثاءب، نظرت إليه باستغراب، قبل أن تجيب عليه:

- لا أدري، أنا لا أستخدم هذه الأدوية في أمراض النساء، لا أعتقد أيضًا أنها تخص أمراض القلب أو ضغط الدم، كما أنني لا أجد نظارتي الآن بجواري، هل يمكنك أن تقرأ النشرة الداخلية وتخبرني بأسماء المواد الفعالة بهم، أو دواعي الاستعمال.

فتح العلبة الأولى وأخرج النشرة التفصيلية وتفحصهما قبل أن يجيبها:

- حسناً المادة الفعالة للدواء الأول هي... ما هذا؟

توقف عن القراءة فجأة، وألقى بنظارته على السرير، ودفن وجهه بين راحة يديه.

- ماذا هنالك يا نائل؟ أنت تُقلقني.

لم يُجب عليها، بدا كأنه يبكي في صمت.

التقطت أحلام نظارته، ارتدتها وأمسكت نشرات الأدوية، ثم ما لبثت أن نطقت بكلمات بدت متلعثمة، وهي تقول:

- إنها أدوية للذهان، والهلاوس البصرية والسمعية؟ لمن هذه الأدوية يا نائل.

قطع الصمت، بكلمات مقتضبة، بنبرة حزن عاصفة.

- ابنتك تطحن هذه العقاقير وتدسّها لي في كوب العصير.

- ماذا تقول، كيف يمكنها أن تفعل هذا، إن تناولك لتلك العقاقير قد يُصيبك بالخرف، يدفعك إلى الجنون، كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ ولماذا؟ هل جئت هذه الفتاة؟

كانت الدموع تنهمر من عينيه، حين أحنى رأسه في انهيار، بدا كأن جبلاً قد وُضع على صدره، وهو يجيئها قائلاً:

- أنا بالفعل قد أصبت بالخرف يا أحلام، لقد خلدت إلى النوم بالأمس وكنت على يقين بأن تاريخ اليوم هو الخامس والعشرون من شهر فبراير، واليوم صحت لأجده الأول من شهر مايو، لقد تبخّر من عمري قرابة شهرين من الزمن، لا أعرف عنهما شيئاً.

- هون عليك يا نائل، لا تقل هذا، أنت لا تُدقق في تاريخ الأيام منذ أجليت إلى التقاعد، إنه مجرد نسيان لا خرف بالتأكيد.

- لا يا أحلام، أنت لا تعلمين شيئاً، اقرأ دفتر يومياتي، كل ما كتبته كان واقعاً عشته، لقد خضت عديداً من المواقف، وسافرت إلى أزمان بعيدة، لقد قابلت سلاطين الممالك وسرت بين الثوار أهتف باسم سعد زغلول، وفجّرت معسكرات الإنجليز مع الفدائيين.

- نائل.. أرجوك اهدأ، من الواضح أن هذا الدواء أصابك بهلوسة بصرية وسمعية، لا شيء من هذا يا حبيبي ممكن الحدوث، أرجوك اهدأ وسنعبّر هذه الأزمة، لا بد من سحب هذه الأدوية من دمك تدريجياً، بتقليل الجرعة، سأتكفل أنا بفعل هذا، لا تخش شيئاً.

- لا، أنا لست مجنونًا يا أحلام، أرجوك لا تعامليني هكذا، لن أحتمل هذا منك، أنتِ الشخص الوحيد الذي أثق به في هذا العالم، حتى ابنتي خانتني.

- لم أقل إنك مجنون يا حبيبي، ولكننا نعرف السبب، كل ما قلته يشير إلى أنك تخيّلت أشياء لم تحدث.

- كيف لم تحدث، أنت نفسك رأيت شريف، أليس كذلك؟

- شريف؟ قريبك الذي أتى إليك من البلد؟

- نعم، هانت بالفعل رأيته، شريف لم يكن قريبتي، شريف كان مسافرًا عبر الزمن، أتى إليّ من زمان سيأتي بعد ألف سنة، وأنت رأيته، فكيف يكون كل ذلك مجرد هلوسة.

- أنا رأيت الرجل، لكن من الممكن أن تكون أنت من تخيّلت كونه مسافرًا عبر الزمن، هذا الأمر من نسج خيالك يا نائل.

نظر إليها، تسارعت أنفاسه، وتوترت ملامحه، قبل أن ينهض واقفًا، ويرفع سترة البيجامة ويُدني البنطال بيديه أمامها، وهو يقول لها:

- وهذا القطع حول خصري أيضًا من نسج خيالي يا أحلام.

صرخت من مشهد الندبة الواضحة على محيط خصره، قفزت من على السرير تجري نحوه تتحسس موضعها وهي تصرخ، قائلة:

- يا للهول، ما هذا؟ كيف أصبت بتلك الندبة ومتى؟

- قلت لك، لست مجنونًا.

قالها وهو يُطلق تنهيدة طويلة ويُغمض عينيه، في حين كان عقله يزدحم بآلاف الأفكار.

جلست أحلام صامتة تمامًا، تنظر إليه بعينين تعلوهما الدهشة، في ذهول، عندما كان نائل يُنهي سرد قصته عليها، قبل أن ترفع وجهها نحوه، وهي تُجيبه هامسة:

- لا أجد أي تفسير لكل هذا، إن كان كل ما قصصته عليّ الآن قد حدث بالفعل، وأنت سافرت إلى الماضي، ثم عدت ورأيت الحاضر بهذا الشكل المروّع، فكيف تبدّل وعاد مثلما كان، وإن كان ما قلته كان محض خيال أو تأثير لتلك العقاقير، فكيف ظهرت على جسدك تلك الندبة الكبيرة، التي تُقسّم جسدك لنصفين بالفعل، أكاد أُجنّ.

- لقد نسينا الدفتر يا أحلام، دفتر اليوميات، هذا أيضًا إثبات، لا أعتقد أنني يمكنني أن أكتب مئات الصفحات من محض خيالي، أنا لست مؤلفًا للروايات حتى أمتلك تلك القدرة على اختلاق كل هذه الأحداث.

- أين هو هذا الدفتر؟

- على المكتب، تعالٍ معي لأريك إياه.

خرجا معًا من غرفتهما، ذهبا إلى غرفة المكتب، لكنه لم يجد الدفتر، بحث عنه في كل مكان، كان كأنه اختفى... أو لم يكن موجودًا من الأساس!

كان ذلك أكثر مما يمكنه تحمّله من ضغط على أعصابه، ظل يبحث كالمجنون، يلتقط الكتب واحدًا تلو الآخر، ينظر إلى كل كتاب قبل أن يلقيه على الأرض، يفتح كل الأدراج، يبعثر محتوياتها في كل مكان.

تسارعت أنفاسه، بكى، نهه، ضرب سطح المكتب بقبضتيه، صرخ في هياج شديد، وهي تحاول تهدئته، أمسكت يديه، أفلتها من يديها، صرخ، وبكى، حتى انهار تمامًا، وسقط على الأرض حينما لم يكن ينطق سوى عبارة واحدة:

- أنا مش مجنون... أنا مش مجنون.

كانت أحلام تحاول تهدئته عندما جلست بجواره على الأرض واحتضنت رأسه، ضمتها على صدرها وهي تربّت على كتفه، عندما داهمته نوبة بكاء شديد.

قاطعهما صوت طرقات على الباب، ربّتت على صدره، كأنها تستأذنه الذهاب، نهضت من جواره، وفتحت الباب. بادلت الطارق بعض الكلمات قبل أن توقع له في دفتر ما، ثم ما لبثت أن عادت إلى نائل تحمل ورقة، وهي تقول بنبرة حزن شديد:

- بهذه الورقة الإجابة عن كل شيء.

بصوت خافت، من بين الدموع أجابها:

- ماذا بها، ومن كان الطارق؟

- مُحضر من المحكمة، ابنتنا أقامت عليك دعوى قضية حَجَر لعدم سلامة قواك العقلية، بشخصها، وبصفتها وكيلة عن أخيها.

دست يدها في حقيبتها، أخرجت مفتاح باب الشقة، قبل أن تدسه في القفل توقفت هنيهة، أخرجت هاتفها، قلبت في قائمة الأسماء، عند اسم (حبيبي) ضغطت زر الاتصال.

- ألو، عز الدين، أنا أطمئنك فقط، لقد وصلت إلى البيت.

- حمدًا لله، وشكرًا جزيلاً يا حبيبتي على وجودك بجواري، لا أصدق أنني وقّعت على هذا العقد للتوّ، ومع أكبر دار نشر في الشرق الأوسط، شكرًا يا منيرة على كل شيء.

- لا تقل هذا أبدًا، قلت لك من البداية، سأفعل أي شيء، حتى أراك في المكانة التي ينبغي أن تصل إليها.

- بل لا بد أن أقول، أنا بالفعل مدين لك، والحقيقة أنني مدين لأبيك حتى من قبل أن أراه، بالمناسبة، نسيت أن أخبرك أن أباك يمتلك أروع خط رأيت، في الواقع لم أكن لأستطيع قراءة حتى صفحتين من هذا الدفتر لو كان بخط يدي.

- حسنًا، هيا لا تكن ثرثارًا، أنا أقف أمام الباب، إلى اللقاء يا حبيبي.

دست المفتاح في الباب، ودلفت إلى الداخل.

قظبت حاجبيها فجأة، كانت الفوضى عارمة في كل مكان، الأرض تمتلئ بالكتب والأوراق، والأدراج مفتوحة على مصراعيها، ومحتوياتها مبعثرة، كاد المشهد يوحي بأن شيئًا ما حدث كأنها آثار معركة ما.

صرخت منيرة، ركضت نحو غرفة النوم وهي تنادي أباهـا، لكنها لم تتلقَ أي جواب، دلفت سريعًا إلى الغرفة. كانت خالية تمامًا، حتى خزانة الملابس، كانت ضفتها مفتوحتين، وبدأ أنها أفرغت من الملابس، نظرت إلى جانب الغرفة، في ركن كان نائل يحتفظ فيه بحقيبة كبيرة، فلم تجد لها أثرًا هي الأخرى.

ظلت تناديه... فتّشت في كل مكان.

لكن... لم يكن بالبيت سواها.

مسافر عبر الأزمان

القاهرة في يناير ٢٠٢٣.

وقفت منيرة تُعدّل من وضع ربطة عنق عز الدين، قبل أن يشير إليه شاب أن التوقيت قد حان للدخول الآن، أوماً إليه برأسه، قبل أن ينظر إلى عينيها بامتنان. بابتسامة حانية، مد يده ليمسك يدها، وهو يشير إلى باب القاعة، قائلاً:

- هيا يا حبيبتي، حان الوقت.

دلفا من الباب الجانبي للقاعة الكبيرة، بالطابق العلوي، للردهة التي تفصل القاعة الأولى والثانية، بمعرض القاهرة الدولي للكتاب، وسط تصفيق حاد من الحضور، سارا معاً، حتى جلسا على مقعدين متجاورين على الطاولة الرئيسة، حين ارتفع صوت مقدمة الحفل تقدم ضيفها، قائلة:

- دعونا نرحّب بالكاتب والروائي الكبير، الأستاذ عز الدين الأحمدى، صاحب رائعة (مسافر عبر الأزمان)، تلك الرواية التي نالت جائزة الدولة للثقافة، وجائزة معرض الكتاب في دورته الحالية والمركز الأول في استفتاء القراء، الرواية الأكثر مبيعاً في مصر والوطن العربي، والمثيرة للجدل، أهلاً بك معنا اليوم أستاذ عز.

نظر عز الدين أمامه مطوّلاً، نحو كاميرات التليفزيون والصحفيين، كأنه يحاول تصديق حقيقة ما يحدث حوله، قبل أن يبتسم بهدوء، مجيباً مضيفته، قائلاً:

- أهلاً بك يا سيدتي، إنه لمن دواعي السرور وجودي هنا اليوم، أمام كل هذا الحضور الكريم.

- لنا شرف اللقاء يا أستاذ عز، دعنا نستهل الندوة بالرد على بعض الاستفسارات التي كتبها لك القراء عبر صفحتنا على مواقع التواصل، قبل أن نفتح باب أسئلة الحضور، ثم ننتهي بحفل توقيع الرواية.

- فليكن، أنا طوع أمر القراء في أي زمان ومكان.

- أجذك تتحدث بلغة الرواية أيضًا، الزمان والمكان.

ابتسم عز الدين لمداعبتها، قبل أن يردف إليها، قائلاً:

- يبدو أنني ما زلت أعيش بداخلها بالفعل.

- حسناً، وهذا مدخل جيد للسؤال الأول، أحد القراء يسأل: كيف استطعت أن تربط الأحداث بين الزمان والمكان، في أحداث تاريخية معروفة للجميع ثم ابتكرت أحداثاً من الخيال، تبدو لغير قارئ التاريخ المتمرس مربكة، حتى إنه هو شخصياً لم يتبين الحقيقي من المزيف إلا بعد أن أعاد قراءة تاريخ تلك الحقبة بتفصيل وتأني؛ كي لا يختلط عليه الأمر، سؤال القارئ، هو كيف تمكنت من ذلك؟ هل استدعى الأمر أن تقرأ مطوّلاً في كتب التاريخ، ثم تخلط بين الأحداث، أم أنك ابتدعت كل تلك الأحداث من خيالك؟

علت وجه عز الدين ابتسامة عريضة قبل أن يجيب السؤال، وهو يقول:

- ولم لا تقل أنني قمت بالفعل بهذه الرحلات عبر الزمن؟

ضجّت القاعة بالضحك على مداعبته قبل أن يستكمل رده، قائلاً:

- حسناً، سأجيب عن سؤال القارئ، بكل تأكيد يا عزيزي يلزم الاطلاع على عديد من الكتب والمراجع قبل كتابة عمل جيد، ولكنني هنا أود أن أشير إلى الأمر الأهم، ماذا إن أخبرتكم أعزائي القراء أنني جلست بالفعل مع قائد جمعية الفدائيين في عام ١٩١٩، وماذا إن أخبرتكم أن السلطان قانصوه الغوري، والسلطان طومان باي قد أصبحا بمنزلة أصدقائي، هل تدعونني مجنون، الفنون كلها جنون يا سادة، لو لم أمتلك هذا الجنون، هذا الاختلاف ما أمكنني كتابة كلمات أو حوار على السنة رجال ماتوا منذ مئات السنين، حوار يُصيبكم بالحزن والألم، أو يُشعركم بالسعادة، أو يمس مشاعركم، الكتابة الإبداعية يا سادة هي توحد مع شخصيات من الخيال، أو اتصال بعالم الموتى، أو حتى عالم الأشباح، الكتابة هي ارتحال إلى عوالم أخرى، وأزمة بعيدة، الكتابة هي عالم تصنعه بيدك، ثم تعيش بداخله وتلتزم بقواعده، هي نوع من التلبّس، والاحتواء والذوبان، إن لم أكن أكتب كلمات كل شخصية دون أن أتركها تجتاحني، وتسير دماؤها في أوردتي، وتحل روحها في جسدي، ما استطعتم تصديقها، لذلك فإن إجابة سؤالك هي أنني أخبرك بأن هذه القصة هي قصة حقيقية، حدثت بالفعل، على الأقل بالنسبة إليّ، وأنا أصدق كل حرف فيها، وكل ما فعلته هو أنني دوّنت أحداثها كما وقعت أمامي.

أنهى كلماته، وهو ينظر إلى عيني منيرة ثم يحوّلها إلى الدفتر الذي وضعت أمامها على الطاولة، ابتسم لها، ابتسمت حين ضجّت القاعة من جديد بالتصفيق لإجابته السابقة، قبل أن تقطع الضجيج مقدمة

الحفل، وهي تعيد طرح سؤال جديد بابتسامة على شفتيها، قائلة:

- حسناً، هذا سؤال طريف، يبدو أنني لن أستطيع إهمال طرحه، فأعتقد أنه يهم الكثيرات.

اتسعت ابتسامتها وهي تردف، قائلة:

- سؤال من قارئة تُدعى م ن س، تسأل، بعد هذا النجاح الكبير لرواية (مسافر عبر الأزمان)، هل يا ترى سيظل الأستاذ عز الدين الأحمدى، كما هو مُضرب عن الزواج؟

ضجّت القاعة بالضحك، بين همسات من الفتيات، وتصفيق من الفتيان، حينما اتسعت ابتسامة عز الدين، وهو ينظر إلى عيني منيرة من جديد، ويمد يده ليمسك بيدها حين أجاب، قائلاً:

- يبدو أن حياتي الشخصية تهم قارئة بعينها، على كل حال، لن أجد أفضل من تلك المناسبة، وأنا بين هذا الحضور الرائع من القراء، وحيثما تنقل كلماتي كل تلك القنوات الفضائية والصحافة، لأن أعلن للجميع خبر ارتباطي بهذه السيدة الجميلة التي تجلس بجواري، منيرة نائل سويدان، وفي خلال وقت قريب جدًا سيُسعدني أن أدعوكم جميعًا لحفل زفافنا.

في شرفة صغيرة، تطل على شاطئ البحر المتوسط، بضاحية المندرة، بالإسكندرية، كانا يتابعان اللقاء المنقول على الهواء مباشرة.

بنبرة يملؤها الحزن والحسرة قطع نائل الصمت، قائلاً:

- وكأنني في كابوس لا يريد أن ينتهي يا أحلام.

- هؤن عليك يا حبيبي، تلك الفتاة لم تكن على ما يرام طوال عمرها، كانت تصرفاتها غريبة على الدوام.

- غريبة؟ تضع لي عقاقير مهلوسة، لتصيبني بالخرف، وتحجر عليّ، ثم تسرق مني ما كتبت، لتعطيه لحبيبها لينال شهرة زائفة، أي منطق هذا، وكيف يمكنه أن يصدق نفسه، أو حتى كيف يمكنها أن تحترمه وهو يكذب ويلعب دورًا كممثل فاشل أمامها وأمام الناس، أي علاقة هذه التي تبنيها على الغش والخداع.

- قلت لك هؤن عليك يا نائل، انس، ولا تشغل تفكيرك.

- أنسى، كيف يمكنني نسيان جحود ابنتي؟ بهذه البساطة تخونني، لقد وضعت دفتري على الطاولة أمامها بمنتهى الصفاقة، وكأنها تخرج لي لسانها، وتغيظني، أو ربما ثلّفت نظر هذا الرجل؛ لأنها صاحبة الفضل عليه في تلك الشهرة، وأنه يمكنها أن تفضحه في أي وقت، لا أتخيل أن ابنتي البريئة الحنونة التي أعرفها تتحوّل إلى هذا الوحش.

- كثيرًا ما عانيت من هذه الفتاة، لا أدري كيف وصلت إلى هذا الحد، كما لا أعرف ماذا فعلنا لمراد هو الآخر ليشترك معها في هذه الجريمة.

- أنا أستطيع أن أخبرك، فتاة لا تكثر لصحة أبيها وتدفعه للخرف، ثم تقيم دعوى حجر على ممتلكاته، فتحصل على كل ما يملكه وهو حي، لتتقم زواجها من صعلوك كاذب مدعٍ، وتسيطر عليه بما سلبته

من أبيها من كلمات.. ونقود، لكي تُرضي غرورها وتتخلص من عقدة
كبر سنّها دون زواج، وشاب يبدأ حياته ولا يريد أن يضيع عمره مثل
أبيه في العمل والغربة حتى يمتلك أموالاً كثيرة، دون أن ينتظر أن
يرثها، فربما طال عمري وانتظروا كثيرًا، في الحقيقة، نحن لم نُحسن
التربية يا أحلام.

- أنا مصدومة أيضًا في أبنائنا يا نائل.

- لم يعودوا أبناءنا، الأبناء الذين يجحدون آباءهم ليسوا أبناء، بل
هم وحوش كاسرة، ناكرون للمعروف، ولكل شيء فعلناه لهم، وكل
عمرنا الذي أفنيناه في البحث عن مستقبل أفضل لهم.

- حاول أن تنسى يا نائل.

- أنسى؟ تقولينها مجددًا، أنسى عمري كله الذي أفنيته في تربيتهم،
وتدبير كل احتياجاتهم، لا يا أحلام هذا أكثر مما يمكنني احتماله.

- وما البديل إذًا، أن تظل هكذا حتى يصيبك الجنون، مثلما كانا
يريدان؟

- الجنون، الخرف، هذا بالضبط ما يشغل بالي، الدفتر الذي تملكه،
والذي كتبت فيه بخط يدي أنني مُخرف.

- أتقصد أنهما يمكن أن يستخدماه ضدك في قضية الحجر، ولكنها
لا تستطيع فعل ذلك، فهذا يفضح كذب زوجها المستقبلي.

- هذا هو آخر الكروت الراححة التي يمكنها أن تمتلكه بالطبع، وعلى
كل حال فكما أخبرني المستشار فاروق أن القضية لن يمكن البت

فيها إلا بحضوري، وما دام أنا غائب هكذا ومن دون إثبات لوفاتي، لن يستطيعا المُضي قدمًا في إجراءات الحجر عليّ، لكن ليس هذا فقط ما أقصده.

- ماذا تقصد إذًا؟

- لقد أهدى هؤلاء الاثنان إليّ الحل بهذا الحفل المذاع على الهواء مباشرة، وهذه التمثيلية السخيفة، عندما كان هذا المتحذلق الأحمق يروي لقراءه المزعومين كيف سافر عبر الأزمان والتقى مع السلاطين، وكم هو ماهر في التعبير عن الشخصيات، وكل هذا الهراء الكاذب، لا يا أحلام، لقد فاض الكيل، لن أظل هكذا مكتوف الأيدي مجددًا، لم تعد منيرة ابتني بعد أن خانتني، ولن أدع هذا الكاتب المزيف ينال مجددًا زائفًا على حساب نفسي، لن أصمت بعد اليوم يا أحلام ولن أهرب، سأواجه كل هذا الزيف والخداع والخيانة.

- لا أفهمك يا نائل، ماذا ستفعل.

- مهلاً، ستعرفين كل شيء، ينبغي لي أولاً أن أهاتف فكري وفاروق، ينبغي أن أجلس معهما، لنتشاور في الأمر.

الحاج مراد

وقفت منيرة، تراقب بفخر وسعادة، عز الدين وهو منهمك في التوقيع على عدة نُسخ من روايته، والتقاط الصور التذكارية مع القراء، ابتسمت بغتة عندما تلاقت نظراتهما، من داخل الحلقة الكبيرة من الناس الذين التقوا حوله، ابتسم لها وهو يهز كتفيه، أشارت إليه بيدها، كأنها تخبره أنها سعيدة بما يفعله وتنتظره حتى يفرغ منه.. مرت عدة دقائق حتى كان قد انتهى، استأذن في الانصراف عنهم، وذهب إليها.

كانت تقف ممسكة دفتر يوميات نائل، تحتضنه كأنها فتاة في المرحلة الثانوية عائدة من درس خاص، نظرت إليه، ابتسمت ابتسامة باهتة وهي تشير إليه بالدفتر الذي في يديها، قائلة:

- شكرًا لأنك أعدت إليّ هذا الدفتر.

- علامَ تشكريني، أعادته إليّ دار النشر بعد أن فرغوا من طباعة الرواية، لقد تأخروا في رده، كان من الممكن أن يضيع لولا أن ألححت عليهم، لكنه في الأساس كما نعرف ملك لأبيك، وكان ينبغي أن يظل بحوزتك.

نظرت إليه بحزن، وهي تردف، قائلة:

- ربما يكون هذا هو كل ما تبقى لي منه.

- لا تيأسي يا منيرة، سنعثر عليه، أنا أوكد لك.

- لا أدري، أخاف ألا أراه ثانية بعد اليوم، لقد مر أكثر من ثمانية

أشهر ولا أعرف أي شيء عنه.

- هوني عليك، أنا بجوارك، ولن أتركك أبدًا، كما أننا سنعثر عليه، أنا أشعر بهذا.

- أتمنى ذلك، أنت لم تعد غريبًا عني، وتعرف كل شيء، كان يكفيني أن أعيش حياتي كلها في علاقة فاترة مع أمي، لا أريد أن أفقد أبي أيضًا.

- بمناسبة الحديث عن أمك، هناك شيء يخصك بحوزتي، أعتقد أنه لا بد أن تريه، ومثلما تقولين تمامًا، أنا لم أعد غريبًا عنك.

- ما هذا الشيء، أنا لا أفهم كلامك.

دس يده بجيب معطفه الداخلي، وأخرج بضعة أوراق مطوية بعناية، وناولها إياهم، وهو يقول:

- لقد اقتطعت تلك الأوراق من بداية الدفتر، قبل أن أسلمه لدار النشر، وجدت أنه من غير اللائق نشرهم، كما أنهم خارج سياق الرواية، لكنهم يخصوصونك، وأعتقد أن ما كُتب بهم قد يوضح لك الكثير.

- لا أفهم.

- ستفهمين حين تقرأي.

على إحدى طاولات منطقة المطاعم الشهيرة التي تتوسط قاعات

العرض بمعرض الكتاب، جلست منيرة على مقعدها المواجه لمقعد عز الدين، حين فضّت الأوراق وبدأت في قراءتها...

"إن أذنت لي يا بني، أن أترك لحياتي وحياة عائلتي مدونة صغيرة في يومياتي هذه، لعلها تواجه رياح النسيان، يومًا ما، قد يبحث أحدهم عن سيرتي وحياتي، فيجدها مدونة بخط يدي..

وُلدت في العام ١٩٥٢، لأب وأم مصريين، من عامة الشعب، كان أبي معلمًا لمادة اللغة العربية هو الآخر، معتزًا ببلاغتها وفصاحة لسانها، هو من علّمني حبها منذ نعومة أظفاري، ووضع يدي على مواطن جمالها، وعبقرية بيانها. كانت أمي، سيدة عظيمة، أفنت حياتها في سبيل بيتها وزوجها وابنها الوحيد.

تفوّقت في جميع مراحل دراستي، حتى التحقت بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في العام ١٩٧١، تفوّقت فيها، حتى تخرجت فيها بتقدير امتياز، ثم تعيّنت معيدًا فيها، عام ١٩٧٨، بعد أن أتممت دراساتي العليا بها، ظللت بوظيفتي، حتى قابلتها عام ١٩٧٩.

أحلام.. كانت بالفعل حلمًا تحقق.

طالبة حديثة في كلية الطب بالجامعة، كانت تهوى الشعر، تنظم قصائد رقيقة، وتلقّيها على مسامع زميلاتنا في الندوات الأدبية للجامعة، حين أرادت أن تتقدم لمسابقة الشعر التي تقيمها وزارة التعليم العالي حينها، بحثت عمّن يمكنه أن يصحح لها الأبيات لغويًا ويضبط لها الأوزان إيقاعيًا، ويزن لها القوافي المارقة.. فكنت أنا هذا المحظوظ.

في هذا اليوم رأيت فتاة، تُشع إلهامًا وحيوية، تنبض رقة وعذوبة،
ساحرة العينين، بديعة الأوصاف، وكأنني وجدت كل أحلامي تتحقق
فجأة... حين وجدت أحلام.

توطدت علاقتنا في الجلسة الأولى، من أول نظرة إليها شعرت
أنني أهيّم بها.. كنوع من الجنون، بُحت لها بمشاعري في اللقاء
الأول، كأنني شعرت أن كتمانها لي سيقتلني، لكنها بكل أسف رفضت
علاقتنا...

كدت أجنّ، فما كانت لتتركني، كانت هي الأخرى تحبني، نعم، رأيت
ذلك في عينيها، ربما تظنني مراهقًا أو مجنونًا، لكن كذلك كانت قصة
حبنا التي وُلدت وكبرت في لحظات.

كان هناك سر ما يدفعها إلى الابتعاد عني.. ماضٍ أليم، كان يجعلها
دائمًا تشعر بعدم الاستحقاق لأي شيء، والخوف من كل شيء.

تلك الفتاة التي كانت حُلُم كل فتيان الجامعة، كانت في قرارة
نفسها تشعر بأنها لا تساوي شيئًا، ولا تصلح زوجة لأي رجل، كان
بحياتها سر دفين!

لكنني سرعان ما عرفت كل شيء. وُلدت أحلام لتجد نفسها، طفلة
رضيعة ملقاة أمام باب مسجد في ساعة الفجر، بلا رحمة أو شفقة،
ثم حَبِث لتجد نفسها طفلة بريئة تنام على سرير معدني وسط
عشرات من مجهولي النسب في ملجأ للمشردين.

أصدروا لها شهادة ميلاد تحمل اسمها الذي اختاروه لها، واسمًا
وهميًا لأب دَوّن بجواره عبارة بين قوسين في ملفات الحكومة هي

(مجهولة النسب)، خاتمًا من العار كخاتم النسر إن طُبع على ورقة لا يزول بمرور الزمن، ولم يحن عليها قط هذا الزمن، زاد دومًا في قهرها ودحرها.

في يوم ما، في أوائل عام ١٩٦٧، حاول خنزير بشري من العاملين بالدار ملامسة جسدها بشهوانية بغیضة، قبل حتى أن تبلغ السابعة من عمرها، أصابها الرعب، والاشمئزاز، وصدمة لم تكن تكفي سنوات عمرها لتتخلص منها، هربت، أطلقت ساقها الصغيرتين للريح تبكي من الألم والقهر والمهانة، كآلاف مثلها، تدفع ثمن أخطاء لم تفعلها، تشردت، عاشت في الشوارع، كالقطط الضالة، تشاركهم طعامهم، ومبيتهم، تنتقل من مكان يأبى أن يأويها إلى مكان يلفظها، ومن طامع في لقمة بيدها إلى طامع في جسدها، أخذت تحاول العيش بكل الطرق، تحاول النجاة، تبیع أي شيء في الشوارع للمارة، إلا جسدها.

تمسح السيارات والبيوت وسلالم العمارات، وحتى الأحذية. تسأل المارة عن أي شيء يمكنها أن تفعله لهم مقابل كسرة خبز، كانت تناضل للحفاظ على حياة لا تريدها، ولم ترغب حتى في العيش فيها، كانت تقاتل في معركة تم الزج بها في معتركها، بلا سلاح، أو درع واقٍ.

وفي ليلة مظلمة باردة، كانت تجلس على الرصيف، تبكي، متقطعة بها كل السبل، لا تتمنى سوى امتلاك الشجاعة للتخلص من حياتها، تراقب الطريق، تنتظر سيارة مسرعة لا يستطيع قائدتها أن يضغط على مكابحها، حين تُلقي بجسدها الهزيل أمام عجلاتها.

وبينما تتابع سيارة الموت بعينيها الصغيرتين، وهي قادمة من أول الشارع، وتتسارع دقات قلبها، تنتظر اللحظة المناسبة لإلقاء جسدها أمامها.. عثر عليها. وضع يده على رأسها برفق، انحنى بجوارها، وبيده قطعة من الشوكولاتة، ودمية من القطن، جبر خاطرها، شعرت لأول مرة في حياتها بالأمان..

كان هذا الرجل.. هو الحاج مراد.. رجلاً عجوزاً طيباً، في السبعين من عمره، ماتت زوجته، وسافر أبناؤه بعيداً عنه، وتركوه وحيداً، كان ثرياً، يعيش في قصر، مع بعض الخدم، والداة منيرة..

تبناها، وعهد بتربيتها إلى منيرة، التي أصبحت بمنزلة أم لها. الفتاة التي لم تعرف معنى الحنان في حياتها، وجدته لأول مرة مع دادة منيرة، عرفت الأمان في حضن منيرة، وكنف الحاج مراد..

كانت منيرة، عجوزاً نزحت من الصعيد إلى القاهرة مع زوجها، فقدت ابنها الوحيد في حرب عام ١٩٥٦، قبل أن يرحل زوجها هو الآخر عن الدنيا، حين لم يكن لها مكان آخر، عملت بالقصر وقطنت به، كانت أحلام هي شغلها الشاغل، كانت قد أصبحت تعني لها الحياة التي شلت منها وتنتظر مغادرتها، منحتها كل ما كان يمكنها من عطف وحنان ورعاية، وأحببتها.

كان شيء ما يكمل لكل واحدة منهما ما ينقصه، تبادلًا المَنح والعطاء، منحت أحلام منيرة ضعفها واحتياجها إلى الحب، ومنحت منيرة أحلامًا كل ما اختزنته في قلبها من حب وحنان لا تعرف لمن تمنحه إياه.

تكفل الحاج مراد بتربيتها، وتعليمها، تكفل بكل مصروفاتها كأنها ابنته، أو حفيدته، انتشلها من الخوف والذل ودفعها إلى الأمام. تغيّر كل شيء في واقع الصغيرة، أحبت الحياة من جديد، ذاكرت، اجتهدت، وتفوّقت...

كان الحاج مراد يُحب الشعر، ويهوى الخط العربي، كان يحتفظ بداخل قصره بورشة عمل صغيرة، يكتب فيها لوحات بالخط الكوفي والفارسي، ويُعيد كتابة ما يحبه من أشعار بخط الرقعة، كانت لوحات أشعاره المحببة إليه تملأ جدران البيت، لمس ذلك شيئاً ما بداخل الفتاة، أحبت، وارتبطت به، وأصبحت هوايتها المحببة هي نظم الأشعار.. بجانب دراستها للطب..

لكن كل شيء في حياتها مثلما تبدّل فجأة... اختفى فجأة... في نفس اليوم الذي أتت إليّ لأدقق لها قصائدها، عادت فلم تجد للحاج مراد أثراً...

باع القصر، ورحل فجأة دون أن تعلم إلى أين، أو لماذا.

تاركاً لها عقد شقة كتبها باسمها في حي مصر الجديدة، بشارع سفير، ودفتر بالبريد به ما يكفي لبقية سنوات دراستها، وورقة صغيرة كتب عليها بخط رقعة جميل، (اليوم أسلم الأمانة لمن أحبك، فليهبك الله السعادة يا ابنتي).

لم يكن في حياتها أغلى من تلك الورقة، ظلت تحتفظ بها طوال عمرها بداخل قلادة ذهبية في صدرها، تُخرجها كل يوم منها، لتعيد قراءتها، وتطلب له الرحمة. وتسلمت أنا الأمانة، كما كانت نبوءته،

حاولت أن أعوضها، بتقربي إليها، ومنحها كل ما سلبته الدنيا منها مرتين...

أخبرتها أنني لا أكرث بأي شيء، لا يهمني أي ماضٍ، لا يهمني إن كانت وحيدة، أو لقيطة، أو منسوبة إلى غير أبيها، كل ما يهمني هو تلك الفتاة جميلة الخلق التي أحببتها.

أخبرتها أنها لا بد أن ترى السر الدفين في رسالة الحاج مراد، ونبوءته أن يكتب لك تلك الكلمات يوم أن لقيتني، وكأنه يسلمك إلي لأرعاك بدلًا منه، كأنك قد وجدت من يكمل المسيرة..

لم يكن في الوجود من هو أسعد منّا، أكملت أحلام دراستها، تخرّجت، أصبحت طبيبة، وتركت أنا التدريس بالجامعة بعد أن سافرت للعمل بالعراق، ثلاث سنوات كانت كافية لأن أستطيع تأسيس بيت جيد لنا، كانت تنتظرني، لم يكن هناك أحد غيري في الدنيا تعرفه، لتنتظره، كنت أحب الحياة لأنها تنتظرني فيها، لم أستطع الابتعاد عنها أكثر، أنهيت عقد عملي، وانتهت أيام الفراق، عدت إلى الحياة التي أعرفها وأحبها. تزوجنا، وعشنا في البيت الذي تركه لها الحاج مراد...

في البداية، كان يجب عليّ العمل في أكثر من مكان وليل نهار حتى أدبر مصروفات بيتنا الصغير، عملت مدرسًا في مدرسة بالنهار، وبيع بعض مجموعات التقوية بالليل، ومدققًا لغويًا، وكاتبًا في الظل، أعيد صياغة العبارات الركيكة برسالات الماجستير والدكتوراه للباحثين، ومنسّقًا للكتب، وخطاطًا، فقد كنت قد أحببت كتابة الخط

العربي من بديع ما شاهدته من لوحات الحاج مراد التي أهدها إلى أحلام، كما أحببت كتابة أبيات الشعر على اللوحات؛ لأنها تحب ذلك، ولأن ذلك يُذكرها بالحاج مراد، تعلّمت الخط العربي، وأتقنته، ودوّنت كل ما كتبه أحلام من شعر على لوحات صغيرة، كنا نبيع تلك اللوحات مقابل ثمن معقول، ثم أصبحت أكتب بعض آيات من القرآن، وأقوالاً مأثورة، وأبيع لوحاتي، حتى احترفت العمل خطاطًا، في الحقيقة أن سنوات حياتنا الأولى كانت عسيرة، لكنني لم أجعلها تنفق مما تركه لها الحاج مراد قط، كان لا بد أن أعمل في كل شيء، واجتهدت كثيرًا لكي أنفق عليها مما أجنيه.

بنينا بيتنا، بالجهد والعرق، والحب والمودة، وحرصت دومًا على تعويضها عن كل ما مرت به طوال حياتها، وإعادة الثقة إليها في نفسها. وعندما رزقنا الله بفتاة، رأيت في عينيها اسم من كانت بمنزلة أمها، فأسميناها منيرة، وعندما رزقنا الله بولد، أصررت أنا على أن أسميه مرادًا.

مرت السنوات.. كبرنا، ازدادت الأعباء والمسؤوليات، وازدادت طلبات الأفواه الصغيرة الجائعة. لم يكن من حلّ سوى أن أتركها ثانية، سافرت في إعاره إلى دولة الإمارات العربية، قضيت أعوامًا عديدة، لم أستطع عدّها.

في معترك الحياة قد لا يتوافر لك الوقت أحيانًا لتتمكّن من الحساب والعدّ، تسرقك عقارب الساعات، وتختطفك أوراق نتيجة معلّقة على الحائط، تنتهي واحدة لتعلّق مكانها واحدة جديدة، تقطع أولى أوراقها ذات صباح، قبل أن يأتي عليك صباح تقطع

فيه الأخيرة، دون أن تدرك كم كان الفاصل بين الورقتين. شيء ما يُسيطر على وعيك، يمنعك من إدراك تواريخ الأيام. كأنه آلة زمن تسير بك بسرعة، لا يمكنك إيقافها أو حساب ما سلبته منك من سنوات..

تحسّنت أوضاعنا، امتلكنّا كثيرًا من الأموال.. وذات يوم عدت إليها، لم نعرف بعضنا، واكتشفنا أن أعمارنا قد سُرقَت منا.

انتهى."

طوت منيرة الصفحات، في صمت دامغ، انهمرت الدموع من عينها، مدت يدها إلى صدرها، تحسّست ما كانت ترتديه، أمسكت بقلادة ذهبية، ظلت ثقلبها في يدها، حتى وجدت لها ثمة مقبض صغير لم تكن تعرفه، جذبته فانفتحت، أخرجت من داخلها ورقة صفراء قديمة متهالكة، فضّتها، قرأت ما كتب عليها بصوت هامس:

- "اليوم أسلم الأمانة لمن أحبك، فليهبك الله السعادة يا ابنتي"، لم ألحظ من قبل أن هذه القلادة تحوي شيئًا.

- هل ترتدينها منذ وقت طويل.

- وجدتتها في خزانة ملابس أبي، كأنه تركها لي عن عمد.

قالتها، وانهارت في البكاء.. ظل عز الدين صامتًا عدة دقائق، كان يحاول استجماع كلماته، ويُمهلها لكي يستوعب عقلها ما قرأته لتوّها، قبل أن يبادرها بالحديث قائلاً:

- حسنا يا منيرة، عندي الكثير لأقوله لك، لكنني أتمنى الاستماع لما

تودين أنت قوله لنفسك.

نظرت إليه بعينين دامعتين، بصوت مهموم أجابته:

- لقد أخطأت خطأ كبيرًا جدًا.

- أي خطأ تقصدين.

- كل ما فعلته كان خطأ كبيرًا يا عز.

- حبيبتي، أنا أسمعك، شاركيني ما تريد من قوله.

- تريد أن تسمع، حسنًا، بادئ ذي بدء، أُمي يا عز، لم ظلت أفعل هذا طوال عمري معها.

- أنت تختصرين ما أردت قوله، أكملني من فضلك.

- يا لها من مسكينة، لم أكن أعرف أي شيء من كل هذا، لقد مرت بظروف لا يطيقها بشر، وعانت من آلام تفوق الاحتمال، يبدو أنني عندما كنت طفلة، أبغض إحساسي بعدم الاهتمام في حضورها، وأبغض سماعي لعبارات الثناء عليها، كانت هي أكثر مني طفولة، بل أكثر مني احتياجًا إليها، أتعلّم، على الأقل كنت أنا طفلة تعيش بين أب وأم، تعيش في بيت طبيعي، تشعر بالدفء والحب والحنان، كنت طفلة تعيش كل ما حُرمت هي منه، بل حُرمت منه مرتين، لكنني كنت طفلة لا تهتم إلا بما تشعر بأنه ينقصها، وعلى الرغم من ذلك لم تُشعرني هي بذلك قط، لقد كانت تحبني حتى إن لم يبذُ عليها هذا، في حين كنت أنا أرغب في الحصول على كل شيء، كأنني كنت أطلب أن أحصل على أبسط حقوقها، لقد كنت فتاة بشعة جدًا.

- كنت فتاة فقط، طفلة يا منيرة، لا تفهم ما تقولينه الآن.

- لا يا عز، لم أكن كذلك، بل لم أكن أرى سوى ما كان ينقصني فقط، لم أفكر قط فيما كان ينقصها هي الأخرى، وقد كان الكثير، لم أر سوى نفسي، ومطالبي، لم أكرث يومًا لأنها لم تقصد أن تفعل أي شيء يضايقني، بل لم أفهم أنها كانت كالظمان للتقدير، وتعويض كل سنوات الذل والخذلان، حتى لو كان بكلمة، هل تعلم، عندما كنت طفلة، وفي قرارة نفسي كنت أعلم أنها تحبني، كنت أرى ذلك في عينيها، لكنني كنت أكذبه، وأقنع نفسي أنها تكرهني، حتى إن كان لسبب لا أعلمه، لكنه كان كافيًا لأن أكرهها وأداوم على الابتعاد عنها، أو ربما الهرب منها.

- هوني عليك يا منيرة.

- كيف أهون عليّ، وأنا أجد نفسي وحشًا صغيرًا إفترس كل مشاعرها، لقد كنت طوال عمري أبتعد عنها، أتعمد إشعارها بالكره والبغض، لقد كنت الفتاة التي أصابتها بالحسرة، وكنت أعلم ذلك، وأحب هذا الإحساس، كأني كنت أنتقم لنفسي به، وأنا لا أعلم أنني أنتقم منها بلا ذنب، لم أختلف عن كل من خذلها وتركها وألقاها في الشوارع أو أعتدي عليها، لا فرق بيني وبينهم، والآن أعرف كل ذلك بعد فوات الأوان، بعد أن فقدتها، وفقدت أبي أيضًا.

- اهداي يا منيرة.

- لا يا عز، لن أهدأ، ينبغي أن أتحلّى بالشجاعة مرة واحدة، ينبغي أن أعترف لك، لقد كنت أعرف أنها تحبني، لمرات ومرات، كنت أرغب

بشدة في أن أرتمي في حضنها وأبكي، أضمتها بقوة إلى صدري وأغوص بداخلها، أمتحها الفرصة لتشعر بدفء جسدي بين ذراعيها، لكنني في كل مرة كنت أريد فعل ذلك، كنت كمن يسيطر على عقلها شيطان، يدفعها لكي تقدم على أي فعل يجرحها، ويزيد حسرتها وألمها، كنت كاللعنة التي ألقيت في طريقها، لقد كنت أعاند نفسي وأجبرها على كراهيتها، هل فهمت الآن، هل ما زلت تحب امرأة مشوهة كالمسخ مثلي، هل ارتحت، سمعت مني ما كنت ترغب في سماعه، نعم، أنا هذه المتوحشة، السيئة، الجاحدة.

أنهت كلماتها وأجهشت في البكاء، مد عز الدين يده، يربت على يديها بهدوء، وهو يجيب عليها قائلاً:

- اهْدأي يا منيرة، نعم ما زلت أحبك، لست مسخاً مشوهاً كما تدعين، أنتِ أيضاً مسكينة، عانيت كثيراً من نفسك، ولم تجدي من يمد لك يد العون، النفس البشرية ممتلئة بالتعقيدات، كلنا نعيش في تناقضات يا منيرة، كلنا جبابرة ومساكين، من الجيد أن نصارح أنفسنا ونصارح من نحب، وبالله عليك، لا تجعليني أندم على إعطائك هذه الأوراق.

- ليس أنت من ينبغي له أن يندم يا عز.

- حسناً، هلاً غيرنا هذا الموضوع قليلاً، أخبريني ألم تجدي شيئاً يلفت انتباهك.

- ماذا تقصد؟

- هذه الورقة الصغيرة.

- ماذا بها؟

- ألا تجدین تشابهًا ما.

- لا أفهم؟

- حسنًا، أنا أعدك أن الأمور ستعود إلى مجرياتها قريبًا بإذن الله، ولكن ألا تجدین أن عثورك على تلك الرسالة الآن، معلقة في صدرك، عندما اختفى أبوك، في تزامن مع ظهوري في حياتك، كأنه رسالة منه تطمئنك، كالتي أرسلها الحاج مراد إلى أمك حين قابلت أباك.

- لم أفكر قط في هذا الأمر، ولا أريد التفكير فيه الآن أبدًا، في الحقيقة أن كل ما يدور بخاطري الآن هو مراد أخي، ينبغي أن يعود من السفر، ويعاونني في البحث، لن يهدأ لي بال أبدًا ما دام ظل الأمر على حاله هكذا، لقد أخطأنا أنا وهو خطأ كبيرًا.

تحت طائلة القانون

- هل طلبت مني الحضور من القاهرة إلى الإسكندرية لأجلس هنا أسمع هذا الهراء؟

قالها فاروق وهو يوجّه كلامه إلى نائل بغضب، بعد أن قص عليه الأخير قصة رحلاته عبر الزمن، قبل أن يجيبه، قائلاً:

- حسناً يا فاروق، انس كل ما قلته، لا أريد منك شيئاً.

تدخل فكري في الحديث، بعد أن تأزم الموقف واحتدم النقاش فيما بين صديقيه، قائلاً:

- عزيزي نائل، هوّن عليك، فاروق لم يقصد إهانتك، لكن والحق يقال إن ما تدّعي حدوثه هو أمر خيالي، يا أخي، لا تخلط الأمور، نحن كلنا نعلم أن ابنتك كانت تدسّ لك عقاراً مهلوساً في شرابك، أنت لست مجنوناً إذًا، لا تأخذ الأمر بهذا الشكل، فلتقتنع فقط أن ما تخيلته وكتبت عنه هو مجرد هلوسة من تأثير العقار، وهأنت تخلصت من الهلوسة بعد أن توقفت عن تناولها.

عاد فاروق ليتحدث بعد أن هدأ من روعه، وهو يحاول تلطيف الأمور، قائلاً:

- اسمعني يا نائل، نحن أصدقاء منذ سنوات طويلة، لقد صرنا إخواناً، وأنا لا أقصد أبداً أن أدعوك بالكاذب، لكن مثلما قال فكري، أنت كنت تحت تأثير مخدر ما، أو عقار أصابك بالهلوسة، وأنت دوّنت يوميات في كتاب كبير، حتى إن كانت تلك أحداثاً خيالية، إلا أنها

تظل في نظر القانون منتجًا من إبداعك، وملكًا خالصًا لك، هل فهمت، أنت تملك حقوق ملكيته الفكرية، إن استطعنا إثبات ذلك.

- وماذا يعني ذلك إذا؟

- يعني أن هذا المنتج الإبداعي الذي كتبته، أيًا كان مسماه، قد تحوّل إلى عمل روائي، ونُشر باسم شخص آخر، حرفيًا، وليس تشابه أفكار أو توارد خواطر، أنت تقول إنه مطابق تمامًا للكلمات والعبارات التي كتبتها، مما يُعدّ تعدّيًا سافرًا على حقوق ملكيتك الفكرية له، وهذا أمر آخر، لكن قل لي بالله عليك، من ذا القاضي الذي سيصدقك إن قلت له إنني ركبت آلة زمن وأشياء من هذا القبيل، سيعتبرك القاضي رجلًا مجنونًا، أو عجوزًا مخرّفًا، وهذا سيُضعف موقفك من الأساس في هذه القضية وفي قضية الحجر عليك كذلك، لو أنك تفوّهت بهذا الهراء أمام قاضٍ، وأثبت في محرّر رسمي، لكان دليلًا دامغًا على عدم صحة قواك العقلية، أنا لو كنت أحكم في هذه القضية لحكمت بالحجر عليك حينئذ من الجلسة الأولى، هل فهمتني، لا تكن غبيًا وتخسر كل شيء.

- وما العمل إذا؟

- العمل هو... رواية، مثلما تم نشرها بالضبط، ارفع دعوى إثبات حقوق ملكية فكرية لرواية كتبتها من خيالك، اذهب وأخبر القاضي أنك كتبت عملاً روائيًا من محض خيالك عن السفر عبر الزمن، القاضي لا يعنيه هنا إن كنت كتبت أنك تلعب المسّاقة مع الديناصورات، ما دام أن الرواية من محض الخيال، كل ما يهمه هو

لمن تعود حقوق ملكيتها الفكرية محل النزاع.

- وكيف يمكن إثبات ذلك، إن كنت لا أملك دفترتي الذي كتبت فيه كل هذا بخط يدي.

- أدلة الإثبات هي ذاتها أدلة النفي يا عزيزي.

- ما هذه الألغاز؟

- حسنًا، سأشرح لك، الأدلة في القانون، إما أن تكون ظنية الدلالة، وإما قطعية الدلالة، وظنية الثبوت أو قطعيته، بمعنى أن في حالتك تلك، فدليلك على كتابتك تلك المدونة أو اليوميات أو الرواية أيًا يكن اسمها، هو ظني الدلالة ظني الثبوت، لكنه هو ذاته دليل خصمك، فبينما تدفع أنت بأنك من كتبه بخط يدك ولا تملك دليلًا قطعيًا في يدك، ينبغي أن يقدم هو الدليل على ما كتبه وقدمه إلى دار النشر، فإن أخفاه، كان دليلك الظني قد صار قطيعًا، لعدم قدرته على الإثبات، وإن أظهره، صار قطيعًا أيضًا لأنه سيظهر أنه بخط يدك.

قاطعهما فكري وهو يقول بمرح:

- الله عليك يا جناب المستشار، (إيه الحلاوة دي، إيه البلاغة والفصاحة دي كلها)، هل تتخيل أن أحدنا فهم شيئًا؟

ضحك فاروق وهو يردف، قائلاً:

- حسنًا، كان معنى كلامي، هو أن ما يمكن لهذا الكاتب المزيف أن يحاول إثبات ملكيته للنص به، هو نفسه دليل إثبات ملكيتك أنت له، هل فهمتم هكذا، أنت ستخبر القاضي بأن الدفتر الذي ظهر على

كل الشاشات في التسجيل المصوّر موضوعًا أمام ابنتك وأمام هذا الكاتب المصوّر هو دليلك، فإن لم يأتوا به، كان قد أصبح موقفك هو الأقوى في المحكمة بإخفائهم هم للدليل.

أجابه نائل قائلاً:

- أعتقد أنني فهمت، كنت قد دقت لغويًا ذات يوم رسالة دكتوراه في القانون، لأحد الباحثين، وقرأت فيها ما يشبه ذلك، إذًا فإن ما تصبو إليه هو أنني ينبغي أن أطلب دار النشر بتسليم النسخة الورقية من النص لتطلع عليها المحكمة.

- بالضبط، كل ما عليك هو أن توكل محاميًا لرفع الدعوى، وتُخبره بما تحدّثنا به الآن حتى يتفهّم ما تسعى إليه.

- حسنًا، هذا جيد جدًّا.

- أريد أن أخبرك بأمر آخر مهم جدًّا.

- ما هو؟

- أن تحذر، هذه القضية سيكون لها تأثير كبير جدًّا على قضية الحجر عليك، فإن ربحت هذه القضية، كان هذا إثباتًا جيدًا على امتلاكك لعقل راجح، بدليل أنك تستطيع الإبداع والكتابة الروائية، ولكن حاذر من أن تخسرها.

- لماذا؟

- لأنه يا عزيزي، في هذه الحالة، ستكون كمن يدعي أو يتوهم أشياء غير حقيقية، وهذا بالطبع سيتم استخدامه ضدك لإثبات عدم

سلامة قواك العقلية، فتكون بذلك قد خسرت القضيةتين.

- وليكن، لن يردعني ذلك عما عزمت عليه، ولكن أخبروني، هل يمكنني أن أطلبكم للشهادة؟

- بالطبع، لن يتأخر أحدنا عنك أبدًا، كما يمكنك أيضًا أن تطلب شهادة الدكتورة أحلام، على الرغم من أنها شهادة ضعيفة لكونها زوجتك، ولكنها أيضًا مهمة.

أنهى فاروق كلماته حين كانت أحلام تدخل عليهم الشرفة، حاملة صينية من الشاي، وهي تقول لهم:

- حسنًا يا سادة، فلنكتف من الحديث عن القانون ولتنعموا بأشعة الشمس اليوم، فهي لم تظهر هكذا منذ أيام، حتى البحر هادئ اليوم، من حسن حظكم أنكم أتيتم بعد انتهاء النوة.

"مراد، احضر بأقصى سرعة، لم أعد أطيق أن أفعل كل شيء بمفردي، بحثت في كل مكان، ولا أثر، أنا في حاجة ماسة إليك يا أخي، منيرة".

أنهت كتابة الرسالة النصية، وضغطت على مفتاح الإرسال.

حقوق ملكية فكرية

- لا أصدق أن يتم دعوتي إلى مؤتمر مهم مثل هذا؟

- لماذا لا تصدق يا عز، لقد أصبحت من أحد الكتاب الروائيين الكبار الآن، لا بد أن تعتاد ذلك، تحلّ بالثقة وهديّ من روعك، حتى يمكنك إلقاء الكلمة بثبات وتمكّن.

- في الحقيقة إنني خائف جدًّا، لم يسبق لي قط الوقوف على منصة خطاب مثل تلك والتحدّث أمام كل هذا العدد الهائل من الناس، وعلى الهواء مباشرة، أخاف أن أضطرب أو أجزع، هذا من أسوأ كوابيسي يا منيرة.

- لا تخف، أنت تستحق أكثر من هذا، ولكن مثلما قلت لك، اهدأ، حاول التنفس ببطء، وحافظ على هدوئك طوال الوقت، لا أريد أن يظن الناس أنك مضطرب وإلا لن تستطيع أن توصّل إليهم رسالتك أو يظنون أنك لا تؤمن بما تقول، أو تكذب عليهم، هل تسمعني، اهدأ تمامًا.

- حسناً يا منيرة، هذا هاتفي، أرجوك احتفظي به معك حتى أنتهي. لم يكدها يعطيها الهاتف، حتى كان يصل إليه صوت مقدم الحفل، وهو يقول:

- السيدات والسادة، وبمناسبة البدء في مناقشة قانون حماية حقوق الملكية الفكرية، ذلك القانون الذي انتظرناه طويلاً، وعانينا كثيراً من إهدار لتلك الحقوق، ونحن هنا بصدد دعم أعضاء مجلس

النواب لإقراره وانتظارًا لصدوره، يسعدني ويُشرفني أن أدعو الكاتب الروائي الشهير، الأستاذ عز الدين الأحمدى، لإلقاء كلمته على أسماعكم، فليتفضل.

نهض عز الدين من مقعده المجاور لمقعد منيرة بالصف الأول من القاعة الرئيسة بمركز المنارة الدولي للمؤتمرات، سار بضع خطوات وسط تصفيق الحضور، صعد الدرج الخشبي حتى اعتلى خشبة المسرح، وقف أمام المنصة، وقال:

"السيدات والسادة، الحضور الكريم، إنه لمن دواعي سروري أن أتشرف بالوقوف أمامكم اليوم، وفي هذا المكان العريق، ونحن نتحدث عن هذا الأمر المهم، لقد كان حلمًا كبيرًا كثيرًا ما سعيانا إليه، وها نحن نشهد مراحل تحقيقه، في القريب العاجل بإذن الله. فلنتحدث عن قانون حماية حقوق الملكية الفكرية بوجه عام، ذلك القانون العالمي والإجراءات العديدة التي تنظم وتقتن حقوق كل شخص أنتج تفكيره العقلاني المجرد يومًا ما فكرة جديدة...

ثم تحوّلت تلك الفكرة إلى شيء ما، ربما كان مقالًا أو خطابًا مثل هذا الذي ألقيه عليكم، أو كتابًا مثل ذلك الذي أقضي شهورًا في كتابته، أو رواية أو بيتًا من الشعر، أو عملاً دراميًا. كل شيء في هذه الدنيا كان في البداية مجرد فكرة!

وكانت تلك الفكرة نتاج تفكير عقل كعقلي وعقلكم، ثم تطورت لتصبح شيئًا ملموسًا. هذا الحبر الذي كُتِبَ به هذه الكلمات، التي أقرؤها عليكم الآن، كان يومًا ما فكرة، هدفها التيسير على بني البشر

عناء التدوين بالنقش على الحجر، وتلك الكلمات كانت فكرة في رأسي قبل أن أصيغها وأكتبها إليكم، وهذه الأوراق التي أقرأ عليها الكلمات المطبوعة بالحبر، كانت فكرة، كان الهدف منها استبدال جلود الحيوانات والأحجار التي كان يتم التدوين عليها، وهذه اللافتة التي تحمل اسم المؤتمر وشعاره، كانت فكرة في خيال المصمم، الذي عمل على إخراجها عن طريق جهاز حاسب آلي كان هو الآخر فكرة قبل أن يتم تطبيقها.

كل نتاج الحضارة والتطور البشري، كان مجموعة من الأفكار والأحلام في أذهان البشر، ما لبثوا أن حققوها، وأصبحت واقعًا نعيشه.. أفكار الأجداد وأحلامهم عاشها الأحفاد على مر التاريخ، فالأفكار والأحلام هي ثروة البشر الحقيقية، هي التي تجعلهم مختلفين عن باقي الأجناس، هي من تجعلهم آدميين، وتمنحهم الغلبة والتميز على سائر المخلوقات، الأفكار والأحلام هي ما جعلتنا نسود الأرض.

لذلك كان لزامًا علينا، بعد أن وصلنا إلى هذا الحد من الرُّقي والتطور أن ننسب الحقوق إلى أهلها، وأن نحميها ونصونها، وهذا هو ما أطلقنا عليه اصطلاحًا (حقوق الملكية الفكرية)، ذلك القانون الذي نتج عن فكرة وحلم هو الآخر، كان الهدف منها حفظ حق كل مُفكر في نسب فكرته إليه وحده.

قد تصيبكم الدهشة إن بحثتم في إعدادات صفحاتكم الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، ووجدتم أن بصفحاتكم عديدًا من الرسائل المستلمة من الموقع تخبركم أنكم قد انتهكتم سياسة نشر

المحتوى؛ بنشركم لمقاطع لا تملكون حقوق ملكيتها الفكرية، أقول لكم هذا وأنا واثق في ذلك على الرغم من أنني لا أعرفكم معرفة شخصية، فذلك الأمر بكل أسف قد أصبح قاعدة عامة لاستخدامنا لتلك المواقع، ربما تُدهشون لو علمتم أن كل صورة، أو اقتباس أو مقطع أو مقال نشرتموه، ولم تكونوا أنتم الذين صنعتموه أو كتبتموه أو دوّنتموه من الأساس، يُعدّ انتهاكًا لحقوق الملكية الفكرية لأحد الأشخاص.

الواقع يا سادة، هو أنه ولكثرة ما تعوّدناه من انتهاكات، لم نعد نشعر بكونها تنتهك أي حقوق!

وأنا اليوم أذكر نفسي وأذكركم، بأنه حينما نطالب بحقوقنا المشروعة، لا بد أن نطالب أيضًا بحقوق الغير، والواقع أننا نقع جميعًا في أخطاء من هذا النوع، دون حتى أن نعرف ذلك، في الحقيقة أننا اعتدنا الأمر، حتى لم نعد نُجرمه، ولذلك كان لزامًا علينا أن نعيد تقييم قناعاتنا.

السيدات والسادة، أردت فقط أن أخبركم أن كل مقال كتبته وكل كتاب جمعته، وكل رواية ألّفْتُها، كانت في بدايتها مجرد فكرة، تراقصت في الفراغ داخل عقلي، وتمايلت كسحب من دخان، تشابكت وتداخلت لتنتج بذرة الموضوع، التي ما لبثت أن زرعتها في وجداني ومشاعري، فنمت وربّت بعد أن امتزجت بدمائي لتطرح نصوصًا وأزجالًا وأشعارًا، من بنات أفكارِي، اللاتي هُنَّ من صلبي.

في الحقيقة إن الكتابة هي نوع من المعاناة اللذيذة، وضرب من

الجنون، وحالة من التلبُّس لكل عفاريت الإبداع والفكر. والحقيقة أنه لست أنا من يؤلّف قصة الرواية، بل أبطالها هم من يفعلون ذلك!

أولئك الأبطال ليسوا وهمًا بكل تأكيد، ليسوا شخصيات خيالية، إنهم أناس حقيقيون، يعيشون بداخل عقلي، يفكّرون، ويشعرون، يحزنون ويتألمون، يفرحون ويمرحون. كنت فقط أقوم بخلق الشخصية في خيالي، لأجدها تُحاورني وتقضّ عليّ حكايتها، وتغضب مني أحيانًا، وتخاصمني، وتعيد صياغة الكلمات حين لا تعجبها.. لذلك فإنني أصدقكم القول حين أخبركم أن نتاج الفكر الأدبي والروائي، هو نوع من وضع جزء أصيل من روح وشخصية الكاتب ووجدانه بداخل شخصيات أبطال روايته، كأنهم يقتاتون على مشاعره وأحاسيسه، ويستمدون الحياة من طاقته، ويتنقّسون الهواء من رئتيه.

ربما كان ابتكار شخصية جديدة في كل رواية بكل تاريخها، وتعقيداتها النفسية، وتناقضاتها، هو أمر أشبه بولادة طفل جديد من صلب الكاتب، ولا أبالغ إن قلت إنه قد يكون ارتباطًا أكثر عمقًا من ذلك. لذلك فقد كان توثيق عمله الأدبي بمنزلة شهادة ميلاد لطفله، وكان رؤيته للكتاب وهو يخرج من المطبعة أول مرة بمنزلة رؤية طفله الوليد، وكان قراءة كتابه من قبل القراء واستحسانهم إياه بمنزلة رؤيته لطفله الوليد، وهو يتنقّس ويحبو ويسير خطواته الأولى ويضحك ويلعب أمامه.

في الحقيقة قد لا أحسن التعبير وأنا أصف لكم شعور الكاتب، وهو يشاهد ما سيعيش بعد رحيله، وما سيتركه في الدنيا من بعده..

ولذلك، كانت أقسى طعنة يتلقاها الكاتب، هي مشاهدته لكتابه وكلماته تلك وهي تُسرق أمام عينيه، وكأن شخصًا اختطف طفله من بين يديه!

لكل ذلك، فقد كان المطلب بتدشين قانون رادع لحماية الملكية الفكرية، لا يقل أهمية لدينا عن قانون حماية الأطفال من الاختطاف أو قانون الإتجار بالبشر، وإنه ليوم عظيم، هذا اليوم الذي سأقف فيه هنا أمامكم لأحتفل معكم بإنجاز هذا العمل العظيم.

وبهذه المناسبة، أيها السيدات والسادة، لقد عازمت أن أضع خطابي هذا في مقال صغير، في مقدمة كتابي الجديد، تخليدًا لهذه المناسبة العظيمة، وليكون دائمًا بمنزلة دعم مني لهذا الحق الأصيل لكل مبدع. لذلك، فعندما تصلون إلى هذا الحد من الاستماع، أو من القراءة في صدر كتابي الجديد، ستعلمون أنني قد انتهيت من الكلمة، ومن المقال. وأتمنى أن أكون قد استطعت أن أوضح لكم الغرض منه. أما كل ما أتمناه فهو أن تكون قراءتكم لتلك الكلمات كانت في كتاب أصلي، وليس في كتاب منسوخ ومطبوع، أو في ملف مصور بطريقة غير مشروعة، بصيغة PDF!!

شكرًا لكم..."

كانت منيرة أولى الواقفين بحماس شديد، تكاد تلتهب يداها من التصفيق لعز الدين، الذي انحنى بهدوء أمام الحضور، بعد أن هاله كل هذا الاحتفاء بكلماته.. من وسط كل العيون المحدقة به، كان يركز عينيه على عينيه فقط، تلوح الابتسامة على وجهه.

بهدوء وثقة، خطا ببطء تاركًا خشبة المسرح، هبط الدرج، سار حتى وصل إلى مقعده، حيًا الحضور ثانيةً، جلس إلى جوارها، أمسك يدها، وضغط عليها، وهو يُطلق تنهيدة طويلة من صدره، كان يختزنها بداخل رئتيه قرابة الأربعين عامًا.. أحس اليوم فقط بأنه تماثل للشفاء نهائيًا من الرهبة من الاختبار الشفهي!

عبثت منيرة بحقيبتها، أخرجت منها هاتفه النقال، مدت به يدها إليه، وهي تقول:

- هذا الهاتف لم يكف عن الاهتزاز طوال إلقاءك للكلمة، يبدو أن أحدهم كان يلح في الاتصال بك.

- من يكون هذا المزعج؟

نظر إلى شاشة هاتفه، ما لبث أن فتح قفله ببصمة وجهه، ليظهر أن المتصل كان مدير دار النشر.

قَطَّب عز حاجبيه، في دهشة أردف إلى منيرة، قائلاً:

- أمر غريب جدًّا، إنه بالتأكيد يعلم أنني هنا في المؤتمر الآن، لا بد أن الأمر مهم جدًّا، سأخرج لدقائق لأعاود الاتصال به، لن أتأخر.

هزت إليه برأسها، نهض بهدوء، خرج من باب القاعة، وأجرى الاتصال. لم يطل الأمر لأكثر من دقيقة، عاد بعدها عز الدين إلى مقعده، جلس صامتًا واجمًّا، سألته:

- ما بك يا عز، ماذا حدث في تلك المكالمة؟

- لا شيء يا عزيزتي، فلنتحدث بعد انتهاء المؤتمر من فضلك.

جلس عز الدين صامتًا على المقعد المواجه لمنيرة بالقاعة الملحقة بمركز المؤتمرات، عقب انتهاء مراسم المؤتمر، كان يبدو عليه الضيق الشديد، بدا كما لو أن الهواء لم يعد يكفيهِ للتنفس، عبث بربطة عنقه بعصبية، وفتح أزرار قميصه العلوية، رفع يده إلى النادل يطلب كوبًا من الماء.

نظرت إليه منيرة في خوف، أمسكت يده، ضغطت عليها، وهي تقول له:

- هذا أكثر مما أحتمل، لا تقلقني أكثر من هذا، أرجوك أخبرني ماذا حدث؟

- لا شيء يا منيرة، كنت تريدان الاطمئنان على والدك، اطمئني، لقد ظهر.

- ماذا، هل هو بخير، هل أصابه مكروه ما، أخبرني.

- لا يا منيرة، لا تقلقي عليه، هو بأفضل حال.

- إذا لم كل هذا الحزن، لم كل هذا الضيق؟

- لقد انهارت كل أحلامي، انهارت سمعتي، انهار مستقبلي يا منيرة.

- لماذا، ماذا حدث؟

- أحد المحامين اتصل هاتفيًا بمدير دار النشر، وأخبره أنني مدع كاذب، وأن روايتي من تأليف شخص آخر، وأن هذا الشخص قد

أقام دعوى استرداد حقوق ملكيته الفكرية لها، يختصم شخصي أنا ويختصم دار النشر فيها، فما كان من دار النشر سوى أن أبلغتني بفسخ تعاقدتها معي، وسحب نُسخ الرواية من الأسواق، قبل أن يصل الأمر إلى وسائل الإعلام إن آجلاً أم عاجلاً، ويفتضح كذبي ويؤثر في مصداقيتها لدى القراء.

- مَنْ هذا الشخص الذي أقام الدعوى؟

- الأستاذ نائل سويدان.

صرخت منيرة، ضربت وجهها بيديها، وانفجرت في البكاء بانهياب شديد. لم يُعَقِّب، أسند رأسه إلى المقعد وأغمض عينيه، في حين ذرفت منهما دموعتان صامتتان، كانتا أبلغ من أي كلمات.

الصدمة

- منذ متى وهي على هذا الحال؟

قالها مراد، وهو ينظر إلى منيرة، التي كانت مغمضة العينين، ممدّدة على سرير معدني أبيض، ومتصل بيدها ثمة خرطوم رفيع، يؤمّن لها انسياب تدفق محلّول في دمائها، ومقبس صغير في سبابتها يُظهر معدّل ضربات قلبها ومؤشرات جسدها الحيوية على إحدى الشاشات التي تجاور السرير، قبل أن يجيبه عز الدين هامسًا:

- عشرة أيام يا مراد، منذ ذلك اليوم، بعدما فقدت الوعي، نقلتها إلى هنا فورًا، عندما أفاقت كانت في حالة من الذهول، تصرخ بشدة، ولا تهدأ أبدًا، أعطاهم الأطباء عقارًا مهدئًا حتى نامت، وأخبروني أنها تعاني من صدمة عصبية شديدة، ومنذ تلك اللحظة وهي تمتنع تمامًا عن الأكل والشرب، والكلام، لم تهدأ قليلًا سوى منذ يومين فقط، لكنها عندما تستفيق، تجلس شاردة تنظر إلى لا شيء، ولا تجيب أحدًا، حتى إنني لم أستطع فتح هاتفها ببصمة وجهها إلا بصعوبة شديدة بالأمس فقط، حتى أبحث عن رقمك وأدعوك إلى الحضور.

- هل حدث لها هذا بعد أن علمت بأمر القضية.

- نعم، أو ربما كانت تلك هي القشة الذي قصمت ظهر البعير.

- ماذا تعني؟

- الحقيقة أن اضطراب حالتها بدأ منذ قرأت بضع صفحات كتبها أبوكم، كانت تتحدث عن تاريخ حياته مع أمكم، وقصة حبه لها.

- ماذا؟ أبي؟ وأمي؟ ماذا كتب؟

- في الحقيقة يا مراد، ينبغي أن أروي لك ما دار بيننا في خلال المدة الأخيرة، دعنا نجلس قليلاً في استراحة المشفى، نشرب كوبين من القهوة وأسرّد لك كل شيء حدث، حتى هذه اللحظة.

- يا لها من مسكينة!

قالها مراد بصوت خافت، بدا حزيباً جداً، عندما وضع مرفقيه على الطاولة، وأمسك جبهته بأصابع يده، وهو يهز رأسه ببطء، قبل أن يجيبه عز الدين، قائلاً:

- مسكينة فعلاً، لقد عانت الكثير في الفترة الماضية.

- لا يا عز، أنت لا تعلم شيئاً.

- ماذا تقصد؟

- حسناً، أنت لم تعد غريباً عثّاً، سأحكي لك كل شيء.

- كلي آذان مصغية.

- لم تكن تلك هي الصدمة العصبية الأولى التي تتعرّض لها منيرة في حياتها، لقد مرّت بتجربة مماثلة عندما كان عمرها لا يتجاوز الرابعة عشرة، واستدعى ذلك عرضها على طبيب نفسي، وعلاجها لأعوام بعد ذلك.

- لم تخبرني منيرة من قبل بأمر مثل هذا.

- بالطبع، حتى أبي لا يعرف هذا، كان يعمل وقتها في الإمارات، مسافر دائماً، وقد أخفت أُمي الخبر عليه، ونَبَّهت علينا بعدم التحدث معه بهذا الشأن أبداً، كان من الممكن أن ينتظرنا عقاب كبير ممتد لطوال السنة إن تحدثنا عنه لأبي في خلال الأيام التي كان يقضيها معنا في خلال الإجازات السنوية، وكنا أطفالاً صغاراً نخشى ذلك.

- ولماذا تُخفي أُمك عليه ذلك الأمر المهم؟

- لأنه كان يتعلق بها هي بالأساس، كان يفتح أبواباً لا تريد أن تفتحها أبداً، مما جعل حالة منيرة ربما تسوء أكثر، وجعل علاقتهما دائماً متوترة، أو لنقل منعومة.

- لا أفهم شيئاً.

- حسناً، سأشرح لك، ولكن قبل أن أشرح ينبغي أن أشكر، لأنك دون أن تقصد حللت لغزاً كبيراً عاش بداخلي أنا ومنيرة لسنوات طويلة، وكان بمنزلة شرح كبير في علاقتنا بأُمنّا، لم نغفره لها قط، وبينما سافرت أنا بعيداً لأنسى كل شيء، عانت منيرة من عدم قدرتها على الابتعاد، حتى بالزواج والانتقال للعيش في بيت آخر.

- أنت تزيد الأمر غموضاً.

- لا يا عزيزي، سأوضح لك كل شيء، في البداية عانت منيرة من مشكلات طبيعية، مثل كل فتاة في عمرها، تعيش مع أمها في غياب الأب، كانت أُمي دائماً متطلعة إلى النجاح في عملها وتحقيق طموحها، كانت متطرفة جداً في نيل الدرجات العلمية وتحقيق الذات، وكانت بالفعل تحب الإطراء والتكريم، وكأنها كانت تثبت

لنفسها شيئًا لم تكن نفهمه قط، لكن ذلك والحق يقال لم يجعلها تهمل يومًا دورها في الاعتناء بنا، كنت أنا بالطبع أصغر من منيرة، وكنت صبيًا، بعكس فتاة كانت تكبر وتسعى في ذلك الوقت لنيل الإعجاب هي الأخرى، تولّد لديها في ذلك الوقت نوع من الغيرة، كان ربما طبيعيًا إلى حد ما، لكن ذات يوم، حدث أمر جلل.

- ماذا حدث؟

- ذات يوم، عثرت منيرة على صندوق صغير مخبأ في خزانة ملابس أمي، واطلعت على ما بداخله خلسة، كنا قد اعتدنا أمي وهي تجلس كل فترة تشاهد ما بداخله، وتبكي، وعندما ندخل عليها تسارع بإغلاقه، وتمسح دموعها كأن شيئًا لا يحدث.

- وماذا كان بداخل الصندوق.

- صور قديمة غير واضحة المعالم، لأمي في مرحلة شبابها، وهي تقف بجوار رجل كان يكبرها كثيرًا، ملتصقة به وكأنها حبيبته، إلا إنه كان دائمًا ما يرتدي نظارة كبيرة ذات عدسات سوداء قاتمة، تغطي معظم وجهه، ويعتمر قبعة من تلك التي اشتهر بها الرجال في تلك الحقبة والتي كانت تدعى (كاسكيت)، ثم يلتفح بكوفية من الصوف يلفها على رقبته لتكاد تخفي أسفل ذقنه، وكأنه كان يحاول التخفي وهو بصحبته!!

كان بداخل الصندوق أيضًا عديد من بطاقات المعايدة، والكروت، مدوّن عليها كلمات مثل (إلى حبيبتي أحلام)، (حبيبتي الجميلة أحلام)، (القمر الذي أنار حياتي أحلام)، وبعض قصائد الأشعار،

وكلهم بتوقيع رجل واحد، كان اسمه مراد، نفس الاسم الذي أطلقته أمي عليّ.

- بدأت أفهم، بالطبع فهمت منيرة أنه كان حبًا قديمًا في حياتها أو ما شابه.

- بالضبط، وعندما عادت أمي من العمل واجهتها بما وجدته، واتهمتها بخيانة أبي، انفعلت أمي جدًّا، ونهرثها وأخبرتها أنها فهمت الأمر بطريقة خاطئة، وأن الأمر ليس مثلما يبدو عليه، لكن منيرة لم تتوقف عن إلقاء التهم عليها، بل في غمرة ثورتها مزّقت كل تلك الصور والأوراق وألقته من النافذة، حينها جُنَّ جنون أمي، وصفعتها على وجهها.

صمت عز الدين، أطلق من صدره تنهيدة طويلة، بدا عليه الحزن والشفقة وهو يحول نظره بين مراد وبين الاتجاه الذي يؤدي إلى غرفة منيرة، وهو يردف إليه، قائلاً:

- وبالطبع سبّب لها ذلك صدمة شديدة.

- بالضبط، دخلت في حالة مماثلة لتلك التي هي عليها الآن، وظلت هكذا فترة طويلة، ثم عرضتها أمي على طبيب نفسي، بدأ في علاجها، أخبرها بأنها كانت في الأساس تعاني من حالة تُسمّى إكترا.

- يا لهول ذلك! أنا أعرف تلك الحالة جيدًا، لقد قرأت عنها، عقدة إكترا تلك الفتاة التي عانت طوال عمرها من أمر مماثل، عانت من خيانة أمها كليمنسترا، لأبيها أغاميمنون، وقتلته بحثًا عن حبها مع رجل آخر.

- هو كذلك فعلاً، لقد صوّرت منيرة أُمي، بأنها أبعدت أبي عنها وعنّا عن قصد، وكأنها قتلت وجوده في حياتنا، لتخونه مع مراد هذا، لقد صوّر عقل منيرة لها دون وعي بأنها (إلكترا) التي تسعى للانتقام من أحلام أو كليمنسترا، التي قتلت وجود الأستاذ نائل سويدان أو السير أغاميمنون، بل تطور الأمر لأن بدأت تدفعني بكل الطرق لكراهية أُمي، ومحاولة إيذاء مشاعرها في كل مناسبة، بالضبط كما أرادت إلكترا الاستعانة بأخيها لقتل كليمنسترا، ثأراً لأبيهم.

- لكن ما لا أفهمه، إن كان الأمر خطيراً إلى هذا الحد، لماذا منعتكم أمكم عن إبلاغ أبيكم بكل ما حدث، الرجل كما قرأنا، لم يكن حبيبها، بل كان بمنزلة أبيها.

- أعتقد أنها كانت تخشى ألا يفهم أبي الأمر بصورة صحيحة، فمن الواضح أن أبي كما كتب هو، لم يجمعه لقاء واحد بالحاج مراد، ربما كان لتصيبه الغيرة أو يفجّر هذا الشكوك في قلبه من ناحيتها.

- ربما، لكنني لا أراه تصرفاً صحيحاً أبداً.

- هل تعلم شيئاً يا عز، سأكون صادقاً معك، حتى بعد أن قرأت صفحات أبي، وبعد أن كبرت في السن إلى هذا الحد، لا أخفي عليك أنني أعتقد أن أُمي نفسها كانت تخشى من مصارحة نفسها بحقيقة مشاعرها تجاه هذا الرجل... الحاج مراد.

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما فهمته، من واقع ما سرده أبي، من وجهة نظره بالطبع،

أجد أن أُمِّي كانت في ذلك الوقت فتاة صغيرة، تمر بنفس ما مرت به منيرة من مراهقة، أشعر أنها كانت قد تعلقت بالرجل بصورة ما، حتى إن كان تعلقًا طفوليًا، أو نوعًا من المراهقة، قد يكون هذا ما كانت تشعر به بالفعل، قبل أن تقابل أبي وتحبه حبًا ناضجًا، هل تعلم، أعتقد أن هذا كان هو السبب في اختفاء الحاج مراد المفاجئ ورسالته الأخيرة لها، كأنه كان يريد أن يوصل رسالة إليها مفادها أنني في مقام أب لك، وأنه ينبغي لك أن تجدي الحب مع شخص مناسب، بل ربما كان أبي يشعر بذلك أو لديه شكوك، ولم ترد هي أن تفجر لديه هذا الشك فتفقد حبه لها.

- هل تعلم يا مراد، إن هذه قصة رواية عظيمة، الحياة دائمًا ما تحمل أجمل القصص، وأكثرها روعة، من كل ما كتبه المؤلفون، أعتقد أنك على حق بالفعل في تحليلك هذا، وأعتقد بالفعل أن أمك كانت تشعر نحو هذا الرجل بإحساس الفتاة المراهقة التي وجدت الأمان، كما أعتقد أنه قد بدأ يشعر بذلك، وبخبرة رجل عجوز مُجرب، ربما اختار لها رجلًا آخر مناسبًا لها، وثق فيه، ورثب لها لقاء أبيك، بدليل أنه كتب لها (اليوم أسلم الأمانة)، كأنه كان يعرف أنها ستقابله في نفس اليوم، أو حتى كأن الأمر كان مرتبًا بينهما، ربما كانا على صلة لا تعرفها أمك.

- هذا منطقي جدًا.

- يا لها من قصة! ألم أقل لك.

- هل علمت الآن سبب صدمة منيرة عندما قرأت تلك الأوراق، لقد

وجدت المسكينة أنها أضاعت عمرها كله تكره أمها، وتعاقبها على ذنب لم تفعله، خسرتها طوال سنوات عمرها، ثم ها هي اليوم تخسر أباهها أيضًا، وتولّد خصومة بينه وبين الرجل الذي تحبه، من قبل حتى أن يتقابلا، لقد كان الخبر قاسيًا جدًا عليها، ولم تستطع تحمّله.

- مسكينة فعلاً، لكن أعتقد ما دام أننا عرفنا المشكلة تحديداً، ينبغي لنا الاستعانة بطبيب نفسي متخصص، نشرح له كل شيء، حتى يمكنه إخراجها من تلك الحالة، لا بد أن نفعل ذلك الآن يا مراد.

وهو يلتقط هاتفه من على المنضدة، أجابه مراد:

- لا عليك، أنا أعرف بالفعل أحد أفضل الأطباء النفسيين، سأذهب فوراً لإحضاره.

- حسناً، وأنا سأذهب لأطمئن على منيرة، سأنتظرك في غرفتها.

- اتفقنا.

نهضا معاً، سار كلُّ منهما في اتجاه. دلف عز الدين إلى غرفة منيرة، وجدها قد استفاقت من تأثير المهدئ، وجلست على السرير بلا حراك، تحقق في حائط الغرفة المواجه لها، جلس بجوارها، مد يده، التقط يدها، ضغط عليها وهو ينظر إلى عينيها، قائلاً:

- حبيبتي، لا تقلقي، سيصبح كل شيء على ما يرام، أعدك بذلك.

نحو التعافي

- أقدم لك الدكتور/حاتم هارون طبيب الأمراض النفسية والعصبية الشهير.

قالها مراد، وهو يقدم حاتم الذي كان قد أتى لتوّه إلى المشفى بصحبته، إلى عز الدين الذي مد يده مصافحًا حاتم وهو يبادره بالسلام قائلاً:

- أهلاً وسهلاً دكتور حاتم، أشهر من نار على علم، أعرفه بالطبع يا مراد، وأتابع كل اللقاءات التي تُعقد معه على الشاشات.

- شكرًا لك يا أستاذ عز، أنا أيضًا سعيد جدًا بمعرفتك، في الحقيقة يجب أن تعرف أن بجانب كوني طبيبًا، فأنا قارئ نهم، وأعجبتني روايتك الأخيرة جدًا.

- هذا يسعدني جدًا يا دكتور، كنت أتمنى لو كانت الظروف أفضل مما نحن عليه حتى يمكننا معرفة بعضنا بشكل أفضل...
قاطععه مراد قائلاً:

- لا تقلق يا عز، سيحين وقت الظروف المواتية قريبًا بإذن الله، وعلى كل حال دكتور حاتم ليس طبيبًا لعلاج منيرة فحسب، يمكنك أن تعتبره صديقًا للعائلة.

- هذا خبر سعيد، أتمنى أن نسمع منك خبر سعيد عن منيرة أيضًا يا دكتور.

ابتسم حاتم بهدوء واثق، وهو يجيبه قائلاً:

- لقد شرح لي مراد كل شيء في طريقنا إلى هنا، إن سمحتم لي.
قالها وهو يلتفت ناحية منيرة، فهما أنه يقصد أن يتركاه ليبدأ
الكشف عليها، عادا بضع خطوات إلى ركن في الغرفة، يراقبا ما كان
يفعله. مرت بضعة دقائق، حتى كان حاتم يضغط على جرس بجوار
سرير منيرة.

ثواني ودلفت إلى الغرفة إحدى الممرضات، عرّفها بنفسه، وطلب
منها إبلاغ الطبيب المسؤول عن حالة منيرة أنه سيتسلم متابعة
المريضة، ثم أخبرها أنه يريد ثمة عبوة محلول معلق من صيدلية
المشفى.

دقائق وكانت تعود، تحمل بيدها علبة محلول، مدوّناً عليه
بالإنجليزية اسم (باروكسيتين)، علقتة على الحامل بجوار منيرة،
ووضعت الخرطوم الرفيع المتصل به في القطعة البلاستيكية المثبتة
بيدها، شكرها حاتم، وأخبرها أن تبلغ الطبيب المختص بالمشفى
بتجهيز إجراءات الخروج لمنيرة بعد ساعتين، وعلى مسؤوليته
الشخصية.

نظر حاتم إلى مراد وعز الدين، وبصوت خافت، قال لهما:

- حسناً يا سادة، دعونا نخرج من الغرفة لنحدث قليلاً، في الوقت
الذي يسري هذا المصل في جسدها، ينبغي أن يرفع هذا من نسبة
السيريتونين في جهازها العصبي، فيحسن من مزاجها، ويحسن
استجابتها النفسية، حتى يمكنني بدء الجلسة العلاجية، لكن الأهم

هو أنني أريد أن أجلس معكما لأشرح لكما ما يجب فعله في خلال الفترة القادمة.

- بالتأكيد، تفضّل يا دكتور، يمكننا أن نجلس باستراحة المشفى.
- عظيم جدًا.

- حسنًا أيها السادة، أردت أن أجلس معكما لأوضح لكما بعض الأمور، ينبغي أولاً أن نعرف جميعًا أن علاج ما بعد الصدمة النفسية لا يتوقف على المريض فحسب، بل يعود إلى عدة عوامل، أولها بكل تأكيد العلاج النفسي والدوائي.

- مفهوم بالطبع يا دكتور.

- حسنًا، سأكتب لها يا مراد على أقراص، ولتكن (سيرترالين)، مع منوم عند اللزوم في حالات الأرق، وليكن (نايت كالم)، على أنه لا بد أن أؤكد على ضرورة تلقي الجرعات في موعدها دون أي خلل، هذا من ناحية العلاج الدوائي، أما النفسي، فإننا سُنحدّد مواعيد جلسات علاجية، سأقوم بالحضور إليكم في البيت في الأسبوع الأول، وحتى يمكنها الحضور إلى عيادتي لاستكمال الجلسات، ولكن الأهم من كل ذلك هو ما أريدكم بشأنه الآن.

- وما هو يا دكتور؟

- استمع إليّ جيدًا يا أستاذ عز الدين، وأنت أيضًا يا مراد، في البداية ينبغي أن أخبركم أن من أهم الأشياء في العلاج، هو ابتعاد

الشخص عن مسببات الحزن والهلج، لا ينبغي أبدًا في هذه الفترة أن يثار أمامها أي موضوع يُسبب لها الضيق أو الحزن أو الهلع، بل ينبغي أن تبحثوا عما يُسبب لها السعادة، والرضا، هل تفهماني جيدًا.

- بالتأكيد يا دكتور، سأحرص على ذلك بالطبع، وأعتقد أن عز الدين سيفعل نفس الشيء.

- حسنًا، من أساليب العلاج في حالتها هو المجموعات، بمعنى أن تجلس في وسط مجموعة من الذين مروا بتجارب مشابهة، يروي فيها كل واحد منهم تجربته، ويتفاعلون مع مشكلات بعضهم بعضًا، كنوع من الإلهاء عن مشكلته الأساسية، والتفكير بطريقة إيجابية للبحث عن حلول لمشكلة شخص آخر، هذا ربما يحقّز مراكز المخ للبحث عن حل لمشكلته الشخصية دون أن يشعر، والبدء في التغلب عليها، ما أريد قوله، هو أنه يمكنكم أن تتبعوا معها هذا الأسلوب، بالتركيز على ما تواجهون من عقبات أو مشكلات خاصة بكم، بعيدًا عن مشكلتها هي.

- وهذا أيضًا أمر جيد، أعتقد أننا يمكننا فعله.

- حسنًا، آخر ما يهمني أن تفعلوه، هو محاولة إنهاء مشكلة القضية بأسرع وقت، ومن دون أي ضغط على نفسية منيرة، وإياكم أن تضعوها في موقف خصومة مع أبيها، أمام قاضٍ، هل فهمتم.

- أكيد يا دكتور.

- حسنًا، دعوني أبدأ جلستي الأولى معها، بعد إذنكم.

- تفضّل، سننتظرك هنا حتى تنتهي.

مرت الأيام ببطء على منيرة، وهي تخطو كل يوم خطوة صغيرة خارج النفق الطويل الذي انزلقت به. ليس من السهل أبدًا إعادة اتزان عقل بعد أن فقد توازنه. ربما كان ذلك النفق الذي دخلته اختياريًا، على رغم أنها كانت مجبرة على ذلك.

في بعض الأوقات يضع عقل الإنسان له اختيارًا واحدًا، لا ثاني له، يُجبره على الدخول إليه باختياره، عقله الباطن اللاواعي، عندما يجد نفسه محاصرًا بأكثر مما يحتمل من الآلام، أو الخيبات، أو الهزائم، أو الفضائح، يفضّل أن يطفئ جميع الأنوار ويتخفى في الظلام، في ركن بعيد ليبكي دون أن يراه أحد، أو يصرخ دون أن يسمعه أحد.

استيقظ مراد من نومه، قبيل التاسعة صباحًا. بعد عدة دقائق كان يدخل غرفة منيرة حاملاً الإفطار على صينية صغيرة، وضعها بجوارها، فتح ستائر النافذة، فغمر الغرفة ضوء ساطع.

اخترقت أشعة الشمس فضاء الغرفة كأنها تُعلن عن انتصارها على الظلام. كانت مستيقظة، تجلس على الفراش بهدوء، بادرها بالحديث قائلاً:

- صباح الخير يا (مون مون).

نظرت إليه وشبح ابتسامة ساخرة تتسلل من بين شفتين غلب
الحزن قسماتها، قبل أن تجيبه، قائلة:

- بلدي أوي مون مون دي يا مراد.

- لا يهم (بلدي بلدي) الأهم أنك ابتسمت يا عزيزتي.

أومات إليه برأسها، في رتابة، قبل أن تلتقط هاتفها النقال، وتعبث
بأحد مواقع التواصل الاجتماعي في لا مبالاة، إلى أن قطع الصمت،
قائلًا:

- لا يا عزيزتي ليس هذا وقت العبث بالهاتف، لا أعلم ما الأمر
الفسلي في هذه المواقع من الأساس، أنا أحمد الله على عدم
امتلاكي لأي حساب عليها، وعدم انشغالي بما تقدمه من تفاهات،
ومضيعة للوقت، هيا لتتناولي إفطارك، لقد حان موعد الدواء، كما أن
موعد جلسة الدكتور حاتم يحين بعد نصف ساعة.

- حسنا يا مراد، اتركني فقط وسأتناول الإفطار.

- لا، لن أتركك حتى تُنهي أطباقك، وأطمئن عليك، ثم إن عز الدين
في الطريق إلى هنا، ألا تريد عروستنا أن تضع بعض الأحمر والأخضر
قبل أن يراها العريس ويطفش.

ابتسمت مجددًا، قبل أن تجيب عليه، قائلة:

- (أحمر وأخضر... ويطفش)، أعتقد أنك ينبغي أن تمتنع عن الكلام
حتى نهاية اليوم يا مراد.

ضحك وهو يجلس بجوارها، يناولها قطعة من الخبز، حين رنَّ

جرس الباب، استأذنها ليفتحه، ثواني وكان عز الدين يقف أمامها مبتسمًا، ابتسمت بهدوء، بدت الابتسامة ثقيلة جدًا على شفثيها، أومأت إليه برأسها ببطء، جذب مقعدًا وجلس بجوار السرير، التقط يدها بيده، وهو يقول:

- حمدًا لله على سلامتك، هل ترين كم هي الشمس مشرقة اليوم، لا ريب أنها فعلت ذلك لإشراق وجهك بهذه الابتسامة.

قطع استرساله صوت مراد، وهو يقول:

- إحم إحم... نحن هنا يا سادة.

ضحك على مداعبته، قبل أن يستكمل مراد الحديث، قائلاً:

- حسناً، أعتقد أنني عزول سخيؑ؁ سأذهب لإعداد الشاي، ولا أعود.

ذهب وسط ابتساماتهم، نظر عز الدين إلى عيني منيرة مطوًلاً؁ قبل أن يردف إليها؁ قائلاً:

- حبيبتي لن أستطيع المكوث معك طويلاً اليوم؁ لديّ موعد مهم لا يمكن التخلّف عنه؁ لكن لم يكن باستطاعتي أن أذهب إليه دون رؤيتك.

نظرت إليه؁ ابتسمت بهدوء؁ وأومأت برأسها.

- أريد أن أخبرك بأمر واحد فقط قبل أن أذهب.

نظرت إليه ولم تعقب؁ هزت رأسها بهدوء؁ كأنها تخبره أن يتابع

الكلام.

- أردت أن أخبرك أنني أحبك.

ابتسمت، استكمل قائلاً:

- وأني لن أسمح أن تخسري أباك أبدًا، هل تفهميني؟ أبدًا، أنا أحبك، وسأضحّي بكل شيء من أجلك... كل شيء.

قُطِبَتْ حاجبيها، ثم ما لبثت أن عاودت الابتسام برتابة، أومأت برأسها إليه، بعينين تنضحان بحزن، واستغراب من كلماته، ضغط على أصابع يدها، مد وجهه نحوهما، طبع قبلة عليهما، ونهض مودعًا إياها. لوحت إليه بيدها بوهن، وعادت تلتقط هاتفها النقال تقلّب في صفحات التواصل الاجتماعي بلا هدف.

بعد عدة دقائق.. كان مراد يخرج من غرفة منيرة حاملاً صينية الإفطار بعد أن انتهت من تناوله، وتناول الدواء، حين كان جرس الباب يرن من جديد، وضع الصينية على الطاولة، وفتح الباب. دعا الدكتور حاتم إلى الدخول، حين سمع صوت منيرة تصرخ فجأة.

دلف الاثنان سريعًا إلى غرفتها، نظرت إليهما وهي توجّه شاشة هاتفها نحوهما تريهما ما ظهر عليها وهي تصرخ، قائلة:

- ليه محدش قالي إن النهاردة ميعاد جلسة القضية!

الجلسة الأولى..

لم يكن المنشور الذي شاهدته منيرة على موقع التواصل الاجتماعي هو الأول من نوعه، الذي نُشر عن جلسة القضية، بل لعله الأول بعد الألف! كان الأمر أشبه بفضيحة مدوية.

في الآونة الأخيرة، كان خبر إقامة أحدهم دعوى لاسترداد حقوق الملكية الفكرية من عز الدين، الكاتب الروائي الكبير، قد أصبح مادة جيدة جدًا لعدد من مقدمي المحتوى على صفحات التواصل الاجتماعي، أو بالأحرى.. مقدمي اللا محتوى!

انتشرت سريعًا عديد من المقاطع الكوميديّة، تعرض أجزاء مقتطعة من الكلمة التي ألقاها عز الدين، عن حقوق الملكية الفكرية، تظهر فيها كم كان متشدّدًا بمعانٍ سامية وهو يتحدث عن سرقة الأفكار، ثم تعرض خبر سرقة هو شخصيًا لنص الرواية التي كانت السبب في شهرته الواسعة، مع بعض اللقطات من (الإيفيات) المشهورة لبعض الفنانين.

كما صمّم بعض المدوّنين نكاتًا ساخرة لاذعة، على الأمر برمته، وعديدًا من الـ(كوميكس). كانت في الحقيقة قد أصبحت فضيحة عز الدين هي (التربند) لهذه الأيام.

وقف عز الدين في الجهة المقابلة لمبنى محكمة مصر الجديدة بشارع أبي بكر الصديق، يرتدي نظارة شمسية كبيرة، يحاول أن

يُخفي ملامح وجهه وراءها، وكوفية صوفية، يلتفح بها محاولاً أن يداري باقي ملامحه تحتها، على الرغم من حرارة الشمس التي كانت قد ارتفعت في بداية شهر مارس.

وقف يراقب تجمع عديد من الصحفيين ومراسلي القنوات الإخبارية، الذين حجبوا البوابة من كثرة عددهم، وهم يتلفّتون يمينًا ويسارًا، باحثين عن الفريسة. كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة والنصف صباحًا، ولم يتبقَّ على موعد الجلسة سوى نصف ساعة.

أخرج هاتفه من جيبه، قلب في قائمته، حتى وجد اسم (الأستاذ علي المحامي)، ضغط مفتاح الاتصال، انتظر حتى آتاه الرد.

- أين أنت يا أستاذ عز، الجلسة قاربت على البدء.

- أنا في الخارج يا أستاذ علي، أقف في الجهة المقابلة من الشارع، لا أعرف كيف سأمر من بين كل هؤلاء الصحفيين.

- حسناً، انتظرني، سأتي إليك مع بعض الزملاء، لندخلك دون أن يزعجوك.

أنهى المكالمة وأقفل هاتفه، وأعادته إلى جيبه. دقائق، وكان يدخل من البوابة يحيط به عدد من زملاء علي، وسط هرج ومرج من تدافع الصحفيين وحاملي الكاميرات والهواتف النقّالة، عشرات الومضات من فلاش الكاميرات، ومحاولات عديدة لإلقاء أسئلة عليه في طريقه، رفع يده علامة أنه لن يتكلم، في حين كانت المجموعة تحاول اختراق الصفوف بصعوبة شديدة، حتى نجحوا في المرور، سار معهم بخطوات سريعة حتى دلفوا من باب القاعة وجلس في

المكان المخصّص له، بجوار المحامي، وعلى يمينه كان يجلس مدير دار النشر صامتًا متجهّمًا.

جلس عز الدين بهدوء يستمع لإرشادات الأستاذ علي المحامي، قبل بدء الجلسة. قبل أن يقاطعه قائلاً:

- لو سمحت لي، كنت أريد أن أعرف، ما هي عقوبة الشخص الذي يثبت عليه انتهاكه لقانون حقوق الملكية الفكرية، وسرقة الإبداع من شخص آخر.

- في الحقيقة أنت محظوظ يا أستاذ عز، عذرًا مني، لا أقصد الإساءة، ولكنني أتحدث بلغة القانون فحسب، فحتى هذه اللحظة وطبقًا لنص المادة رقم ١٨١ لقانون حماية الملكية الفكرية، المعمول بها حتى الآن، وقبل صدور القانون الجديد الذي كنت تتحدث عنه منذ أيام في كلمتك، فإن العقوبة هي الحبس لمدة شهر فقط، والغرامة بمبلغ خمسة آلاف جنيه فحسب.

- شهر حبس؟

- نعم، ولكن لا تقلق، فقد جرت العادة على إنه إن حكم القاضي بالحبس فإنه على أغلب الظن يكون مع إيقاف التنفيذ، كما أن الغالبية من القضايا المشابهة تنتهي بالغرامة فحسب، هل ترى (يا بلاش)! هل تعلم أنه منذ أيام كان هناك رجل قام بطبع مائة ألف نسخة من كتب المواد الدراسية الخارجية وباعهم بعدة ملايين من الجنيهات، وعندما تم القبض عليه وحوكم، دفع خمسة آلاف جنيه فحسب، بالإضافة إلى شهر في الحبس مع إيقاف التنفيذ، ألم أقل لك

(يا بلاش)!

- لا أتحدث عن المكسب المادي أبدًا يا أستاذ علي، بل عن الحق الأدبي.

- حتى الأدبي يا عزيزي، في الحقيقة أن هذا النوع من القضايا له عديد من الثغرات التي ينفذ منها على الأغلب المتهم بارتكاب الواقعة، توارد الخواطر والأفكار، والطعن في إثبات النقل، والطعن في تزوير الخطوط، وعديد من الأمور، لا تقلق أبدًا، القضية سهلة، ولن يحدث أي شيء على الإطلاق.

نظر إليه عز الدين، هزّ رأسه في رتابة، ثم جال بنظره من جديد في أرجاء القاعة، كان الصحفيون والمراسلون قد انتقلوا من أمام بوابة المحكمة إلى داخل القاعة، وتراصوا على الأجناب وفي الخلف، وفي كل موقع يتيح إليهم إمكان التصوير بوضوح.

تلقت حوله، نظر إلى يساره، ظل يفتش بين الحضور، حتى وقعت عيناه على نائل، كان يدلف لتوّه إلى القاعة متوجّهًا نحو موضع جلوسه المفترض، لأول مرة تلاقت عيناهما معًا، جلس الأخير بجوار محامٍ آخر في الصف الأول من صفوف جهة اليسار للقاعة.

نهض عز بغتة واقفًا، وبخطوات سريعة غادر الصف متوجّهًا نحو نائل. أخذ في عبور الازدحام الكبير، بصعوبة شديدة. كان لا بد من لقاء خارج سياق خصومة في قضية، كان لا بد من حوار مع الرجل الذي يسعى للزواج من ابنته، على رغم كل شيء، من المفترض أن يصبح هذا الرجل في مقام أب له.

نسي كل شيء، تناسى أي خصومة أو عدا، ذهب ووقف أمامه. نظر إليه نائل بغضب، قَطَب حاجبيه، ابتسم عز الدين، بدت على وجهه نظرة ود، في حين حملت عيناه كثيرًا من الكلمات، مد يده ليصافحه، في منتصف طريقها إلى يد نائل، علا صوت حاجب المحكمة، هو يقول:

- محكمة...

انتهى محامي نائل من عرض حيثيات مرافعته أمام هيئة القضاة، وجلس بمقعده، قبل أن ينهض الأستاذ علي، ويتقدم خطوات أمام هيئة القضاة، قائلاً:

- علي حسنين محمد، المحامي، حاضر عن موكلي السيد عز الدين الأحمدى، سيادة القاضي، حضرات السادة المستشارين، في البداية يا سيدي أحب أن أؤكد لعدالة المحكمة أن موكلي بريء من كل ما أسند إليه من ثهم، وسأفند فيما يلي ادعاءات زميلي محامي الخصم، أولاً، فيما يخص إقامة الدعوى بلا دليل مادي فالأمر يا سيادة القاضي...

- أنا معترف يا سيدي القاضي!

قالها عز الدين فجأة، مقاطعًا كلمات المحامي، وهو ينهض واقفًا، وسط ضجيج من الحاضرين، وآلاف الومضات من مصابيح كاميرات الصحافة، قبل أن يتابع قائلاً:

- لم يعد هناك أي مجال للإنكار، نعم، أنا سرقت كلمات السيد نائل سويدان ونسبتها إلى نفسي، ودار النشر لم تكن تعلم هذا، أنا من فعل

كل شيء، أنا مدعٍ كاذب.

ضجّت القاعة بالضجيج، قبل أن يكمل عز الدين حديثه، قائلاً:

- أنا فقط ألتمس من السيد نائل سويدان أن يغفر لي سرقة أفكاره،
وألتمس من السادة القراء أن يغفروا لي كذبي عليهم، وألتمس من
عدالة المحكمة، رجاءً يا سيدي، انطق بحكمك ولتقفل هذه القضية
الآن.

الجلسة الأخيرة

- لا يا سيدي القاضي، هذا غير صحيح.

قالتها منيرة.. التي دلفت لتوها من باب القاعة، يصاحبها مراد، والدكتور حاتم. ضجّت القاعة بصورة فجائية، في حين توجّهت كل عدسات الكاميرات نحوها، ومصابيح هواتف الصحفيين تسطع في كل مكان، كل الأنظار توجّهت نحوها، حين كانت نظرات عينها تتوجّه إلى عيني رجل واحد.. نائل.

نظرت إليه بعينين دامعتين، توجّهت نحوه، أمسكت بيده، انحنت لتقبّلها، حين رمقها بنظرة حزينة يملؤها الغضب، ظلت مُمسكة بيده وهي تتوجه للنظر نحو هيئة القضاة، حين كان القاضي يتوجّه إليها بالسؤال، قائلاً:

- من أنت؟

- أنا منيرة نائل سويدان يا سيدي، ابنة هذا الرجل العظيم.

- ولماذا تقولين إن اعتراف المتهم غير صحيح؟

نظرت منيرة إلى نائل، تخلّلت الدموع من خلف ابتسامتها إليه، وهي تعبت بحقيبة معلّقة على كتفها، تُخرج منها دفتر يوميات نائل، وهي تتابع الرد، قائلة:

- أنا يا سيدي من سلّم هذا الدفتر المكتوب بخط يد أبي إلى السيد عز الدين.

- إذا، هذا اعتراف ضمنى بأنك اشتركت معه في الجريمة، لكنه لا ينفيها عنه.

- لا يا سيدي، إن هذه الكلمات المكتوبة بالدفتر، هي في الواقع تدقيق لغوي متقن لرواية السيد عز الدين، وليس إبداعًا خالصًا، ولقد اختلط عليّ الأمر عندما سلّمتها للسيد عز الدين بوصفها تدقيقًا لغويًا لروايته، دون أن أبلغ أبي بأنني سأفعل ذلك، لقد ظننت أن أبي كان يُعد لي ولمن اخترته زوجًا لي هديةً بتدقيق روايته، في الواقع يا سيدي، يعمل أبي مدققًا لغويًا منذ سنوات طويلة، وكثيرًا ما دقق وأعاد صياغة كتب ورسالات وأبحاث علمية، وبعد أن تقاعد، كانت تلك هوايته، لقد فعل ذلك مع عديد من الروايات التي كنت أبتاعها لأقرأها، كانت وسيلته للتسلية، أن يُعيد كتابتها بصياغة مختلفة وتدقيق أكثر احترافية نظرًا لخبرته الكبيرة.

- هذا مُنافٍ لما أقام به السيد نائل دعواه، ومُنافٍ لما اعترف به المتهم منذ لحظات، فما دليلك على هذا الدفاع.

نظرت منيرة مجددًا إلى نائل، وهي تنطق بشفتيها كلمات بدت مسموعة، بين أنهار من الدموع اجتاحتها، حين قالت له:

- سامحني يا أبي، أنت من علّمتني الوقوف خلف الحق والعدل.

قالتها قبل أن تعبت بحقيبتها، وتُخرج منها بضعة أوراق وهي تجيب على القاضي، قائلة:

- هذا يا سيدي هو الدليل، تلك المسوّدة، هي أصل الرواية المكتوبة بخط يد عز الدين الأحمدى، قبل التدقيق اللغوي، إنها نسخة مطابقة

لدفتر يوميات أبي، قصة رجل يسافر عبر الأزمان، ليتدارك أخطاء الماضي.

- هلاً أوضحت الأمر تفصيلياً لهيئة المحكمة.

- بالطبع يا سيدي، لقد أعطاني عز الدين هذه المسودة لأقرأها وأخبره برأيي فيها، قبل أن يرسلها إلى دار النشر، لذلك كانت موجودة بالبيت، وقد وقعت في يد أبي بالصدفة، فقرأها، وتفاعل معها لا شعورياً، حتى إنه عاش أحداثها في خياله، وهو يُعيد كتابتها بصياغة محترفة ولغة بليغة، في صورة يوميات، وبصيغة الراوي المتكلم، كأنها أحداث حقيقية وقعت له، لقد تخيلت أنه يساعد عز الدين وينقح له عمله، ويضيف إليه الصوت السردى الذي كنت بالفعل قد اقترحت عليه.

- هذا تصريح خطير، لكنه لا يستند إلى أدلة، إنه بمنزلة تشكيك في قواه العقلية.

سحب نائل يده من يد منيرة بغتة، وهو ينظر إليها بغضب وحزن وحسرة، قبل أن يرفع يده للقاضي يطلب التحدث، أجابه بإشارة من يده، فنهض من مقعده، قائلاً:

- إن سمحت لي يا سيدي، هذه الفتاة تجحد أباهاً لأجل الرجل الذي تريد الزواج به، ليس ذلك صحيحاً بالطبع، بل إنها تُشكك في قواي العقلية من أجل أن تربح قضية أخرى، قضية جحر على ممتلكاتي، أقامت دعواها هي وأخوها ضدي منذ عدة أشهر، لقد كانت تضع لي عقاقير مهلوسة في شرابي، تُفقدني اتزانى، بعد أن سرقت مني دفتر

يومياتي، لقد رسما الخطة ببراعة حتى يوقعا بي.

اتسعت عينا منيرة، وعلت ملامح مراد الدهشة، الذي نهض من بين الجالسين، وخطا بضع خطوات حتى وقف هو الآخر أمام نائل، وهو يقول له:

- ماذا تقول يا أبي، أنا لم أفعل شيئاً من هذا القبيل بالطبع.

رمقه نائل بنظرة ضيق وحزن قبل أن يقطع حديثهما صوت منيرة، وهي تقول:

- من أين أتيت بهذا الكلام يا أبي، نحن لم نفعل هذا بالطبع.

استوقفهما القاضي، قائلاً:

- هل معك ما يثبت ذلك يا سيد نائل.

- نعم، سيدي القاضي، إعلان القضية هنا في جيبتي.

- هاته إن سمحت.

ناول نائل الإعلان إلى حاجب المحكمة الذي التقطه منه وسلّمه للقاضي، الذي فضّهُ وتفحّصه، قبل أن يعيد النظر إلى نائل، قائلاً:

- ما هذا يا سيد نائل، هذا الذي تخبرني أنه إعلان قضية من محكمة، هو ورقة مكتوبة بخط اليد، لا تحمل أي رقم لقضية أو أي أختام معتمدة، كما أن هذا الخط الجيد يماثل خطك في دفتر يومياتك، أو دفتر التدقيق اللغوي على رواية ابنتك.

نظر إليه نائل قاطباً حاجبيه، بدت آثار الدهشة على وجهه، وهو

يستطرد، قائلاً:

- ماذا يعني هذا يا سيدي...

قاطعته منيرة وهي تقول:

- عذراً سيدي القاضي، أود فقط أن تعرف ويعرف أبي، أن تلك العقاقير التي يتحدث عنها، والتي كنت أضعها له في الشراب، كانت في الحقيقة الأدوية التي كان ينبغي أن يتناولها، لكنه كان يداوم على عدم فعل ذلك، وهذا على الأغلب ما أوصلنا إلى كل ما نحن فيه الآن، أبي يا سيادة القاضي مريض، وإن سمحت لي، أطلب شهادة طبيبه المعالج، إنه موجود هنا بالقاعة الآن، الدكتور حاتم هارون.

قَطَّب القاضي حاجبيه، وأرخى ظهره إلى الوراء، وهو يقول:

- حسناً، أين هو.

- أنا هنا يا سيدي، إن سمحت لي.

قالها حاتم وهو يرفع يده، قبل أن يجيبه القاضي قائلاً:

- هاتِ ما عندك.

- أنا الدكتور حاتم هارون طبيب الأمراض النفسية والعصبية، والطبيب المعالج للسيد نائل سويدان منذ ثلاث سنوات وحتى الآن، في الواقع يا سيدي، عندما بدأت متابعة حالته كان يعاني من اكتئاب حاد، ورفض للواقع من حوله، مما أدى به إلى أن يعاني من الفصام، وأشهر أعراض مرض الفصام هو الهلوسة السمعية والبصرية، في الحقيقة يا سيدي إنه اعتاد أن يخلق شخصيات من خياله ويتعايش

مع وجودهم في حياته، وقد كنت أتابع تطوّر حالته مع السيدة منيرة، كانت حالته تتأخر جدًّا في الآونة الأخيرة، لأنه لم يكن متعاونًا قط في الانتظام في تلقي علاجه، لذلك نصحتها بأن تضعه له في الأكل أو الشراب، وبينما كان في أغلب الأوقات لا يتناول الإفطار الذي تُعده له، أخبرتني أنه عادة ما يبدأ يومه بشرب كوب من العصير، فأخبرتها أنها أفضل طريقة إذا لتأكد من تلقيه الدواء.

جلس نائل على مقعده بغتة، كأن جسده كان ينهار من وقع ثقل ما ألقي على كتفيه، قَطَب حاجبيه في غضب عارم، بدا الحزن على قسَمات وجهه كأنه ضربات أزميل نحات قوي، على حجر هَش، أدنى رأسه، صمت للحظات، قبل أن ينهض مجددًا يستند بيده إلى يد منيرة ومراد، ويواجه القاضي قائلاً:

- سيدي القاضي، أنا متعب جدًّا، لا أعرف ماذا يمكن أن أقول، هلا سمحت لي فقط أن أدع صديقيّ للتحدث عن كل ذلك، ربما كان الجميع على حق، لا أعلم، صدقًا لا أعلم.

- من هم صديقاك يا سيد نائل؟

- الأستاذ فكري مدرس التاريخ، والمستشار فاروق، قاض زميل لهيئتك الموقرة، إنهم يجلسون في نهاية القاعة يا سيدي.

قالها وهو ينظر نحوهم، فأشارا بيدهما إليه، عاد ينظر إلى القاضي وهو يتابع، قائلاً:

- ها هم يا سيدي.

نظر القاضي إلى القاعة، قبل أن يقول:

- أين هما تحديدًا؟ لا أراهما، على كل حال، فليتفضل السيد المستشار فاروق والسيد الأستاذ فكري للإدلاء بشهادتهما أمامنا.

ساد الصمت هنيهة في القاعة، والجميع يتلقّتون بحثًا عن الاثنين، قبل أن يقطع الصمت صوت منيرة وهي تقول بكلمات تتخلّلها الدموع.

- عذرًا سيدي القاضي، لن يجيبك أحد، في الواقع يا سيدي، إن الأستاذ فكري، والمستشار فاروق، ليسا شخصيات حقيقية.

- ماذا يعني هذا.

قالها القاضي في اندهاش، قبل أن تتابع منيرة قائلة:

- في الحقيقة يا سيدي، أن السيد فكري والمستشار فاروق هما مجرد أبطال رواية اسمها (أوراق الخريف)، كتبها السيد عز الدين الأحمدى، منذ سنوات، واقتنيتها أنا، وقرأها أبي، وتوحد معها، لأنها كانت تتحدث عن معاناة الأشخاص الذين تمت إحالتهم إلى التقاعد وإحساسهم بالغربة في زمانهم الذي لا ينتمون إليه، لذلك فإنها قد لامست معاناة أبي، وتشابهت معها، مما أدى به إلى أن يتوحد مع شخصياتها الرئيسية ويمنحها الحياة في خياله، لقد كنت أستمع منه لحكايات طويلة عن أحاديث دارت بينه وبين فكري وفاروق، كأنهم قد دبّت فيهم الحياة، وكأنهم بصورة ما يعيشان معنا بالبيت، لقد كان ذلك يا سيدي جزءًا من مرض أبي، الذي اعتدته في أثناء رعايتي له في خلال السنوات الأخيرة.

مطّ القاضي شفتيه، أسند ظهره إلى الخلف على مقعده، نظر إلى نائل مطوّلًا، بدت نظرة عطف في عينيه، قبل أن يردف، قائلاً:

- حسنًا يا سيد نائل، أعتقد أن الأمور اتضحت، هل ما زلت راغبًا في استكمال دعواك أم تريد أن تتنازل عنها، ينبغي أن أخبرك أن ذلك سيندرج تحت بند إزعاج هيئة المحكمة، ولا أعتقد أن وضعك يسمح بتوجيه تلك التهمة إليك.

كان نائل جالسًا، يدفن وجهه بين راحتيه، يطبق الصمت تمامًا، قبل أن ينتبه إلى كلمات القاضي، ويجيبه بصوت خافت يملؤه الحزن، قائلاً:

- لا أرغب في شيء سوى العودة إلى أحلام.

قَطَّب القاضي حاجبيه، بدت ملامح الدهشة عليه، قبل أن يقطع الصمت صوت منيرة، قائلة:

- حسنًا يا سيدي القاضي، هل يمكننا الانتهاء من هذا كله إن سمحت لي، كفانا كل ما حدث وكل ما بثته المواقع والقنوات والصحافة عن حياتنا الشخصية، كما ترى، أبي ليس على ما يرام، لقد كان وجودنا في هذا المكان خطأ من البداية.

- حسنًا، أود فقط قبل أن أصدر حكمي أن أستمع إلى الطبيب المعالج، ليشرح لي الحالة تفصيليًا حتى يتم تدوين هذا بمحضر الجلسة، ولا يتعرض أبوك لتهمة إزعاج المحكمة، فليتفضل الدكتور حاتم بإيضاح الأمر.

نهض حاتم مجددًا، سار بخطوات هادئة إلى صدر القاعة، ووقف مواجهًا القاضي، قبل أن يُلقي نظرة على نائل، وتتلاقى عيناه بعيني مراد ومنيرة، التي ترقرت الدموع من عيناها، وهي تشير إليه بوضع يدها على فمها، كأنها تطلب منه عدم البوح بأمر ما..

مطّ شفتيه، وهزّ كتفيه في استسلام قبل أن يواجه القاضي ويبدأ في الحديث.

- بدأ كل شيء يا سيدي في شهر مارس عام ٢٠٢٠، عندما أتى إليّ السيد مراد جازعًا يطلب مني زيارة منزلهما، لرؤية أبيهما الذي أصابته حالة صدمة نفسية شديدة وفقدان للنطق والتفاعل مع أي شيء من حوله.

- وممّ أصابته تلك الحالة؟

- كان السيد نائل قد أنهى عمله بالخارج منذ شهر تقريبًا، في خضم الإجراءات التي اتبعتها أغلب الشركات والمؤسسات ولا سيما الدول إثر جائحة كورونا، عاد بعد سنوات طويلة كان فيها بعيدًا عن بيته وزوجته وأولاده، كان مشتاقًا جدًّا على ما يبدو إلى لقاء زوجته التي جمعه بها قصة حب كبيرة، طوتها سنوات الغربة، كان يحلم بأن يبدأ حياته التي سُلبت منه، لكن ما حدث، كان كافيًا بأن يصيبه بتلك الحالة من رفض الحياة.

- ماذا حدث؟

- في آخر شهور خدمتها كطبيبة، وقبل إحالتها إلى التقاعد، أصيبت السيدة أحلام بالفيروس، الذي أدى بكل أسف إلى وفاتها.

نهض نائل صارخًا:

- لا.. لا أنت تكذب، أنتم جميعًا تكذبون.

وانهار في مقعده باكيًا، ارتمت منيرة ومراد في أحضانه، وهو لا ينفك يصرخ فيهم (كاذبون... كاذبون). نظر القاضي إلى حاتم، وتابع قائلاً:

- أكمل من فضلك.

- حسناً يا سيدي، هذا الفقد الكبير، أصابه بصدمة شديدة، كادت أن تذهب بعقله، بدأنا العلاج، بكل الطرق الممكنة، كان الأمر عسيرًا جدًا، لم يكن هناك أي تقدم ملحوظ لعام كامل، كان رافضًا للحياة دونها، عانى من حالة اكتئاب حاد، وحاول الانتحار أكثر من مرة، كان يشعر بأنه يعيش في زمان لا ينتمي إليه، وفي واقع لا يريده، كان يسعى إلى الموت بكل الطرق، لكن فجأة تغير كل شيء.

- كيف؟

- عقل الإنسان يا سيدي، يعمل بصورة لا إرادية للحفاظ على الحياة، حتى إن كان العقل الواعي يرفض ذلك، ويسعى إلى إنهاء تلك الحياة، كان ذلك يدفعه إلى فقدان الاتزان، وربما نحو خلل ذهاني، أو جنون، فما كان من عقله سوى أن يجد السبيل للنجاة في الفصام، هذا الاضطراب النفسي الشديد، الذي يؤثر في الشخص، ويدفعه إلى خلق واقع موازٍ لواقعه، واقع يفتقده، ويتمنى أن يعيشه، يتميز مرض الفصام يا سيدي بالأوهام الراسخة، بمعنى تكوّن قناعات

راسخة لدى المريض على الرغم من كل ما يُثبت عكسها في الواقع، كما يصاحب المرض حالات من الهلوسة المستمرة، وسماع مؤثرات سمعية أو رؤية مؤثرات بصرية أو حتى شم روائح غير موجودة، أو خلق شخصيات كاملة والتفاعل معهم، وتكوين ذكريات ومشاعر وأحاسيس زائفة، مثل اختلاق شخصيات من العدم أو من الذاكرة، كإعادة السيدة أحلام إلى الحياة، أو التوحد مع شخصيات أبطال رواية مثل الأستاذ فكري، أو المستشار فاروق.

- إذا فمن شهادتك تلك يا دكتور، نخلص لأنك ترى أن السيد نائل سويدان لم يكن في حالة من الأهلية وهو يرفع دعواه.

- بالتأكيد يا سيدي.

- حسناً يا دكتور حاتم، شكراً لتوضيح الأمر لهيئة المحكمة، الحكم بعد المداولة، رُفعت الجلسة.

نهض جميع الحاضرين، إثر وقوف هيئة المحكمة ومغادرتها للقاعة التي ضجت بأصوات الصحفيين في تسابقهم نحو نيل سبق صحفي وإجراء حوار مع عز الدين، أو مع نائل.. في حين كان يقف في ركن بعيد، صحفي هادئ...

يُدني قبعة على عينيه فوق نظارة شمسية سوداء العدسات، تخفي ملامح وجهه. لا يعبأ بكل ما يحدث، يلتقط صورة لمشهد القاعة بأكملها، قبل أن يضع الكاميرا في جراب معلق على كتفه، ويغادر القاعة صامتاً في هدوء.

قبل أن يخرج من الباب الكبير، نظر خلفه، رفع بيده قبعته قليلاً، وأنزل نظارته الشمسية عن عينيه، بدا وجهه مألوفاً.. أعاد وضع نظارته وهو يغادر لولا أن استوقفه صحفي شاب، قائلاً:

- مساء الخير، هل أعرفك؟

- لا أعتقد يا صديقي.

- حسناً، أنا عمر، صحفي من جريدة النبا العاجل.

اتسعت ابتسامته وهو يمد إليه يده يصافحه، قائلاً:

- أهلاً عمر، أنا... شريف، من جريدة المستقبل.

نهاية الجزء الأول!

- هل حقًا كنت ستضحّي بكل شيء من أجلي؟

- وهل تشكين في ذلك.

- لم يكن هذا تصرفًا صحيحًا قط، كيف تتنازل بكل بساطة عن مجهودك وفكرك وإبداعك وترتضي أن توصم بالمدعي الكاذب طوال عمرك.

- الناس ينسون سريعًا يا منيرة.

- والحبس.

- لم أكن أعتقد أنه سيوافق على حبسي، كنت أراهن على ذلك.

- ولكنك كنت تكتب شهادة إعدام لكاتب رائع.

- كان المهم عندي أن يبقى المحب العاشق.

- الاثنان شخص واحد يا عز، لا يمكن فصلهما عن بعضهما، ثم كيف كنت تظن أنني سأسامح نفسي يومًا ما إذا تسببت لك في كل هذه المعاناة، كيف كنت ستضع على كاهلي هذا الذنب الذي لا يُغتفر تجاهك.

- لم يكن الأمر يخصك يا منيرة، لم يكن هناك ذنب على الإطلاق، الحقيقة أنه في خلال فترة مرضك، توطدت علاقتي بمراد، وحكى لي كل شيء، وأطلعني على حالة أبيك التي كنت تخفيها عليّ، ولم أكن سأسمح لنفسي قط أن أجعل كل ذلك مادة للنشر على المواقع

والصحف، لم أكن لأفصح أسرار الرجل الذي سيصبح أبًا لزوجتي
وفي مقام أبي، لولا أن فعلت أنتِ هذا.

- الحق أحق أن يتَّبَعَ يا عز، لا يتعلق الأمر بمستقبلك المهني أو
الأدبي وحده، ولا مستقبل علاقتنا، بل برد الحق لأصحابه، لم يكن
باستطاعتي الصمت قط، حتى لو كان ذلك على حساب أسرار حياتي
الشخصية أو حياة أبي، في حين لم يكن لك أي ذنب في كل هذا،
لم يكن من الصحيح أن تدفع أنتِ ثمن هذا الخطأ، ولولا أنني تعلمت
هذا من الأستاذ نائل سويدان نفسه ما كنت فعلته، لم يكن هو نفسه
ليغفر لي إن لم أفعل.

- الأستاذ نائل سويدان، مسكين جدًّا أبوكِ يا منيرة، في الحقيقة أن
قصته لم تكن سعيدة قط، الفقد أمر مؤلم جدًّا، فما بالك بالفقد فور
اللقاء.

نظرت إليه مطوًّا، قبل أن تنساب دمعة صامتة من عيناها، وهي
تتابع قائلة:

- وما بالك أنت بالفقد طوال العمر، واللقاء بعد الموت.
- آسف جدًّا، لم أقصد أن أذكرك بما يؤلمك، أنت تقصدين والدتك
أليس كذلك.

- نعم يا عز، هل تتخيل أنني عشت عمري كله أتعمد إيذاءها، ولم
أعرف الحقيقة إلا بعد موتها بسنوات، لن أسامح نفسي أبدًا.

- هوني عليك يا منيرة، لا بد أن روحها ستدرك أنك فهمتِ كل

شيء، وبالتأكيد ستنسى أي إساءة تعرّضت لها من فتاة صغيرة لا تدرك طبيعة الأمور، أنا متأكد أنها -رحمها الله- ماتت راضية عنك على رغم كل شيء، هي بالتأكيد كانت متفهمة.

نظرت إليه مطوّلاً، أفلتت دمعة من عينها قبل أن تحاول التماسك،
قائلة:

- هل تعلم يا عز، في عمري هذا، وبعد أن نضج تفكيري، ولأنني امرأة مثلها، أدرك الآن جيداً ما كانت تشعر به تجاه الحاج مراد، هي بالفعل كانت تحبه، ولكنه حب أكبر مما كنت أتهمها أنا به، لقد كانت تحبه حب الفتاة المراهقة، وحتى بعد أن نضجت وأحبت أن تستعيد ذلك الحب، المغلف بالأمان والعطف، لقد كان هذا الرجل من منحها الحياة عندما أرادت التخلص منها، ومنحها الأمان، لقد كان ذلك الحب أكبر من قدرتها على منعه في قلبها، في حين لم يكن حباً بالمعنى الذي نعرفه، ليس ذلك الحب الرومانسي أبداً، بل هو أعظم وأرقى من ذلك، وهذا على الأغلب ما كان يؤلمها في كلماتي وظني بها، كان الأمر أكبر كثيراً من إمكان فهمي له، ناهيك عن عدم معرفتي بكل ذلك الماضي من حياتها من الأساس، لذلك آثرت هي الصمت، لم يكن هناك ما يمكن أن تقوله لتبرئ نفسها، هل تعلم، حتى من كلمات أبي، كان واضحاً جداً ما كانت تشعر به تجاهه، كان بمنزلة رمز في حياتها، لم يكن هذا حباً بين فتاة مراهقة ورجل عجوز قط، لقد كان الأمان بالنسبة إليها والامتنان والرحمة ومشاعر كثيرة متضاربة، لقد كان السبب الذي جعلها تحب نفسها وتحب الحياة.

- أتفهم ما ترغبين بقوله يا منيرة، والحقيقة أنه كان رجلاً عظيمًا،

حتى في تخليه عنها، كما نطن، لا أعتقد أنه لم يكن يشعر بمشاعر فتاة صغيرة متخبطة، بل إن من كلمات أبيق أيضًا أعتقد أن هناك لغزًا ما، لقد كان هناك ترتيب ما للأحداث بين اختفائه وظهور أبيق في نفس اليوم، وبين رسالته الأخيرة، أكاد أجزم أنهما كانا على اتفاق أو معرفة، هناك لغز ما في صلتهم تلك، وأعتقد أن هذا اللغز قد يصلح كفكرة لرواية جديدة...

قاطعهما صوت مراد، الذي كان يجلس في المقعد الخلفي للسيارة، قائلاً:

- طبعًا يا سيدي، رواية جديدة بعد كل هذه الدعاية المجانية التي جعلتك تعتلي كل (تريندات) الوطن العربي.

ضحك عز الدين وهو يجيبه، قائلاً:

- يا لها من دعاية، لا تذكرني، لقد كنت أتحف في الطرقات كأني مجرم هارب، وعلى كل حال بعض التريندات الإيجابية لا يضر يا أستاذ مراد، بعد كل تريندات الفضائح عن الكاتب المزيّف اللص.

ابتسم مراد وهو يتابع مازحًا:

- في الحقيقة لقد كنت على وشك التصديق من كثرتها.

ضحك عز الدين وهو يُدير عجلة المقود ليصف السيارة بجوار الرصيف، وهو يتابع قائلاً:

- حسنًا، لقد وصلنا.

ترجل ثلاثتهم من السيارة، وقفت منيرة تنظر إلى لافتة كبيرة

مدون عليها (مصححة الدكتور حاتم مهران للصحة النفسية)، قبل أن تمر من البوابة مع مراد وعز. جلسا في غرفة الاستقبال، بعد عدة دقائق كان يدخل عليهما الدكتور حاتم مرحبًا بهما، بادرته منيرة على الفور بالسؤال:

- أخبرني يا دكتور كيف حاله الآن؟

- بخير يا منيرة، إنه يتمثل للشفاء، كانت الأيام الأولى هي الأصعب، لكن مع العلاج الدوائي والجلسات العلاجية، فقد تحسّن الوضع كثيرًا، وبدأ في تفهّم الأمر، هو فقط يعاني من ألم الفراق عن والدتك التي كانت تعيش بخياله، فبعد تلقيه العلاج، بالتأكيد توقفت الهلوسة ومعها توقفت قدرته على تجسيدها في خياله، لذلك فسيعاني قليلًا من الوحدة، لكن لا تقلقي، ستمر هذه الأزمة، كان يحتاج بالفعل إلى المكوث في المصححة لبعض الوقت، لقد كان قرار القاضي صائبًا بهذا الشأن، وفي صالحه.

- يا إلهي، أعتقد أن هذا سيجعله حزينًا جدًّا، لقد كانت بصورة ما تملأ عليه حياته، كان يعيش معها في كل الأوقات، ليلاً ونهارًا، حتى كدت أعتقد أن روحها ما زالت تعيش معنا بالبيت، وحتى أصدقاءه الخياليون، كنت أجلس معه أستمع إلى رواياته عن أحاديثهم، كنت أعود لأجده في بعض الأحيان قد طلب أصنافًا من الطعام من مطعم مجاور تكفي لثلاثة أو لأربعة أشخاص، ثم ألقاهم في صندوق القمامة كأنهم ما تبقى بعد أكلهم، في حين كان يروي لي كيف جلس هو وأصدقاءه يتسامرون ويأكلون، بل كان يتناقش معي أحيانًا في وجهة نظر أحدهم عن بعض الأمور، ويروي لي كيف تلقى اتصالًا من

أحدهم ودار بينهما حديث طويل، في حين كنت قد جردت هاتفه من شريحة الاتصال منذ سنوات، في الواقع يا دكتور، كان يصنع لنفسه عالمًا حقيقيًا كاملاً من الخيال.

- هذا هو الفصام بحذافيره يا منيرة، انفصال عن الواقع تمامًا وخلق واقع موازٍ من الخيال، والتوحد بداخله، على رغم كل ما يمكنه أن يُثبت عكس ذلك من حقائق، المريض يصنع عالمه الخاص الذي يحبه، ويعيش بداخله تمامًا، كأنه يحتمي به من واقعه الذي يرفض تصديق كونه حقيقيًا، في الفصام يا منيرة، الحقيقة هي الخيال، والخيال هو الحقيقة.

- مسكين أبي، لا أعلم كيف سيتمكن من تجاوز كل هذه الجراح.

- بالحزن تلتئم الجراح الفائرة يا منيرة، العلاج دائمًا مُر الطعم، لكنه شافٍ.

- ندعو الله أن يهون عليه ما يعانيه يا دكتور، هل يمكننا أن نراه.

- بالطبع، سأجعلهم يصحبونكم إلى غرفته، لكن رجاءً لا داعي لأي انفعال، لا داعي لأي حديث عن الماضي أو عن الأشخاص الذين رحلوا عن عالمه، ولا إبداء الحزن، ينبغي أن تدعموه فقط ليشقى سريعًا، اتفقنا.

- اتفقنا.

- حسنًا، سعدت برؤيتكم، سأذهب لأتابع عملي، وسأرسل إليكم من يصحبكم لغرفة الأستاذ نائل.

لم تكد تمر دقيقة حتى كانت تدخل عليهم إحدى الممرضات،
تصحبهم في طرقات المصححة حتى غرفة نائل. كان جالسًا على
مقعد مواجه للنافذة الزجاجية التي تطل على حديقة غنية بالورود
والأزهار، لم يلتفت إلى صوت دخول أحد، هرولت إليه منيرة مرتمية
في حضنه، ربّت على رأسها، ونظر إلى مراد وعز بابتسامة هادئة،
قبل أن يوجّه كلماته إلى عز، قائلاً:

- أنا مدين إليك باعتذار يا بني.

- لا عليك يا عمي، أنا سعيد جدًا بمقابلتك اليوم.

- لا يا بني، أعلم أنني وضعتك في حرج كبير بهذا التصرف.

- لا تقل هذا يا عمي، أنا فقط كنت أود أن أخبرك بأن ما أحزنني
كان شيئًا واحدًا فقط.

- ما هو؟

- أنك لم تلاحظ ما كُتب في الصفحة الأولى من الرواية المطبوعة.

- ماذا كُتب؟

- كُتب تأليف/عز الدين الأحمدى، تدقيق لغوي/الأستاذ نائل
سويدان.

- حقًا؟ لم أر هذا من قبل.

- تخيّل ذلك، لكنني بالطبع أصررت على كتابة هذا، كان شرفًا
عظيمًا لي أن تكون روايتي من تدقيق الأستاذ نائل سويدان أستاذ

اللغة العربية، و... حمايا!

- شكرًا لك يا ولدي...

قاطعتهما منيرة، قائلة:

- (إيه يا سي بابا... هو عز حياكل مني الجو والا إيه... إنت بتاعي أنا).

ابتسم نائل، وهو يحتضنها، وينظر نحو مراد، قائلاً:

- (وانت يا سي مراد... جاي لوحدك... فين كريم ابنك يا واد إنت)؟

- موجود طبعًا يا جدو، لم أرغب فقط أن أحضره هنا، لكنه ينتظرك بالطبع.

- وكيف حال زوجتك؟

- بخير يا أبي، كلنا في انتظارك.

- اسمع يا مراد، إياك أن تبتعد عن زوجتك وابنك ثانية، هل تسمعني، أنه عملك في الخليج وغد إليهم، فلتعمل هنا أي شيء وبأي ثمن، صدّقني يا بني، الثمن الذي تدفعه من عمرك الذي يمر بعيدًا عنهم لا تعوّضه أي مكاسب مادية على وجه الأرض، هل تفهمني، ثروتك الحقيقية هي سنوات عمرك، السنوات التي تذهب لا تعود أبدًا يا مراد، ربما يمكن كسب المال إذا خسرت، لكنك لا تستطيع إعادة ثانية واحدة من عمرك عندما تنتهي، هل فهمتني، لا تدع الحياة تسرق سنوات عمرك، أو تسرق من تحبهم منك، لا ترتكب الخطأ الذي ارتكبته أنا طوال عمري.

- حسنًا يا أبي، أعدك بذلك، لقد تعلمت الدرس دون أن تشرحه لي، وقررت هذا قبل حتى أن تخبرني به الآن.

- فليهبك الله السعادة يا ولدي.

نظرت إليه منيرة، أمسكت بيده، قبّلتها، قبل أن تردف إليه قائلة:

- ليهبك الله طول العمر يا أبي، نحن نحيا في الحياة بوجودك في وسطنا، هيا لقد افتقدتك كثيرًا، لا أجد من أحضر له الإفطار كل يوم حتى يتركه، ويغيظني.

ابتسم نائل، وهو ينقل نظرات عينيه بينها وبين عز الدين، قائلاً:

- أحقًا لا تجدين أحدًا؟

بدت على وجهها حمرة الخجل وهي تتابع متلعثمة:

- ما هذا؟ لا تُخجلني يا أبي، ثم إنه لم يطلب يدي منك بعد، ينبغي أن يطلب يدي وتجلس أنت لتشترط عليه المهر والشبكة وخلافه، وترفض طلبه، ثم تناديني فآتي إليك صامتة قبل أن تجيبه، قائلاً (السكوت علامة الرضا).

ابتسم نائل، قائلاً:

- ليهبك الله السعادة يا ابنتي.

قاطعهما صوت طرقات على الباب، قبل أن يدخل عليهما الدكتور حاتم.

جلس إلى مقعد مواجه لنائل، قائلاً:

- أراك اليوم أفضل كثيرًا يا أستاذ نائل.

- الحمد لله، شكرًا لك يا دكتور.

- لا شكر على واجب، الحقيقة أنه بعد هذا اللقاء، يمكنني أن أخبركم أن حالتك قد أصبحت تسمح بالخروج، يتبقى فقط آخر جلسة علاجية اليوم في المساء، ثم يمكنك من بعدها أن تعود إلى البيت في صباح باكر.

قفزت منيرة من مكانها كالطفلة هاتفة:

- هذا أسعد خبر سمعته.

تابع الدكتور حاتم كلماته:

- حسنًا، عظيم جدًّا، إذًا ينبغي أن نكتفي بهذه الجلسة القصيرة اليوم، فبعد ساعتين سيحين موعد جلسة الأستاذ نائل مع المجموعة، وينبغي له أن ينال قسطًا من الراحة بعد نزوله في مغطس المياه الدافئة بعد عشر دقائق من الآن، قبل حضور الجلسة.

ضغط عز الدين على زر فتح قفل السيارة اللا سلكي، قبل أن يدلف إليها وبجواره منيرة وخلفهما مراد، ويدير محركها، ويتوقف هنيهة، يتطلع من زجاج السيارة إلى نافذة غرفة نائل، قبل أن يبادرهما قائلاً:

- عذرًا، هل تسمحان لي بلقاء صغير آخر مع أبيكما قبل أن نذهب.

- ماذا هناك يا عز، لماذا تريد أن نصعد إليه ثانية؟

- لم أقل نصعد يا عزيزتي، بل أصعد إليه.

- وحدك، لماذا؟

- أممم... ربما لأطلب يدك منه.

قالها وفتح باب السيارة بغتة قبل أن يتلقّى جوابًا منها، سار حتى وقف خلف السيارة، فتح حقيبتها، أخرج منها حقيبة جلدية، بدت ثقيلة، وضعها على كتفه، وهو يدلف مجددًا من باب المصحة.

الجزء الثاني، والثالث!

وقف نائل في دورة مياه غرفته، يبدّل ثيابه، حتى يستعد لجلسة مغطس المياه الدافئة، تحسّس موضع الندبة على خصره، ابتسم بهدوء عندما لم يجد لها أثرًا، بدّل ملابسه وخرج من دورة المياه، إلى غرفته عندما سمع طرقات على بابها قبل أن يدلف إليه عز الدين داخلاً.

نظر إليه نائل قاطبًا حاجبيه مستفهمًا عن سبب عودته، قبل أن يبادره عز الدين بالكلام، قائلاً:

- ربما لا يكون الوقت مناسبًا، لكنني أود أن أتناقش معك في عجالة في أمر ما يهمني جدًّا.

- تفضل.

- حسنًا يا عمي، إذا كنت بطريقة ما قد عشت أحداث روايتي، كأنها حقيقة، هل يمكنك أن تصف لي شعورك وأنت تتدارك أحداث الزمان.

- في البداية كنت مقتنعًا فعلاً بإمكان حدوث ذلك، بل عملت على نجاحه في كل مرة، معرّضًا حياتي للخطر مرات عديدة، كانت كأنها مهام انتحارية، لا أعلم إن كنت سأعود منها أم لا، ولم أكن أخشى ذلك في سبيل الوطن وعائلتي، كنت أتحلّى بشجاعة كبيرة، وتهوّر إلى حد ما، عندما يؤمن المرء بشيء بقوة، لا يحسب عواقبه أبدًا، وكنت مؤمنًا أنني بذلك أزود عن مستقبل عائلتي، ووطني.

- ثمّ؟

- ثم عندما عدت في المرة الأخيرة، وعشت كل كلماتك، عشت كل وصف وصفته للقاهرة وهي خربة، خاوية على عروشها، تعج بالمشردين والمجرمين، ووجدت بلدي قد قُسمت إلى دويلات، ووجدت محتلاً ينهب خيراتها، ووجدت أهلها يعملون بالسخرة كالعبيد، هالني الأمر، جعلني ذلك أعيد حسابات كثيرة، ليتك ما أحسنت الوصف لهذه الدرجة! لقد كان ذلك أمراً مؤلماً جداً، حينها صحت من غفلتي على هول ما فعلت، وجدت أن تصويب خطأ واحد معروف، قد يدفع بحدوث آلاف الأخطاء المستترة للحدوث، ويجعل من المستقبل الذي لا نرضى عنه اليوم، جحيماً وكارثة لا يمكننا تخيلها.

- أنت إذا اقتنعت بوجهة نظري، أقصد وجهة نظر بطل الرواية، الذي جسدت شخصيته في خيالك.

- بالطبع، أهنئك، أنت ماهر بالفعل في اختلاق الأحداث.

- إذا وإن كان الأمر كذلك، هل لي بأخذ رأيك في نهاية أخرى للأحداث.

- نهاية أخرى؟ غير ما آلت إليه الأمور.

- بالطبع، فلنعتبر ذلك كأنه بمنزلة جزء ثانٍ للرواية، أعتزم كتابته ويهمني رأيك فيه.

- حسناً، تفضل، اروه لي.

- ما رأيك لو كان ما آلت إليه الأحداث بدمار الحاضر والمستقبل،

كان مجرد تلاعب آخر لم يتم تداركه في وقت عودتك، في حين حدث ذلك في الوقت الذي خلدت فيه إلى النوم، فصحوت لتجد الأمور عادت لسابق عهدها، أو أنه كان تلاعبًا جديدًا بدّل مجرى الأحداث التي صنعتها أنت، لا تنس أن كل تغيير في زمن سابق ينتج عنه آلاف التغييرات في زماننا الحاضر، وكما علمت من شريف، الشخصية التي أتت إليك من المستقبل، إن الأمر بمنزلة حرب، سباق يربحه من يستطيع العبث في الزمان قبل الآخر، ماذا لو كان ما رأيته من واقع القاهرة المؤلم، كان مجرد معركة خاسرة، تداركنا أثرها في صباح اليوم التالي، اليوم الذي عدت فيه لتجد القاهرة كما كانت.

- هل تقصد؟

- نعم، ماذا لو كان ما عشته يا سيدي، كان مجرد معركة واحدة، وليس نهاية الحرب، ألم يخبرك شريف في سياق الحوار أن الحرب دائرة بينهم وبين العالم السفلي، وأن عديدًا من التلاعبات تحدث في كل زمان لأحداث أصلية، وأحداث أخرى مترتبة عليها، ماذا لو كانت مجرد سقطة صغيرة، موقف طارئ من مواقف إدارة الحرب، وكّرّها وفرّها.

- هل تعني بذلك الطرح أن الأحداث كلها في تغير مستمر، ولا تثبت على حال واحد، نعيش اليوم في رخاء، وباكراً في ضنك، ثم نعود لنصبح دولة عظمى، وكل ذلك يتوقف على الرابح في معركة تبديل مجرى الأحداث.

- بالطبع، في هذه اللحظة التي نتحدث فيها، لا بد أن تبديلاً ما

يحدث في زمان ما، لا نعلم عدد مرات حدوثه، ربما كانت المرة السابعة، لننام ونصحو ذات يوم فنجد حالنا قد تبدّل، أو يحدث العكس، طبقًا لرابح المعركة، في كل الحالات لن نلحظ الفارق، لأننا سنكون قد عشناه طوال حياتنا، وأصبح واقعًا من قبل أن نولد!

- هذا جنون، ولكنه مدخل جيد بالفعل، للجزء الثاني من الرواية.
- عظيم جدًّا، فما رأيك، إن كان يمكنني أن أعد للجزء الثالث أيضًا؟
- الثالث، كيف؟

- بتغيير قواعد اللعبة كلها دفعة واحدة، أليس هذا ما جرت العادة على فعله في الأجزاء اللاحقة من أي عمل درامي.

- وكيف تغيّر قواعد اللعبة؟

- بأن أهاجم الخصم قبل أن يهاجمني، بأن أتبع أحد قوانين الحرب التي وضعها سون تزو قبل ثلاثة آلاف عام، الهجوم خير وسيلة للدفاع!

- وكيف يمكن فعل ذلك برأيك؟

- ما رأيك يا سيدي، إن سبقنا عدونا بخطوة، وحاربناه بسلاحه، وعلى طريقته، ماذا إن أصبح شغلنا الشاغل هو معرفة خرائط الذهب، واستخراج كل هذا الذهب المدفون في الماضي، قبل أن يصل إلى أيديهم، ونقله إلى مخازن مؤمنة لا يعلم عنها العالم السفلي شيئًا، حتى نستخرجها نحن بدلًا منه، ماذا إن سلبناهم ثرواتهم الطائلة في المستقبل بسرقتها منهم في الماضي، ستكون هذه أكبر

سرقة في التاريخ، وعلى مر الزمان!

- هذا تفكير... خارج الصندوق.

- بالطبع، بل إننا عندما نسلبهم سبب قوتهم والمزية التي يتفوقون بها علينا، سيتبدل مستقبلهم، لن يجدوا به أي ذهب، ولا أي أموال يمكنهم بها استعباد البشر، بل سيصبحون هم العبيد، أو نزلاء في السجون، هل تعلم، ربما يتبدل المستقبل لئلا نعرف شيئًا اسمه عالم سفلي من الأساس.

- لطيف جدًا، أنت كاتب موهوب بالفعل يا عز الدين، أنت تبهرني في الواقع بمهارتك في التأليف، وخيالك الخصب.

- حسنًا يا عمي، أشكرك، ولكن يتبقى لي أمر واحد ينبغي أن أخبرك به قبل أن أذهب.

- ما هو؟

- جرت العادة على أن يكون بين الرجل وزوج ابنته سر مشترك، أو ربما يبوح كل منهما بسر دفين للآخر، ولا يعرفه أحد غيرهما.

- ماذا تقصد، ثم ماذا تريد أن تخبرني؟

- حسنًا، سأبدأ أنا بسري الصغير، أردت فقط أن أخبرك بأنه ربما كان الجميع على حق، بصورة ما، هل تعلم يا سيدي، ربما لم أكن أكذب حينما اعترفت في المحكمة بأنني لست كاتب الرواية، بل ربما كنت كاذبًا فعليًا بادعاء أنني مؤلف تلك الرواية أمام الجميع!

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- أقول لك يا عمي، في الواقع أنا لست المؤلف!

- كيف تقول ذلك، فمن هو مؤلفها إذا؟

- بعض الروايات تعتمد على أحداث حقيقية يا سيدي، لا مؤلف لها.

سادت لحظة من الصمت، قَطَّب نائل حاجبيه وهو ينظر مليًا في عيني عز، قبل أن يتابع حديثه، بنبرة هادئة، بدت كأن يشوبها لكنة ساخرة، قائلاً:

- أي رواية تلك التي تعتمد على أحداث حقيقية، أنت بالطبع لا تقصد ما فهمته.

- لن يصنع الفهم الصحيح فارقًا على كل حال، في الأسرار.

بدت الابتسامة الساخرة تزداد وضوحًا على شفطي نائل وهو يتابع، قائلاً:

- حسناً يا زوج ابنتي، شرك في بئر سحيق إذا، هات ما عندك.

- فلنكتفِ بأن أخبرك أن بعض الروايات يُكتب في بدايتها عبارة شهيرة، إن تشابه الأحداث والأماكن غير مقصود وإن أي تشابه بينها وبين الواقع هو محض خيال، حسناً، أعتقد أيضاً أنك تعلم جيداً لم تُكتب هذه العبارة الكاذبة، لكننا هنا لا نتحدث عن رقابة، أو عن وقوعنا تحت طائلة أي قانون، بل يكفي أن أخبرك أن مثل هذه الروايات لا يكون لها مؤلف بالمعنى المعروف، بل هو شخص يُحسن الكتابة، وسرد الأحداث في قالب درامي، وصياغة الكلمات فقط.

- ألا نكتفي من المقدمات.

- لا مقدمات يا عمي، ولا حقائق أيضًا، فقط خيال، حرّر عقلك، وامزج الخيال بالحقيقة تحصل على رواية بديعة، كما قلت لك، لن يصنع ذلك فارقًا، الجيد في الأمر، هو أنك -سامحني على وقاحتي- آخر من يمكن تصديقه في حديث عن السفر عبر الزمن، إن أفشى... ما يظنه سرًا!

تحوّلت ابتسامة نائل إلى الضحك وهو يردف، قائلاً:

- وبناءً عليه...

ابتسم عز الدين بدوره، قبل أن يتابع حديثه، قائلاً:

- عمي العزيز، سري الصغير الذي أودّ مشاركته معك، هو في الحقيقة هديتي إليك، أنا أحب ابنتك بشدة، ولا أطيق البعد عنها، وأعرف جيدًا ما يشعر به من يحب تجاه حبيبته، وأتخيل جيدًا ألم الفقد، وحلاوة اللقاء.

- ماذا تقصد؟

- أقصد السر الذي أنا على وشك البوح به إليك، أو بالأحرى، السر الذي سنصنعه سوياً الآن!

- لا زلت لا أفهم شيئاً.

- ربما يا عمي، بعض الألغاز في قصص الحياة تحتاج إلى كاتب أو شخص له دراية بفض أحجيات الدراما حتى يعيد صياغتها بنفس

الأحداث من جديد، والحقيقة أن هذه الأحجية تحديدًا ظلت تطارد عقلي حتى وجدت لها الحل الدرامي الأمثل، مثلما قلت تمامًا، كان لابد أن أخرج بعقلي خارج الصندوق حتى أرى الحقيقة الغائبة عن مخيلتنا جميعًا.

- لا أرى حديثك هذا سوى لغز آخر!

- دعنا إذن نجد الحل سويًا، قلت لك يا عمي، حرّر عقلك، حينما تحاول إيجاد حل لأحجية زمنية، أو لحلم.. من أحلام الأستاذ نائل سويدان!

- ها أنا ذا أحرر عقلي، لكنني لا زلت لا أفهم شيئًا.

- حسنًا، دعني أخبرك أن مفتاح حل الأحجية، هو الدائرة!

- أي دائرة؟!

- كل شيء في الحياة يا سيدي هو دائرة، الأرض التي نعيش عليها، والفضاء الذي تسبح فيه، الكون بأكمله، بكل مداراته وأبعاده اللا متناهية، هو دائرة، أولها آخرها، بدايتها نهايتها، تدور وتدور في تتابع لا يتوقف، ما تلبث أن تنتهي دورتها حتى تبدأ من جديد لتعيد كل شيء من بدايته، المهم هو نقطة الولوج لداخل دائرة التكرار، توقيت الدخول يا سيدي.

- هل تظنني بهذا الشرح الغامض قد فهمت ما تصبو إليه؟!

- لا أظن، ولكن تذكر فقط، في لعبة الزمن، حيث مستقبلنا هو ماضينا، ربما كانت بعض الذكريات القابعة في عقولنا، تنتظر أن

نصنعها ونعيشها ونجعل منها ماضٍ سعيد يصبح بدوره ذكرى حالمة!
ابتسم عز الدين وهو يتطلع إلى علامات الدهشة التي كادت
تعصف بنائل، التقط حقيبتة الجلدية من على كتفه، فتحها، عبث
بمحتوياتها، أخرج منها حُلة رمادية، ذات نسيج ميكروني مضاد
للجاذبية الزمنية، وأعطاهَا لنائل، قائلاً:

- أظنك تعرّفت إليها من الوصف في الرواية، وهي تعمل بنفس
الطريقة التي كتبتها، ويتم ضبط التاريخ بنفس الأسلوب، أظنك
تعرف كيف تفعل ذلك جيداً.

نظر إليه نائل بدهشة، لم تخف الابتسامة من على شفثيه، فتح فمه
ليتكلم، استوقفه عز بإشارة من يديه، حين كان يُخرج من حقيبتة
عدة سبائك ذهبية، ويضعهم على الطاولة أمامه، بدا كأنه يغمز إليه
بطرف عينه، قائلاً له:

- أظنك تتذكر أحداث الجزء الثالث من الرواية، التي لم أكتبها بعد.
- ما هذا؟

- هذا يا عمي، كفيل بجعلك رجلاً ثرياً.. يملك قصرًا وخدمًا، في
أي زمان ومكان.

نظر إليه نائل نظرة ذات مغزى، ابتسم عز الدين قبل أن يتابع،
قائلاً:

- ربما كانت بعض الأحلام... قابلة للتحقيق بطريقة أو بأخرى.
- الأحلام! أنت على حق، ما أجمل تحقيق الأحلام، ولا سيما...

أحلام نائل سويدان.

- ولكن تذكر، ينبغي ألا تفوّت موعد مغطس المياه الساخنة، أظنه سيحين بعد خمس دقائق، ولا أظن أن رحلتك الطويلة، حتى إن استغرقت أكثر من عشر سنوات، ستزيد عن الدقيقة الواحدة في هذا الزمان، كما أنني سأنتظرك مع منيرة في الصباح لأطلب يدها منك يا حمايا العزيز، إلى اللقاء، رحلة سعيدة.

قالها وهو يُدير ظهره ويخرج من الغرفة، تعلو وجهه الابتسامة، متحسّساً بيده من فوق ملابسه أثر ندبة عرضية تحيط بأسفل خصره، قبل أن يهز كتفيه في لا مبالة وتتسع ابتسامته. نظر نائل إلى الحُلة، وسبائك الذهب، وبدوره، اتسعت ابتسامته..

النهاية

على جانب الطريق، توقفت سيارة سوداء فارهة، ذات شبكة أمامية عريضة لامعة، عليها نقش بكلمات (أستون مارتن) قبل أن ينزل منها السائق مهرولاً، يفتح بابها الخلفي للراكب الأنيق، ذي الشعر الأبيض المصقّف بعناية، والنظارة الطبية ذات العدسات السمكية. قبل أن يقودها ليصفّها بجوار الرصيف منتظرًا راكبه حتى يعود.

بخطوات هادئة، سار الرجل الأنيق متكئًا على عصا خشبية فاخرة من الأبنوس ذات مقبض مُطعم بالفضة، يرتدي حلة سوداء مزينة بحروف مطرزة صغيرة تحمل ماركة (بيير كاردان)، وُضع في جيبها العلوي منديل أبيض، وملتحفًا فوقها معطفًا من الصوف، كان مناسب تمامًا لهذا الوقت البارد من العام، وفوقه كوفية، وقبعة من الصوف ذات رفر ف صغير (كاسكيت)، وبقدمه حذاء أسود لامع من الجلد الطبيعي، يحمل بيده حقيبة جلدية صغيرة.

كانت الأجواء قد هدأت في منطقة وسط البلد في ذلك الوقت من الليل، سار بضع خطوات أخرى وهو يطالع البنايات المصطقة على جانبي الطريق بهدوء. حتى وصل إلى المقهى الذي كان على ما يبدو يعرفه جيدًا بشارع طلعت حرب.

بدا مختلفًا قليلًا، بعد أن أزيلت منه صورة الملك فؤاد، ووُضعت في صدره صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر. جلس على مقعد في الصف الأول بجانب الطريق، كان يتهادى إلى سمعه صوت أم كلثوم وهي تنشد رائعته (فات الميعاد) في مذياع المقهى، ابتسم

رغمًا عنه، بدا على ابتسامته نوعًا من السخرية من كلمات الأغنية.
صَفَّقَ بيديه، أتى إليه النادل، فبادره قائلاً:

- مساء الخير، قهوة سادة من فضلك.

- يسعد مساك يا سعادة البيه، تحت أمرك.

أشاح النادل بوجهه تجاه المقهى وهو ينادي بأعلى صوته، قائلاً:

- وعندك واحدة سكيكو بن مخصوص وصاية لسعادة البيه..
وصلحووو.

ابتسم الرجل بوقار وهو يردف إليه، قائلاً:

- شكرًا جزيلاً.

التقط بيده من على الطاولة نسخة من جريدة الجمهورية، يبدو أنها كانت عادة قديمة في ذلك المقهى، وضع الجرائد على الطاولات، أخذ يطلعها في هدوء. انتهت الأغنية، ارتفع صوت مقدم البرنامج يقول: (والآن أعزائي المستمعين بعد أن انتهى البث المباشر لحفلة كوكب الشرق أم كلثوم، نقدم لكم أحدث أغنيات المطربة اللبنانية فيروز، نسم علينا الهوى).

ابتسم مجددًا، طالع بعينه الأجواء من حوله، كان على سطح البناية المقابلة للمقهى، ثمة لافتة مسلَّط عليها عدة كشافات إضاءة ذات ضوء مائل إلى الاصفرار، علَّق عليها صورة (أفيش) مرسوم باليد لفيلم أخطر رجل في العالم، لفؤاد المهندس وشويكار، أطلق ضحكة ساخرة وهو يتمتم في كلمات خافتة:

- مستر إكس... لا ينتهي أبدًا.

كان النادل يضع كوب القهوة أمامه، وهو يتساءل قائلاً:

- بتقول حاجه يا سيدنا البيه؟

- لا عليك، كنت أفكر بصوت عالٍ.

ارتشف أول رشفة من القهوة حين كان شابًا صغيرًا، يقذف إليه بورقة وهو ينادي بأعلى صوته، قائلاً:

- بعد طول انتظار... فيلم معبودة الجماهير في سيما ريقولي... إلحق حفلة تسعة!

نظر في ساعة يده، كانت تقترب من التاسعة مساءً، دس يده في جيبه، عبث ببعض العملات المعدنية، التقط منهم قطعة تساوي عشرين قرش صاغ. أشار إلى النادل، ووضعها في يده قائلاً:

- خلي الباقي علشانك.

- كثير يا سعادة البيه، كتر خيرك، ربنا يزيدك من فضله يا رب.

نهض من على مقعده.. سار بخطوات هادئة، متوجهًا نحو الفتاة الصغيرة التي جلست على الرصيف لتوها أمام المقهى.

كانت يبدو عليها التوتر الشديد، والحزن، تنهمر الدموع من عينيها في صمت، كأن كل حنق الدنيا وقسوتها وظلمها قد اجتمعوا على كتفيها في هذه اللحظة. تراقب بعينيها الصغيرتين حركة السيارات في الشارع، في اللحظة التي كانت تلمع فيها مصابيح سيارة مسرعة

قادمة من بداية الشارع.

نهضت من جلستها ببطء شديد، وهي ترتعش، وعيناها مثبتة على عجلات السيارة التي كان يكاد يصرخ محركها دافعًا إياها بعدوانية شديدة. بدا شكل مصابيح السيارة كعينين غاضبتين، تحملان شرور الدنيا كلها، على جانبي مقدمتها التي كانت تُشبه وجهًا عملاقًا تزّين فمه بأسنان فضية عديدة، كأنه وجه شيطان عابس، يُسرّع الخطى لاقتناص براءة نفس مكلومة أخرى.

اقتربت السيارة بسرعة... كأنها حاصدة الأرواح.

في تلك اللحظة، توقف الرجل بجوار الفتاة، انحنى، ربّت على رأسها.

نظرت إليه بغتة، ابتسم لها، مد يده نحو حقيبته، عبث بمحتوياتها، أخرج منها قالب شوكولاتة مميز بعلامة الغزالة، ودمية من القطن، ومد يده بهما إليها.

نظرت إليه الفتاة باستغراب، ابتسمت، مرت السيارة من أمامهما مسرعة وغابت عن الأنظار.

من بين الدموع المنهمرة من عينيها، ضحكت...

كما لم تضحك من قبل!

مسحت دموعها بيدها الصغيرة، وهي تقول له:

- شكرًا يا عمو.

- مراد يا ابنتي، اسمي... الحاج مراد.

تمت في القاهرة، فبراير ٢٠٢٣ م.